لآلئ عربية

شهادات ذاتية لنخبة من المفكرين
والأدباء والكتّاب

حوارات ومقابلات
عبد الوهاب قتّاية

لآلـئ عـربـيـة

شهادات ذاتية
لنخبة من المفكرين والأدباء والكتاب

حوارات ومقابلات

عبد الوهاب قتاية

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.
PJ7538 .Q29 2015

قتاية، عبد الوهاب.

لآلئ عربية: شهادات ذاتية لنخبة من المفكرين والأدباء والكتاب: حوارات ومقابلات/

عبد الوهاب قتاية.- ط. 1 .- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2015.

ص. ؛ سم.

تدمك: 2 – 529 – 17 – 9948 – 978

1 . الأدب العربي -- تاريخ ونقد. 2. الأدباء العرب -- مقابلات صحفية. أ.العنوان.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1436هـ ـ 2015م

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabdhabi.ae
www.tcaabdhabi.ae

لآلـئ عـربـيـة

إضاءة.. وإهداء

الطموح الأسمى لكل إعلامي وطني جاد، هو أن يحظى بشرف العمل لأداء رسالة نبيلة، تحت راية مشروع وطني للتنمية الشاملة: تنمية الوطن، وتنمية المواطنين، وهذا ما قدر لي ـ والحمد لله ـ منذ بدء حياتي الإعلامية في مطلع ستينيات القرن الماضي في «صوت العرب»، ومبتعثاً إلى إذاعة «صنعاء» (1965)، ثم في إذاعة «الشارقة» (1975)، ثم في «تلفزيون أبوظبي» حتى عام (1992). وفي الإمارات.. كانت لنا أيام، هي بحق من أبرز وأعز ما يسمى بـ«العمر أو الزمن الجميل».

في تلك الأيام.. كانت عناية الله وكرمه قد وهبا للإمارات، وقيضا لها الأب الحاني والزعيم الملهم، صاحب الرؤية والبصيرة النافذة، والعزم والحكمة الواعية، صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رحمه الله، فانطلق. وحوله الطلائع الوطنية من قادة الإمارات وأبنائها ـ رافعاً راية مشروع وطني تاريخي عظيم، يسجل تاريخاً جديداً، ويبني حياة جديدة على أرضها، لخير كل أبنائها، بل وكل الأشقاء.

وفي ظلال هذه المسيرة المباركة، وتحت رايتها الشامخة، تجلت في فكري وقلبي ـ مثل كثيرين ـ معالم الرسالة الإعلامية البناءة، وهي باختصار: المساهمة في حداء المسيرة، والدعوة إلى قيمها النبيلة، وبناء الإنسان بالمعرفة، والثقافة، والتنوير، والانفتاح السمح الواعي على الدوائر التي تنتسب إليها الإمارات: المحلية والخليجية والعربية والإسلامية والإنسانية العالمية.

وبحب خالص، وإيمان عميق، وحماسة دافقة، راح الجميع يجتهد ويعطي ويبدع، وصار إعلام الإمارات ساحة محبة، ومنهل معرفة وثقافة، وجسر تواصل وتعارف، وبوتقة تفاعل خلاق مع كل روافد نهر الثقافة العربية الزاخر من المحيط إلى الخليج. وكمثال بسيط دال ـ

ومعذرة للحديث عن الذات ـ فقد بلغ عدد من قدمتهم من الرواد والمفكرين والمبدعين أدباً وفنوناً نحو خمسمئة من مختلف الأقطار العربية، هم بحق لآلئ متألقة، أضاءت شاشة تلفزيون أبوظبي في برامجه الثقافية المتتابعة: «لآلئ من الخليج» و«لآلئ عربية» و«سوق عكاظ» و«المجلة الثقافية» و«عرب سات» و«بين يومين». وقد اخترت منهم ـ لهذا الكتاب ـ عقداً من عشرين لؤلؤة، من ثمانية عشر قطراً عربياً تمثل في الحقيقة روافد مهمة وغنية ومتدفقة في نهر الثقافة العربية الزاخر، وهي لآلئ متنوعة العطاء والإبداع في مجالات الشعر بتياراته المختلفة، والقصة والرواية بتجاربها المتنوعة، والفكر والعمل العام لبناء الإنسان والأجيال الجديدة، عقلاً ووجداناً وجسداً.

ولست أدعي استئثاراً بفضل في ذلك، فالفضل يعود إلى أولئك الرعاة الوطنيين، قادة العمل الإعلامي آنذاك، الذين شجعوا وتبنوا ويسروا تنفيذ كل فكرة بناءة، مثل هذا الكتاب «لآلئ عربية» ـ وهو غيض من فيض ما قدمه تلفزيون أبوظبي؛ إذ لم يكن له أن يرى النور، لولا الرعاية والتشجيع والتبني والتيسير من الإخوة الكرام في «دار الكتب الوطنية» بهيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، ولعلهم رأوا فيه ـ كما أرى ـ خطوة تحت راية مسيرة الإمارات الصاعدة، فالأفكار فيه ما تزال حية خضراء لا تتقادم، والرسالة التي يحملها هي هي.. رسالة التعارف والتواصل والتفاعل المستنير الخلاق، مرآة للتنوع البديع في إطار الوحدة، وسبيل سالك لها.. وما أشد حاجتنا إلى ذلك في زماننا الشقي الخطير..

لذلك.. فإنني أرى أن أحق الناس بإهداء هذا الكتاب، إنما هم أولئك وهؤلاء أصحاب الفضل.. محبةً وتقديراً وعرفاناً..

عبد الوهاب قتاية

14 إبريل 2015

❋ ❋ ❋



1

الشاعر العربي الموريتاني:
أحمد ولد عبد القادر[1]

صوت العروبة والنضال الوطني في موريتانيا

في العيد الوطني لجمهورية موريتانيا الإسلامية، ما أحق شعبها الشقيق بالتفاتة خاصة، محبة، وتهنئة وتقديراً.. فهذا الشعب العريق.. الرابض هناك في أقصى طرف الوطن العربي على شاطئ المحيط.. ظل على امتداد القرون حارساً أميناً، وطليعة يقظة، زحفت بنور الإسلام وحضارته العظيمة، إلى غرب إفريقيا وقلبها.. وتصدت بكفاءة وصمود لكل العواصف المضادة، محافظة على وجهها العربي، وهويتها الإسلامية..

وهذا الشعب العريق.. الذي فرض عليه الاستعمار عزلة قاسية طوال نصف قرن من الزمان، ولم يحظ في الوقت نفسه، وربما حتى الآن، باهتمام أمته العربية، ظل حريصاً على الدوام على معرفة أمته، والتفاعل مع حركة الحياة والنضال فيها، ومواكبتها والإنشاد لها..

من أجل ذلك.. فإنني أشعر بالتزام حبيب إلى القلب والفكر، بتخصيص وقفة والتفاتة خاصة ـ في عيده الوطني، على الأقل.. نرتشف فيها من رحيق ثقافته وأدبه الفني الأصيل..

والوقفة اليوم، هي مع شاعر كبير، هو أشهر الأصوات الشعرية في القطر الشقيق، وتولى رئاسة اتحاد الأدباء فيه، وفيه تتألف ملامح الثقافة الموريتانية.. كما تتضح في وعيه وفكره

(1) ولد عام 1941.
أجري هذا الحوار مع الشاعر في أبوظبي، وأذيع في برناج «عرب سات» من تلفزيون أبوظبي في يونيو 1985، ثم نشر نصه في جريدة «الاتحاد» في يوم العيد الوطني لموريتانيا 28 نوفمبر 1985.

همومها الكبيرة.. وهي الهموم التي يفضي إلينا ببعضها في هذا الحوار. وقبل أن نلقاه.. كان صوته المميز قد وصل إلينا في كتبه المطبوعة، وأشعاره التي يسري في كلماتها الالتزام بهم وطنه الصغير، وهموم وطنه الكبير، وبخاصة هم فلسطين الأليم.

وفي بدء الحوار.. سألته عن أبيات من شعره يمكن أن تكون بطاقة تعريف به.. فلم يفكر كثيراً.. وأنشد:

«رحلت مع الفجر صوب الشروق..
أسافر بالشوق ورداً وجمرا..
فيا للحنين، زنابق حب تنير الوجود..
وحرقة بينٍ تهزّ الجماد..
تغذي البراكين نخباً، يغطيه ليل الزمن..
رحلت وعندي من الذكريات،
لشنقيط باقات ود صميم،
تعيش مع القلب، تنبض دوماً،
بعرف الوفاء..
معي قبضة من تراب المحيط،
تلألأ ماساً.. وعرجون نخل قديم،
لوته رياح السموم وزحف الرمال..
وكنت أشذب منه البراع
أشعشع بالماء فحم السيال،
وصمغ القتاد،
وحبات قرض جناه الرعاة..
فأسقى المحابر نور الحياة..
يراعي تعلم سحر الوجود..
وحبري وفيٌّ لعهد الجدود..».

* دعنا نبدأ بنظرة سريعة على سيرتك الثقافية والتعليمية.

ـ أنا مواطن من بلاد موريتانيا، المعروفة سابقاً باسم شنقيط.. ولدت عام 1941.. وتلقيت تعليمي، كما نقول عندنا، محضرياً.. أي في المحاضر، وهي مدارس تقليدية كانت عندنا.. يتدرج فيها الطالب من مرحلة التهجي حتى التعليم الجامعي.. وبعد سنة 1961 انتسبت إلى معهد الدراسات العربية الإسلامية بأبي تلميت.. مدة أربع سنوات..

* ورحلة الحياة العملية؟

ـ مارست مهنتي التعليم والصحافة.. ثم اشتغلت منذ عام 1976 في المعهد الموريتاني للبحث العلمي بنواكشوط، باحثاً في التراث المخطوط والتقاليد المروية...

* والعطاء الأدبي؟

ـ أكتب الشعر، وأحاول الرواية، ولي فيها بعض التجارب.. وصدرت لي في مجالها روايتان: «الأسماء المتغيرة» و«القبر المجهول.. أو الأصول».. وكلاهما يستلهمان واقع الحياة والتاريخ الموريتاني، فأنا أهتم بالرواية الاجتماعية ذات المحتوى التاريخي الاجتماعي. أما في الشعر، فصدر لي ديوان واحد هو «أصداء الرمال» عن دار الباحث في بيروت عام 1981، ولدي مجموعة قصائد أو ديوان لم يطبع بعد، عنوانه «الكوابيس».. وهو كما ترى عنوان غير متفائل..

* إذن هو يعكس الواقع والإحساس العربي العام الذي يسيطر على الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج..

ـ بصورة عامة هو هكذا.. لكنه أيضاً يعكس ظروفاً خاصة في موريتانيا وخلجاتها وكوابيسها..

* الحق أن هذه النقطة تجرنا إلى سمة مهمة من سمات الكلمة العربية.. الشعرية.. والنثرية، في موريتانيا. وهي سمة تعبيرها عن الحياة في موريتانيا، وحرارة تواصلها وتفاعلها مع حركة الحياة والنضال في كل الوطن العربي، على الرغم من الظروف القاسية والعزلة التي فرضها الاستعمار عليها سنين طويلة..

ـ الحقيقة أن موريتانيا بعيدة عن بقية أشقائها في الوطن العربي.. من الناحية الجغرافية فقط.. وهذا البعد عاشت معه في بداية تاريخها.. ولكن الشاعر العربي القديم يقول:

وما ضرنا نأي الجسوم، وقد دنت قلوب طويناها على خالص الود

وهكذا حرصت موريتانيا منذ القدم ـ من جهتها ـ على أن تحافظ على هويتها العربية الإسلامية، وتتمسك بأصالتها، رغم جميع العواصف والتيارات المعاكسة..

وموريتانيا في الزمن الوسيط، في قرون ما بعد القرن الألف الهجري، حتى أوائل القرن العشرين الميلادي، عاشت فترتها الذهبية.. من حيث الثقافة والإشعاع الثقافي.. فهي البلد الجسر الذي عبر عليه الإسلام إلى إفريقيا من تلك الناحية. وقد عاشت طوال تلك الرحلة ـ كما قلت ـ فترة ازدهار لها إشعاعها المحمود في كل الاتجاهات..

ومنذ عام 1900 الميلادي، فرضت عليها عزلة قاسية، بسبب الحصار الاستعماري، الذي حاول أن يجعلها جغرافياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً، مقطوعة الصلة بأصلها. لكنها قاومت.. وصمدت.. والأمثلة على هذا كثيرة. لكن في النهاية والحمد لله هي الآن تمهد لنهضتها، على غرار أخواتها من الشقيقات العربيات الأخرى.

*** الحق أن نجاح الإنسان العربي الموريتاني في المحافظة على هويته العربية والإسلامية، يعتبر ملحمة عظيمة يشهد لها التاريخ.. وربما ساعده في ذلك محافظة الأسرة الموريتانية على تربية أبنائها في المحاضر، وفي ظل كتب التراث والمخطوطات التي تعمر كل بيت.. وهي الثروة التي نرجو أن تلقي لنا بعض الضوء عليها..**

ـ الحديث عن المخطوطات التراثية مرتبط بالحديث عن المحضرة، كما تفضلت بالإشارة.. والمحضرة هي المدرسة والمعهد العلمي.. وفي بلدنا فإن الخاصية الثقافية التعليمية كانت على شكل المحضرة، التي صممت لترحل مع البدو في نجوعهم.. من سهل إلى سهل.. ومن قرارة إلى قرارة.. ومن منتجع إلى منتجع.. متكيفة مع هذه الظروف. وقد عبر عن ذلك أحد أوائلنا من القرن الثاني عشر الهجري، يفتخر بمحضرته وتلاميذه، قال:

ونحن ركب من الأشراف منتظم أجل ذا العصر قدراً دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة بها نبين دين الله تبيانا

وإذن.. فإن أهم شيء في فهم هذه المحاضر وهذه الخصائص، هو خاصيتها الاجتماعية، وأنها متنقلة مع البدو في حلهم وترحالهم، ومعها الكتب والمخطوطات..

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى، أنه في المجتمع الحديث عندنا، بدأ طلبة العلم

والمهتمون به يعتمدون على الكتاب المطبوع.. فبدأت هذه المخطوطات، أو آثار المحاضر يتهددها الإهمال والانقراض.

ومنذ سنوات أدركت وزارة الثقافة أن هذا التراث المهم يجب إدراكه والاعتناء به، إنقاذاً وصيانة.. وكنت شخصياً من الذين أتيحت لهم فرصة البحث في مجال المخطوطات.. وقد كانت الفكرة العامة عندي، أنه في بلاد موريتانيا توجد ثروة هائلة من المخطوطات العربية الإسلامية، وأنها في الحقيقة مهددة بالزوال، لأنها كما قلت توجد ـ في الأغلب ـ عند بدو رحل متنقلين، تسلمهم مناطق الرعي باستمرار إلى مناطق أبعد منها..

* هل تعطينا فكرة عن حجم هذا التراث من المخطوطات؟

ـ هذه الثروة تقدر بحوالي مئة وعشرين ألف مخطوط، وهذا حد أدنى في التقدير.. وباستثناء ستة آلاف مخطوط منها محفوظة ومملوكة للدولة، فإن بقية المخطوطات ملك للأفراد. ويتجمع جزء كبير من هذه الثروة في شريط المدن الصحراوية.. المدن التاريخية التجارية التي ربطت في القرون الوسطى بين شمال إفريقيا وغربها.. وهذه المدن أصبحت مهددة تحت كلكل الصحراء الكبرى الزاحفة جنوباً.. ولكنها ما زالت تحوي القسم الأكبر من المخطوطات. وهناك مشروع اليونيسكو لإنقاذ هذه المدن.. وتجديدها.. وحماية آثارها، لكن هذا المشروع لم يتقدم كثيراً حتى الآن..

* إلى أي مدى تتنوع هذه المخطوطات في مادتها وموضوعاتها؟

ـ هذه المخطوطات قيمتها تتحدد من عدة زوايا: الزاوية الأولى، أنها تحمل خصائص الحياة الثقافية العلمية، لمدة تسعة قرون، لقطر عربي إسلامي بعيد، له خصائصه، وله تجاربه الخاصة التي لا تعلمون عنها كثيراً في الشرق..

ثانياً، إذا نظرنا إلى سجل المواد التي تتناولها هذه المخطوطات، فسنجد أن مجالاتها تصل إلى ثلاثة وعشرين مجالاً أو موضوعاً أو مادة أو باباً..

فأبواب منها تندرج في علوم الحديث، من تفسير.. ومصطلح.. وما إلى ذلك..

وجزء كبير منها يندرج في أبواب الفقه، وخصوصاً الفقه المالكي. وجزء كبير آخر يندرج في الآداب، وبخاصة الشعر.. والمقامات.. وأدب الرحلات الذي يتناول رحلات الحجاج والمسافرين الموريتانيين الذين قطعوا مسافات طويلة، وسجلوا مشاعرهم وانطباعاتهم

ومشاهداتهم في رحلاتهم، وهي موضوعات علمية شائقة. وهناك كتب في الفلك.. وكتب في الطب.. ومنها ما هو مرجع كبير يضاهي «تذكرة الأنطاكي»، ويضيف إليها تجارب محلية في النباتات.. وهناك كتب المنطق.. إلى آخره..

لكن المهم هنا هو أن حجاجنا في القرون الوسطى قد استجلبوا معهم الكتب بكثرة، من المشرق ومن المغرب. والآن قد نجد في موريتانيا كتباً مخطوطة أصلاً من المشرق، ولكن لم يعد لها وجود في المشرق.. ودعني أضرب لك مثالاً من كتاب لأبي هلال العسكري هو «الوجوه والنظائر من كتاب الله تعالى».. فهذا الكتاب يوجد في مدينة شنقيط في موريتانيا منه نسخة، ربما تكون نسخة المؤلف نفسه.. وعند اتصالي ببعض الأساتذة في المشرق، مثل الدكتور رضوان السيد في بيروت، وهو عليم بأمور التراث العربي، قال لي: إنه لا يوجد من هذا الكتاب نسخ غير التي عندكم، سوى نسخة مبتورة الآخر في أصفهان.. وهذا مثال واحد فقط.

* هل هناك جهود عملية بذلت أو تبذل في مجال تحقيق ونشر هذا التراث القيم؟

ـ نحن ما زلنا متخلفين في أمور التحقيق.. ولكن أهل المنطق القدامى يقولون: «إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره».. بمعنى: يجب أن تنقذ المخطوطات أولاً.. وبعد إنقاذها يمكن الحكم عليها.. تحقيقها.. ثم طبعها. وقد بدأنا منذ سنتين أو ثلاث سنوات في بذل الجهود في هذا المجال، فبدأ معهد الأساتذة عندنا يكلف طلابه إعداد رسائل تخرجهم في مواضيع فقهية.. أو أدبية.. أو في علم الكلام.. أو في النحو.. تعتمد على المخطوطات. وقد نجح جهد الطلاب حتى الآن في تحقيق حوالي مئة مخطوط، أذكر منها على سبيل المثال «الألفية النحوية» لابن بونا.. وهذا الكتاب هو موسوعة نحوية مبسطة ميسرة، وتضم مختصراً لألفية ابن مالك في النحو، أضاف إليها العلامة ابن بونا ألف بيت أخرى، ووضع على الاثنين طرة أو احمراراً.. وهو كتاب معروف في النحو..

* الحق أننا لا نملك إزاء هذا الكنز الثمين من المخطوطات، سوى أن نناشد كل جهات البحث العلمي المهتمة بالتراث الإسلامي، أن تتضافر جهودها لإنقاذ هذا التراث، وتحقيقه ونشره.. وهو أمر يحتاج إلى مزيد من التواصل بينكم وبين الحياة الثقافية في كل الوطن العربي..

ـ المعروف عن الشناقطة ـ من قديم ـ أنهم كانوا رحالين إلى المشرق، حجاجاً وغير حجاج..

فنحن كنا دائماً على صلة حية بالمشرق، بهذه الطريقة أو تلك.. فالاتصال كان دائماً موجوداً، وبخاصة في المجال الثقافي، من خلال الأدب واللغة الرابطة التي تجمعنا.

* هذا واضح.. وبخاصة في تعبيركم الأدبي عن الأحداث وتطورها.. ومواكبتكم لحركة النضال العربي الحديث..

- في العصر الحديث.. ساعد على تنشيط اتصالنا بالمشرق انتشار وسائل الاتصال الجماهيرية السمعية والبصرية، وهو اتصال لم يكن بشكل مباشر، وإنما كان من النوع الذي قصده المتنبي حين قال:

يصادف روح المرء من قبل جسمه وأعرفها من نطقه والتكلم

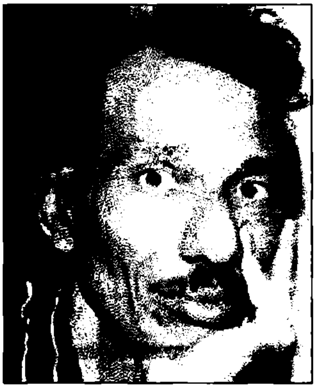
* الواقع أن الفضل الأول في اتصالكم بالمشرق، يعود إلى حيوية نبض الوجدان العربي في موريتانيا، والذي يرى في هموم أشقائه هموماً له.. الأمر الذي يتضح في شعرك وشعر إخوانك.. وحبذا لو قدمت لنا في ختام حوارنا مثالاً من هذا الشعر..

- يسرني أن أقدم أبياتاً من قصيدة لي بعنوان «إن القرون ليالينا»، كتبتها أيام دخول القوات الصهيونية الغازية إلى بيروت:

عرج بلبنان واذر الدمع منسجما وابك الهموم، ولا تستنهض الهمما
لو ينفع الأهل شكوى الأهل ما رحلت كتائب الفتح تحدو البحر مرتطما
مهاجرون بأسياف مهاجرة تحكي القلوب مضاء والدماء دما
وتخفق الراية العصماء طافية فوق النجوم ولا برضى بها شمما
تساجد الموج إجلالاً لروعتها وانساح رغواً وحيَّى الجند والعلما
يا بحر كم رسمت أطياف ثورتنا في حاجبيك، فذقت العز والألما
وكم أناشيد من نار الفدا غمزت في بطنك الدر والتاريخ فابتسما
الشمس تنظر جيش النور مرتحلا وعصبة الليل تخشى الدار والحرما
فتعصر الغضب الوهاج في كبد حرى وتختزن الأقدار والحمما
لبنان.. كيف الجراح الحمر يغسلها دمع اليتيم فتبري السيف والقلما؟
كيف الصواعق تذرو الورد محترقاً وتذبح البلبل الجذلان والنغما؟

لا عـــار لـبـنـــان، والأعـــــداء شـاهــدة	إن الإبـــاء بـصـولات الشعوب سمـا
لا عـار، لا شلت الأيـدي وقـد غرست	شــوك الصمود ولـم يخطئ لهم قدما
كنتم فلسطين أبـنـاء الكرامـة أحـ	ـفاد الجهـاد، جهاد البـذل، والكـرما
هــي الأخـــوة فلتصبح كـذلـك أو	تلغى، ونحسبها مـن أصلها عدمـا
تقاسموا الخبز والموت المبجل والنـ	ـنصرالمضرج والأضـــواء والظلما
سائل «بـونـابـرت» عن عكا وهجمته	هـل عــاد منتصراً أم عــاد منهزمـا؟
وقـــفْ بحطين، عين الـدهـر ساهرة	فـي قلب حطين تحكي قصة الغرما
إن الــقـــرون لـيـالـيـنـا، نـعـد بها	ديـن الحقوق، ونستقصي الـذي ظلما
ولــن يـظـل طـلـيـقـاً مـن مصائدنـا	لـو كـل قطر غـــدا لبنان مضطرما
سبيلنا الـنـصـر مهما طــال مـوعـده	وزادنـــا الـبـذل مهما عــز أو عظما

* * *



2

الشاعر العربي المصري
أمل دنقل[1]

أمير شعراء الرفض

كان ذلك في صيف عام 1982..

كانت الأنباء، وخاصة تلك التي كان يفضي بها الأصدقاء، تجمع على أنه صار ضيفاً خفيفاً على الدنيا، وأن العد التنازلي قد بدأ إيذاناً برحيله..

كنت أجلس إليه في غرفته في الطابق السابع بالمستشفى، وكان على سريره أمامي شبحاً منهكاً، لكن متوهج الذهن ومتوقد القلب..

ورحنا نسترجع ذكريات الشباب الباكر التي جمعتنا، ونتشاكى الغربة، في الوطن وخارجه.. ثم ـ برفق وإشفاق ـ رحت أفضي إليه برغبتي في تصويره، في حوار أدبي خاص لتلفزيون الإمارات العربية المتحدة من أبوظبي، وذلك في إطار حوارات مع شعراء الوطن العربي، في برنامجي «سوق عكـاظ»..

كان ما أخشاه هو موقفه القديم الذي أعرفه، واعتذاره الرافض لمقابلات الإذاعة والتلفزيون، وكان أشد ما أخشاه، أن أبدو كمن يطلب تسجيل وصية من مريض.. لكن أمل دنقل، خفف عني بعض ما أعانيه، وأدهشني حين استجاب من فوره، بل إنه حين قلت: «إن إدارة المستشفى لا توافق على التصوير فيه»، كان رده: «نصور في البيت..». وبقدر فرحي باستجابته كان انقباض

(1) ولد عام 1940، وتوفي في 21 مايو 1983.

قلبي لشعوري بأنه وافق رغبة في إعطائي شهادته الذاتية.. وديعة أخيرة بالصوت والصورة..

وفي شقته الصغيرة المتواضعة في حي منشية البكري بالقاهرة، كان اللقاء.. ومن اللحظة الأولى أحسست بأسى العشّ ووحشته لطول غياب طائره عنه.. لكنني ـ وقلبي يعصره الألم ـ رحت أجهد في التصرف بشكل طبيعي.. وكذلك راحت زوجه ورفيقة رحلة العناء، الأديبة الصحفية عبلة الرويني، بل راح هو نفسه يضفي لمسة طبيعية على اللقاء، ويصر على القيام بدور المضيف..

وبدأ الحوار.. الذي أصبح ـ كما كنت أتوقع ـ أهم وثيقة عن أمل دنقل، وشهادة ذاتية فريدة عن حياته، وآرائه، وفنه. وقد أذيعت وكان لها أصداء طيبة في المنطقة، أعتز من بينها باتصال ناقدنا النابه المبدع الصديق رجاء النقاش، من قطر حيث كان يرأس تحرير مجلتها «الدوحة»، ثم إشارته إليها في مقال له عن الشاعر، يتضمنه كتابه الجامع «ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء» كذلك نشر نصه كاملاً الشاعر الصديق حبيب يوسف الصايغ في مجلته «أوراق» في عددها الرابع في أكتوبر 1983.

* مرحباً بك يا أمل.. «وألف سلامة عليك».. واسمح لي في البداية أن أنقل لك مشاعر الناس في كل مكان كانت لنا جولة فيه، فهم يعيشون معك وتنبض قلوبهم بالدعاء لك بأن تصل إلى بر السلامة، بعد هذه المحنة إن شاء الله..

ـ شكراً.. والحقيقة أن مشاعر الأصدقاء كانت نصف سبيلي إلى الشفاء.. ومنها أستمد القدرة على مواجهة المحنة، إن شئنا أن نسميها محنة.. وإنما هي عابرة إن شاء الله..

* في الواقع، الناس والقراء يعرفونك من خلال دواوينك وأشعارك.. لكننا نريد ـ جرياً على عادتنا ـ نقطة ضوء منك على تجربة الحياة، وتجربة التعليم والطلب..

ـ في الحقيقة أنا لا أميل كثيراً إلى إقحام ذاتي وشخصيتي فيما أقدمه للناس.. ولقد كنت حريصاً حتى في دواويني ألا أكتب مقدمة أو مؤخرة لديوان أقدم فيها نفسي، لأنني كنت أعتبر أن الشعر وحده كافٍ لتقديمي للناس، ولكن يبدو أنه لا بد مما ليس منه بد، وأن يتحدث الإنسان عن ذاته، رغم أنني أعتبر نفسي مواطناً عربياً عادياً.. وإذا كان هناك شيء أقدمه أو إسهام حضاري أقدمه في حياتنا العربية، فهو شعري..

من هذه الوجهة، فإنني ـ في كلمات بسيطة ـ ولدت في صعيد مصر، في قرية بجوار مدينة الأقصر حيث الآثار الفرعونية الشهيرة، فهي كانت عاصمة مصر القديمة كما تعرف..

ونشأت في الصعيد، بين الصحراء الحادة القريبة والوادي الضيق، والقبائل العربية التي استوطنت هناك منذ أيام الفتح العربي..

كل هذا أكسبني حدة في التعبير وحدة في الإحساس بالصورة والتناقض بين الأشياء.. فالصعيد ليس كالدلتا.. الأرض ليست منبسطة، والمناخ ليس معتدلاً.. لكن كل شيء محدد بدقة.. وربما كان لذلك أثره في إحساسي الحاد بالأشياء..

وبطبيعة الحال تعلمت هناك حتى المرحلة الثانوية، ثم أتيت إلى القاهرة لألتحق بكلية الآداب، ثم عملت في مدينة الإسكندرية، التي كانت نقلة كبيرة بالنسبة لي من الصحراء إلى البحر، ثم عدت إلى القاهرة حيث اشتغلت بالنشر والكتابة حتى اليوم..

* نحن ـ بطبيعة الحال ـ لنا وقفات عند بعض ملامح وخصائص تجربة أمل دنقل الشعرية وآرائه، لكن قبل ذلك نحب أن نطل على عالمك الشعري من خلال قصيدة من قصائدك..

ـ أنا أحب أن أقول قصيدة بعنوان «يوميات أبي نواس».. وكلنا نعرف أن أبا نواس اشتهر بالمجون والخمريات، لكنني رأيت أن هذه الشخصية هي شخصية أبي نواس الظاهرية، وقد تخيلت أنه كتب يومياته في عدة أوراق:

الورقة الأولى

«مِلكٌ أم كتابةْ؟»
صاحَ بي صاحبي، وهو يُلْقي بدرهمهِ في الهَواءْ
ثم يَلْـقُـفُهُ.
خَارَجيْن من الدرسِ كُنّا..
وحبْرُ الطفْولةِ فوقَ الرداءْ..
والعصافيرُ تمرقُ عبرَ البيوت،
وتهبطُ فوق النخيلِ البعيدْ.

* * *

«ملِك أم كتابة؟»
صاح بي.. فانتبهتُ..
ورفتْ ذبابة،
حولَ عينيْنِ لامِعتيْنِ،
فقلتْ: «الكِتابهْ»..
فَتَحَ اليدَ مبتَسِماً..
كانَ وجهُ المليكِ السَّعيدْ
باسماً في مهابة.

* * *

«ملِكٌ أم كتابة؟»
صحتُ فيهِ بدوري..
فرفرفَ في مقلتيهِ الصِّبا والنجابة..
وأجابَ: «الملِكْ»..
دون أن يتلعثَمَ.. أو يرتبكْ..
ففتحتُ يدي..
كانَ نقشُ الكتابة،
بارزاً في صلابة.

* * *

دارتِ الأرضُ دورتَها..
حَملَتْنا الشَّواديفُ من هدأةِ النهر..
ألقتْ بنا في جداولِ أرضِ الغرابة..
نتفرَّقُ بينَ حقولِ الأسى.. وحقولِ الصبابة.
والتقينا..
التقينا على سُلَّم القَصرِ..
ذاتَ مَساءٍ وحيدْ

كنتُ فيهِ نديمَ الرشِيد..
بينما صاحبي.. يتولى الحجابة.

الورقة الثانية

من يملكُ العملةَ،
يُمسكُ بالوجهيْن.
والفقراءُ،
بَيْنَ بيْنْ.

الورقة الثالثة

نائماً كنتُ جانبَه.. وسمعتُ الحرسْ
يوقظون أبي..
«خارجيٌّ.. أنا؟»
«مارقٌ؟ منْ؟ أنا؟»
صرخَ الطفلُ في صدر أمّي..
وأمّيَ محلولةُ الشَّعر واقفةٌ.. في ملابِسها المنزلية..
«اخرَسوا»..
واختبأنا وراءَ الجدار،.
«اخرَسوا»..
وتسللَ في الحلقِ خيطٌ من الدمِ..
كان أبي يُمسكُ الجرحَ..
يمسكُ قامته.. ومَهابَتَه العائلية..
«اخرَسوا»..
وتواريتُ في ثوب أمّي

والطِّفلُ في صدرها ما نَبَسْ..
ومَضوا بأبي،
تاركين لنا اليُتم.. متَّشِحاً بالخرَس..

الورقة الرابعة

وأمّي جارية فارسية..
يتبادل سادتُها قهوةَ الجِنْسِ
وهي تدير الحَطبْ..
يتندَّر سادتُها الطيِّبون بلهجتِها الأعجمية..
نائماً كنتُ جانبَها،
ولمحت ملاكَ القُدُسْ
ينحني، ويُرَبِّتَ وجنَتَها..
وتراخى الذراعانِ عني قليلاً قليلا..
وسارتْ بقلبي قُشَعْريرةُ الصمت..
«أمّي».. وعادَ لي الصوت..
«أمّي».. وجاوبني الموت..
«أمّي».. وعانقتُها.. وبكيتُ..
وغامَ بي الدَّمعُ حتى احتَبَسْ..

الورقة الخامسة

لا تسألْني إن كانَ القُرآنْ
مخلوقاً.. أو أزليّ؟
بل سَلْني..
إن كان السُّلطانْ
لِصًّا.. أو نصفَ نبيّ؟

الورقة السادسة

كنتُ في كَرْبلاءْ
قال لي الشيخُ: «إن الحُسينْ
ماتَ من أجلِ جرعةِ ماءْ»
وتساءلتُ: «كيف السيوفُ استباحتْ
بني الأكرمينْ؟»
فأجابَ الذي بصَّرتْه السَّماءْ:
«إنه الذَّهبُ المتلألىءُ: في كلِّ عينْ».
إن تكُن كلماتُ الحسينْ،
وجلَالُ الحُسينْ،
وسُيوفُ الحُسينْ،
سَقَطَتْ دون أن تُنقذ الحقَّ
من ذهبِ الأمراءْ؟
أفتقدرُ أن تنقذ الحقَّ
ثرثرةُ الشُّعراء؟
والفراتُ لسانٌ من الدمِ
لا يجدُ الشَّفتينْ؟
ماتَ من أجل جرعة ماءْ..
ماتَ من أجل جرعة ماءْ..
فاسقني يا غُلام..
اسقِني يا غُلام..
صباحَ مساء..
اسقِني يا غُلام..
ربما بالمُدام،
أتناسى الدّماءْ..
أتناسى الدّماءْ..

* الحق أن هذه إطلالة تبيّن للمشاهد والقارئ الخصائص المميزة لشعر أمل دنقل والتي تحدثت عن بعضها.. وهي تبيّن أيضاً أن من خصائص شعرك، إلى جانب الحدة في رسم الصور، الوضوح العميق الذي يطرح أمامنا قضية الرمز المبهم الغامض.. تلك الظاهرة التي تفشت في الشعر العربي الحديث..

ـ أنا في اعتقادي أن الشعر ـ والفن عموماً ـ لا بد له من التوصيل.. أعني لا بد له من أن يصل إلى المتلقي. ظاهرة الغموض التي اتسم بها الشعر الحديث، في تقديري ذات شقين:

هناك الغموض الذي ينشأ عن عدم وضوح الرؤية في ذهن الشاعر، بمعنى أن يدخل الشاعر في تجربة القصيدة دون أن تتبلور بدرجة كافية، لكي يستطيع أن ينقل وضوحها الداخلي إلى المتلقي.. هو لا يترك تجربته حتى تنضج تماماً وتتضح أبعادها في داخل نفسه ووجدانه، حتى يستطيع نقلها بأمانة إلى المتلقي..

هذا عن الشاعر نفسه، ولكنّ هناك غموضاً مسؤوليته تقع على المتلقي نفسه، لأن الشعر الحديث من خصائصه أنه يعتمد على الصورة الشعرية أولاً.. على الرموز الشعرية.. على الأساطير والميثولوجيا القديمة المتوارثة، أي يستخدم كل أدوات التوصيل الممكنة حتى يستطيع أن يصل بها إلى القارئ..

هناك القارئ الذي ليس لديه استعداد لتذوق الشعر.. بمعنى أنه ليس لديه الثقافة الكافية لكي يتعرف على هذا الشعر.. لأن هناك نوعاً من الشيفرة بين الشاعر والمتلقي.. فإذا لم تكن لديه مفاتيح هذه الشيفرة فإنه يصبح أمام عمل مغلق بالنسبة له، وأنا أقول دائماً: إن تذوق الشعر يحتاج إلى موهبة وإلى ثقافة تكاد توازي ثقافة الإبداع الشعري نفسه..

من هنا فإني لا أطلب من أحد ليس مدرباً على قراءة الشعر أن يتناول قصيدة، وأن يستمتع بها.. كما أنني لا أطالب شاعراً لا يصبر على تجربته الشعرية حتى تتضح، بأن يكتبها ويقدمها مبتسرة، ثم يطالب الناس بفهمها..

* في هذا المجال أعتقد أن الشعر شأنه شأن الموسيقى والفنون المختلفة..

ـ هذا صحيح.. كلها لها أبجديتها التي لا بد من أن يكون متفقاً عليها بين القارئ والمبدع.

* نعود إلى إطلالة أخرى على شعر أمل دنقل، ولنحاول هذه المرة أن نقطف زهرة من

القصائد القليلة التي كتبها في عاطفة الحب..

ـ هذه مقطوعة اسمها «الشهور»:

الشُهورُ زُهُور..
على حافَةِ القلَبِ تَنْمو
وتُحرقُها الشَّمسُ ذاتُ العُيون الشِّتائيَّةِ المُطفأة..
زهرةٌ في إناءْ..
تتوهَّجُ ـ في أوَّلِ الحبِّ ـ بيني وبينَكِ..
تُصبحُ طفلاً.. وأرجوحةً.. وامرأة.
زهرةً في الرِّداء..
تَتَفَتَّحُ أوراقُها في حَياءْ،
عندما نَتَخَاصرُ في المشْيةِ الهادئة.
زهرةٌ من غِناء..
تَتورَّدُ فوق (كَمنجاتِ) صوتكِ،
حين تفاجئكِ القُبلةُ الدافئة.
زهرةٌ من بُكاء،
تتجمَّدُ ـ فوقَ شُجيرةِ عينيكِ ـ
في لحظاتِ الشِّجارِ الصغيرةِ..
أشواكُها: الحزنُ.. والكِبرياءْ.
زهرةٌ فوق قبرٍ صغيـرْ،
تنحني، وأنا أتحاشى التطلعَ نحوكِ
في لحظات الودَاع الأخيرْ.
تَتَعرَّى؛ وتلتفُّ بالدَّمعِ ـ في كلِّ ليلٍ ـ
إذا الصَّمتُ جاءْ..
لم يَعُدْ غيرُها.. من زهورِ المسَاء
هذه الزهرةُ اللؤلؤه.

* أمل دنقل له عدة مجموعات شعرية تعمر المكتبة العربية.. هل تعطينا فكرة عنها بترتيب صدورها؟

ـ أنا لي خمس مجموعات شعرية.. الديوان الأول صدر في عام 1969، وهو ديوان «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة» وكان رد فعل لهزيمة عام 1967..

الديوان الثاني صدر في عام 1971 وهو ديوان «تعليق على ما حدث».. والديوان الثالث كان بعنوان «مقتل القمر» وصدر عام 1973.. أما الديوان الرابع فقد صدر عام 1975 وهو ديوان «العهد الآتي».. ولي ديوان صدر في عام 1979 اسمه «أحاديث في غرفة مغلقة»، وهناك قصيدة طويلة بعنوان «لا تصالح» صدرت عن منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت.

* الواقع أن كل مجموعاتك لاقت من الإقبال والتفهم والإعجاب الكثير، لكن قصيدة «لا تصالح» كان لها دوي وصدى خاص في قلوب جماهير الأمة العربية، فحبذا لو اقتطفنا الآن بعض مقاطعها..

ـ أود أن أشير في البداية إلى أن هذه القصيدة كتبت ونشرت في لندن عام 1976، أي قبل الزيارة المشؤومة للقدس في تشرين الثاني ـ نوفمبر 1977.. ومن هنا اكتسبت القصيدة أهميتها في نظر البعض..

* هذه بصيرة الشاعر..

ـ هي تعلق على موقف مقتل الملك كليب في حرب البسوس.. فقد جاء في القصة أن «كُليباً» حينما طعنه جساس برمحه، نظر حوله وتعبّر وذرف دمعة وتحسر.. فرأى عبداً واقفاً فقال له: أريد منك يا عبد الخير قبل أن تسلبني أن تسحبني إلى هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير، لأكتب وصيتي إلى أخي الأمير سالم الزير، فأوصيه بأولادي وفلذة كبدي.. فسحبه العبد إلى قرب البلاطة، والرمح غارس في ظهره، والدم يقطر من جنبه.. فغط إصبعه في الدم وخط على البلاطة.. وأنشد يقول:

لا تصالحْ..
ولو قلدوك الذهب..
أترى حين أفقأ عينيك،

ثم أثبت جوهرتين مكانهما،
هل ترى؟
هي أشياء لا تشترى:
ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك..
حسُّكما - فجأةً - بالرجولة..
هذا الحياء الذي يكبت الشوق.. حين تعانقُهُ..
الصمتُ - مبتسمين - لتأنيب أمكما،
وكأنكما، ما تزالان طفلين..
تلك الطمأنينة الأبدية بينكما..
أنَّ سيفانِ سيفَكَ..
صوتانِ صوتَكَ..
أنك إن متَّ،
للبيت ربٌّ..
وللطفل أبْ..
هل يصير دمي - بين عينيك - ماء؟
أتنسى ردائي الملطَّخَ بالدم؟
تلبس - فوق دمائي - ثياباً مطرَّزَةً بالقصب؟
إنها الحربُ،
قد تثقل القلبَ،
لكن خلفك عار العرب..
لا تصالحْ..
ولا تتوخَّ الهرب.

* * *

لا تصالح على الدم.. حتى بدم.
لا تصالح.. ولو قيل رأس برأسٍ.
أكلُّ الرؤوس سواءٌ؟

أقلب الغريب كقلب أخيك؟
أعيناه عينا أخيك؟
وهل تتساوى يدٌ.. سيفها كان لك،
بيدٍ سيفها أثْكلَك؟
سيقولون: جئناك كي تحقن الدم..
جئناك، كن يا أمير الحكم.
سيقولون: ها نحن أبناء عم.
قل لهم: إنهم لم يراعوا العمومة
فيمن هلك.
واغرس السيفَ في جبهة الصحراء
إلى أن يجيب العدم.
إنني كنت لك:
فارساً،
وأخاً،
وأباً،
ومَلِك.

* * *

لا تصالح
ولو توَّجوك بتاج الإمارة.
كيف تخطو على جثة ابن أبيك؟
وكيف تصير المليك،
على أوجهِ البهجة المستعارة؟
كيف تنظر في يد من صافحوك،
فلا تبصر الدم.. في كل كف؟
إن سهماً أتاني من الخلف،
سوف يجيئك من ألف خلف..

فالدم ـ الآن ـ صار وساماً وشارة.
لا تصالح،
ولو توَّجوك بتاج الإمارة.
إن عرشَك: سيفٌ.
وسيفك: زيفٌ،
إذا لم تزنْ بذؤابته لحظاتِ الشرف،
واستطبت حياة الترف.

* * *

لا تصالح
ولو قال من مال عند الصدامْ:
«ما بنا طاقة لامتشاق الحسام..»
عندما يملأ الحق قلبك،
تندلع النار إن تتنفَّسْ..
ولسانُ الخيانة يخرس.

* * *

لا تصالح..
ولو قيل ما قيل من كلمات السلام..
كيف تستنشق الرئتان النسيم المدنَّس؟
كيف تنظر في عيني امرأة،
أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها في الظلام؟
كيف تصبح فارسها في الغرام؟
كيف ترجو غداً،
لوليد ينام؟
كيف تحلم أو تتغنى بمستقبلٍ لغلام،
وهو يكبر ـ بين يديك ـ بقلب مُنكَّس؟
لا تصالح..

ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام..
وارْوِ قلبك بالدم..
وارْوِ التراب المقدَّس..
وارْوِ أسلافَكَ الراقدين..
إلى أن تردَّ عليك العظام.

* * *

لا تصالح..
ولو ناشدتك القبيلة
باسم حزن «الجليلة»،
أن تسوق الدهاءَ،
وتُبدي ـ لمن قصدوك ـ القبول.
سيقولون:
ها أنت تطلب ثأراً يطول..
فخذ ـ الآن ـ ما تستطيع:
قليلاً من الحق،
في هذه السنوات القليلة.
إنه ليس ثأرك وحدك،
لكنه ثأر جيلٍ فجيل.
وغداً،
سوف يولد من يلبس الدرع كاملةً،
يوقد النار شاملةً،
يطلب الثأرَ،
يستولد الحقَّ،
من أَضْلُع المستحيل.

* * *

لا تصالح..
ولو قيل إن التصالح حيلة.

إنه الثأرُ..
تبهتُ شعلته في الضلوع،
إذا ما توالت عليها الفصول..
ثم تبقى يد العار،
مرسومة بأصابعها الخمس،
فوق الجباهِ الذليلة.
لا تصالح..
لا تصالح..

* * *

* الواقع أن هذه القصيدة، إلى جانب ما تثيره من شجن، تثير أيضاً قضية مهمة هي قضية استلهام التراث.. والمعروف أن أمل دنقل في طليعة الشعراء الذين غاصوا في التراث واستطاعوا أن يلتقطوا رموزاً وشخصيات وأبطالاً وملامح تراثية، استخدمها بذكاء وإبداع..

هذه القضية.. قضية استهلام التراث العربي والإسلامي، في مواجهة استلهام الميثولوجيا الغربية اليونانية والرومانية، نود أن نتعرف على موقفك فيها.

ـ في الواقع أن استخدام التراث والأساطير جزء أساسي من عملية الإبداع الشعري وعملية التوصيل الشعري، واستلهام الميثولوجيا اليونانية والغربية عموماً نحن ورثناه من الجيل السابق لنا من الشعراء.. وهم في ذلك إما كانوا متأثرين بمن سبقوهم حيث كان التطور والنهضة مرتبطين بالغرب وبتقليد الغرب، أو لمحاولة استيضاح وإبراز الكيانات الإقليمية، كالتراث الفرعوني في مصر والبابلي في العراق، إلى آخر هذه التراثات المحلية..

بالنسبة لجيلي، أعتقد أن القضية كانت مختلفة لأن الشعر لدينا له وظيفة اجتماعية وقومية أيضاً.. إن استلهام التراث في رأيي ليس فقط ضرورة فنية، ولكنه تربية للوجدان القومي. فإنني عندما أستخدم أو ألقي الضوء على التراث العربي والإسلامي الذي يشمل منطقة الشرق الأوسط بكاملها، فإنني أنمي في المتلقي روح الانتماء القومي وروح الإحساس بأنه ينتمي إلى حضارة عريقة، لا تقل إن لم تزد عن الحضارات اليونانية أو الرومانية..

إن استلهام التراث، وإبرازه، هو جزء من معركة الإحساس القومي والانتماء القومي التي يركز عليها الشعر في كفاحه الآن من أجل خلق أمة عربية واحدة..

* سؤال أخير، أحب أن أتعرف على جوابه من أمل دنقل الشاعر.. وهو لماذا الشعر؟ وهل صار الشعر مغترباً في عصرنا؟

ـ الحقيقة أن الشعر ضروري لكل عصر.. أعني أن الشعر ليس غريباً، ولا يغترب في أي عصر.. لماذا؟ لأن الشعر هو الحلم بتغيير الواقع.. وطالما هناك واقع لا يرضى عنه الإنسان ـ والإنسان مستحيل أن يرضى عن الواقع لأن ذلك معناه أن تتوقف المسيرة الإنسانية ـ وطالما هناك حلم بتغيير هذا الواقع، فلا بد أن يوجد الشعر.. لأن الشعر يريد أن يجعل من الواقع حلماً، ومن الحلم واقعاً.. فطالما وجد الحلم الإنساني والطموح الإنساني، فإن الشعر سيوجد، وفي هذا يختلف الشاعر عن السياسي، لأن السياسة هي فن الممكن، بينما الشعر هو فن المستحيل. والمستحيل في نظر الإنسان هو الطموح الأكبر له، وهو الكمال الأسمى الذي يسعى إليه والذي تسعى البشرية إليه منذ بدايتها.. وليس غريباً أن يبدأ غناء الإنسان وجيشانه منذ بداية الحضارة شعراً.. وأن يظل الشعر طيلة هذه العصور التي يعيشها الإنسان، متقدماً على كافة الفنون.

* فماذا عن انصراف أجيال كاملة من الناشئة الآن عن الإقبال على الشعر؟

ـ الانصراف له أسباب متعددة، ربما يكون أحد أسبابه الأمية المنتشرة، ومصادر الثقافة المحدودة. إن الشاب العربي لا توجد أمامه كتب بوفرة، ودائماً تسلط عليه في التلفزيون المسلسلات دون العناية بتنمية الجانب الثقافي..

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا أعفي الشعراء أيضاً، لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى قلوب الشباب.. لأن فصل الشعر عن الأحلام الإنسانية وأحلام الطموحات الوطنية والقومية يجعل مساحة الشعر تضيق.. فطالما وجد الشباب أو القراء في الشعر ترجمة لطموحاتهم وأحلامهم ووجدانهم فإنهم يقبلون عليه.. أما الشعر الذي ينصرف عنه الناس فهو الشعر الذي يقول ما قيل من قبل، أو الذي يداهن وينافق ويمدح ويرفع شعارات غير صادقة.. هذا ينصرف عنه الناس، لكن الشعر الحقيقي سيظل دائماً موجوداً ومرغوباً، لأنه جوهر الإنسان الخالد.

* الواقع أن الحديث مع أمل دنقل أمر رائع وحبيب، لكن وقت البرنامج يضطرنا للوصول إلى شاطئ نهاية الحوار.. لذلك وقبل أن نودعك، وقلوبنا تدعو لك.. نسأل عن تجربة السرير في المستشفى وأثرها شعرياً.. هل تكتب؟

ـ طبعاً.. وهناك قصيدة مما كتبت بعنوان: «الزهور»[1]:

وسلالٌ منَ الورِد،
ألمحُها بينَ إغفاءةٍ وإفاقـة..
وعلى كلِّ باقةٍ،
اسمُ حامِلِها في بطاقـة.

* * *

تَحدثُ لي الزَهراتُ الجميلهْ:
أن أَعيُنَها اتَّسَعَتْ ـ دهشةً ـ
لَحظةَ القَطْف،
لَحظةَ القَصْف،
لحظة إعدامها في الخميلهْ.

* * *

تَحدثُ لي أَنها انتزعت
منْ على عرشِها في البسَاتين..
ثم أَفَاقَتْ
على عَرْضِها في زُجاجِ الدكاكينِ..
أو بينَ أيدي المُنادين،
حتى اشترَتْها اليدُ المتَفضِّلةُ العابِرهْ.

* * *

تَحدثُ لي كيف جاءتْ إليّ،
وأحزانُها الملَكيةُ،
ترفع أعناقَها الخضْرَ،
كي تَتَمنى ليَ العُمرَ،
وهي تجودُ بأنفاسِها الآخرهْ.

* * *

(1) قصيدة «الزهور» وغيرها من قصائده الأخيرة صدرت في ديوانه السادس بعنوان «أوراق الغرفة (8)» التي قضى فيها في المستشفى في 21 مايو 1983 عن ثلاث وأربعين سنة.

كلُّ باقةْ..
بينَ إغماءة وإفاقةْ..
تتنفسُ ـ بالكادِ ـ مِثلِيَ
ثانيةً.. ثانيهْ..
وعلى صدرِها حملَتْ ـ راضيهْ،
اسمَ قاتِلها،
في بطاقةْ.

* * *



3

الشاعر العربي العراقي

بلند الحيدري[1]

الفنان شاعـر الاغتراب

بلند الحيدري.. شاعر كبير من جيل رواد التجديد في الشعر العربي الحديث.. ولد بالعراق عام 1926 العام الذي شهد ولادة بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي، وكان أسبقهم جميعاً في إصدار أول مجموعة شعرية تحتوي على قصيدة التفعيلة..

تميز شعر الحيدري بإتقان تصميمه، وتركيزه، ووحدته العضوية، وتعبيره بالصور والهمس والإيحاء والصمت أيضاً. وقدم لديوان الشعر العربي الحديث نخبة متميزة من الأعمال. ولكنه حين شعر بشيء من الجفاف في نبعه أعلن بشجاعة توقفه عن كتابة الشعر، متأسياً بابن المقفع حين سئل: «لماذا لا تكتب الشعر وأنت أهل له؟» فقال: «ما أريده لا يأتيني، وما يأتيني لا أريده».

لكن بلند الحيدري لم يقو على هجر الشعر، وعاد بعد سنوات ليرسل من مهجره في لندن، إلى معشوقته بيروت ـ التي أمضى نحو عشرين سنة من عمره فيها ـ اثنتي عشرة مقطوعة شعرية على اثنتي عشرة بطاقة بريدية في مغلف.

وهو في سنوات هجر الشعر ـ وقبلها وبعدها ـ عميق الحضور في الحياة الثقافية العربية..

---

(1) ولد عام 1941، وتوفي في 26 سبتمبر 1996.

سجلنا هذا الحوار في تلفزيون أبوظبي لبرنامج «لآلئ من الخليج والجزيرة العربية»، وأذيع في يونيو 1979، ثم نشر نصه في جريدة «الاتحاد» في 26 نوفمبر 1987. وكصفحة حزينة من كتاب الاغتراب العراقي المأساوي، توفي الشاعر بالمستشفى في مدينة نيويورك، في السادس والعشرين من سبتمبر 1996.

بشعره.. وأفكاره.. واهتماماته المختلفة بالموسيقى والفنون التشكيلية. وتدين له الصحافة الثقافية العربية بأعمال جليلة أبرزها إصداره لمجلة «فنون عربية» من لندن.

وهذا الحوار حول تجربته الشعرية هو جزء من حوار طويل معه حول اهتماماته المختلفة: الشعر.. والموسيقى.. والفن التشكيلي.. وقد أردت أن نبدأ الحوار بالدخول إلى عالمه الشعري متميز الملامح والألوان.. فكان رده الفوري: إذن، لتكن القصيدة التي تمثلني الآن.. وهي «شيخوخة» وراح يقرأ:

«شتوية أخرى.. وهذا أنا.. وحدي..
لا حب..
لا أحلام..
لا امرأة،
عندي..
وفي غد أموت من بردي هنا..
بجنب المدفأة..».

* دعني آخذك بعيداً عن الشيخوخة إلى زمن الشباب والبدايات الشعرية مع أبناء جيلك: السياب والبياتي ونازك.

ـ لكي نضع التجربة الشعرية في إطارها آنذاك، علينا أن نعطي صورة متكاملة عما حدث آنذاك.. فثمة معطيات كثيرة تغيرت بعد الحرب العالمية الثانية، وكان أن أثرت ليس في مجال الشعر فحسب، وإنما في مجال الفن التشكيلي أيضاً.. فبرز لنا جواد سليم وفائق حسن، وهما من كبار رواد الحركة التشكيلية في الوطن العربي.. كما برز في القصة عبد الملك نوري وفؤاد التكرلي اللذان خرجا من إطار القصة القديمة ذات الطابع المقالي التي ألفناها عند ذي النون أيوب وآخرين.. كما كان ثمة تحول كبير في الشعر على يدي جيل السياب..

كان كل منا له زمرته الخاصة، ولا نلتقي إلا لماماً.. ولعلنا كنا نخاف أن يسرق أحدنا أفكار الآخر.. وغير مرة قرأت محاولات جديدة على السياب، وكنت أطلب منه أن يوقع على ورقة يتعهد فيها بألا يكرر محاولتي..

* نعلم أن ذكرياتك مع السياب غنية، فهل تعطينا شيئاً منها؟

ـ أذكر أنني قرأت ذات يوم حديثاً للفنان الإنجليزي هنري مور، عن محاولته استخدام الفراغ في النحت وإعطائه قيمة تشكيلية.. فقررت أن أحاول المحاولة ذاتها في الشعر، فكان أن كتبت قصيدة استخدمت فيها الفراغ.. فأقول: «تك..» وأسكت لفترة من الزمن أتم فيها التفعيلة ثم «تك.. غناء رتيب.. تنفس في الأرض منذ القدم..» أي أنني استخدمت الفراغ كما استخدم في الموسيقى، وكما استخدمه هنري مور في مجال النحت..

وعندما قرأت المحاولة لبدر أعجب بها.. فطلبت منه أن يوقع لي على تعهد بأنه لن يسرق مني هذه المحاولة..

* كيف كانت ملامح البدايات عندك وعند بدر شاكر السياب في تلك الفترة؟

ـ بدر كان سريع الانفعال، يملك ذاكرة عينية غنية ومشحونة بالصور.. وكان يتميز علينا جميعاً آنذاك بهذه القابلية لالتقاط الصور، إلى جانب اعتماده على اللغة التراثية واستخدامها بشكلها الموروث وبطبيعتها الصلبة القوية.. بينما كنا نميل أكثر ـ وبخاصة أنا ـ إلى التجربة الشعرية المختصرة، والتي سميتها آنذاك بالشعر البرقي، أي إيصال أكبر قدر من المعاني بأقل عدد من الكلمات..

* جيلكم أحدث ثورة تجديدية في الشعر العربي الحديث.. فكيف كانت صلتكم بالتراث الشعري العربي؟

ـ أعتقد أن التجربة التي خاضها جيل الرواد كانت تجربة صحيحة، بسبب أنها انطلقت من التراث، أي خرجت منه، ولم تخرج عليه. وموقفي من التراث موقف الابن المتطور من أبيه.. فأنا أريد لابني أن يكون أحسن مني وأن يتجاوزني ما دامت هناك إمكانات في العصر تعطي له حق هذا التجاوز.. لكنني لا أريد لابني أن ينكر أبوتي..

هذه العلاقة بين التراث والمعاصرة شكلت العمود الفقري لتجربة الرواد آنذاك، أي أننا خرجنا بالفعل من القصيدة القديمة التي كنا نكتبها ونتبجح بإجادتنا لكتابتها..

* هل تذكر كيف كان هذا الخروج؟

ـ أذكر أنني درست على يد الرصافي لفترة من الزمن، وأخذت عنه العروض، وحفظني من الشعر ما لا يحفظ، وقد ربطني ذلك بالتراث.. ولكننا ـ كما قلت ـ أحسسنا آنذاك أن تجربة معاصرة تشدنا إلى إشكالات حديثة.. فقد كان ثمة محتوى في الواقع الاجتماعي مختلف عما كان يعيش عليه الزهاوي والرصافي والجواهري.. فرأينا مثلاً أخواتنا في الجامعات.. ولم يعد الحب يحدث من خلال ستائر أو نوافذ.. ولم تعد أمي تخطب لي ابنة الجيران لأتزوجها.. كل هذه العلاقات شدتنا إلى محتوى اجتماعي جديد، كان لا بد من أن يجد اللباس الجديد وهذا ما حدث بالفعل.

* ما الجديد الذي جئتم به؟

ـ كان هناك مداخل ثلاثة لتجربتنا الشعرية اجتمعنا عليها من دون اتفاق مسبق، ووجدت في شعرنا أنا وبدر ونازك ومن ثم عبد الوهاب البياتي..

المدخل الأول: هو أننا وجدنا أن القصيدة القديمة بشكلها القائم على الصدر والعجز كانت تخلق موسيقى للبحر وليس للقصيدة.. فأردنا أن نعطي القصيدة نفسها موسيقى خاصة.. مثلاً، لو أنك قرأت قصيدة «يا ليل الصب» بكل معارضاتها، وجمعت كل هذه المعارضات وشددتها واحدة بالأخرى، لوجدت أن الموسيقى ظلت كما هي، ووزن البحر كما هو، مهما اختلفت محتويات هذه القصائد..

إذن نحن أردنا أن نخرج إلى القصيدة التي تعتمد موسيقاها الخاصة.. فقلت ـ وهذه من قصائدي القديمة ـ :

«نفس الطريق..
نفس البيوت يشدها جهد عميق..
نفس السكوت..
كنا نقول:
غداً يموت وتستفيق،
من كل دار،
أصوات أطفال صغار،
يتدحرجون مع النهار على الطريق..»

ففي هذه القصيدة تجد أن الإيقاع خرج من بحر الكامل أي «متفاعلن متفاعلن متفاعلن»، ولكن التفعيلة صارت هي الأساس وليس توزيع التفاعيل وعددهن..

وإلى جانب ذلك الإيقاع الخاص للقصيدة، اعتمدت القوافي المتداخلة، وليس القافية الرئيسية.. أي أن القافية الرئيسية ظلت تشد إلى البحر وإلى الوزن مع تغيرات إيقاعية أخرى..

* والمدخل الثاني الجديد؟

ـ هو وحدة القصيدة.. وأنا سميتها الوحدة العضوية، وليست الوحدة الموضوعية، فالوحدة الموضوعية كانت موجودة في شعر أبي نواس، وبشار، وامرئ القيس.. ولكن القصيدة العربية كانت شبيهة بالعمارة الحديثة: طابق فوق طابق، ولا علاقة بينهما من حيث المعنى.. أي أن البيت الشعري كان ينتهي بالقافية وكأنها نقطة تفيد تمام المعنى، بحيث يمكن أن تقدم بيتاً أو تؤخر بيتاً أو تحذف بيتاً، من دون أن يؤثر ذلك في العمل..

أما في قصيدتنا فتجد نمو الوحدة العضوية.. أي أن القصيدة تنمو ككل شيء حي.. كالزهرة وكالأصبع.. تنمو من كل جوانبها: الصوت.. الحدث.. الشكل.. الصور.. ولذلك يصعب أن تزحزح بيتاً أو تحذف كلمة.. وأذكر أنني حين كنت أحاجج شاعراً من الشعراء مثبتاً رداءة قصيدته، فإنني كنت أقول: إنني أستطيع أن أحذف هذا البيت ولا يحدث تخلخل، وذلك معناه أن القصيدة تفتقد الوحدة العضوية الضرورية..

* يبقى الجانب الثالث من الجديد الذي جئتم به كرواد..

ـ الجانب الثالث: هو اعتماد اللغة المألوفة، والكلمة المفردة المأنوسة التي يستخدمها الناس في حياتهم..

* لماذا؟

ـ لأن الكلمة من خلال استعمالها اليومي تحمل شحنة إيجابية، وتتجاوز بذلك معناها القاموسي إلى المعنى الإيحائي.. فلو خيرنا مثلاً بين أن نستعمل كلمة «سكين» أو أن نستعمل كلمة «مدية»، لوجدنا أن «مدية» تعطينا معنى قاموسياً، أما كلمة «سكين» باستخدامها اليومي فتحمل شحنة من الصور إلى العين، وتغني التجربة..

* ألم يكن لذلك مخاطر؟

ـ حدث بالفعل أن قاموسنا اللغوي آنذلك ضاق كثيراً بكلمات محدودة.. لأن الكلمات المألوفة التي نستخدمها هي كلمات قليلة.. فنجد مثلاً كلمة «الدرب» و«السكين» موجودة في شعر نازك وبدر وبلند.. لأننا اتجهنا إلى القاموس المألوف في حياتنا اليومية، وذلك تركيزاً وتكثيفاً للطابع الذي تحمله الكلمة في القصيدة..

* بعد هذه الريادة ـ ثم التجربة الطويلة في حركة التجديد في الشعر العربي الحديث، ما تفسير موقفك المتحفظ من تجارب التجديد المعاصرة؟

ـ الحقيقة أنني قلت منذ البدء: إن التجربة ينبغي أن يوجد فيها ثلاثة عناصر متداخلة.. العنصر الأول: هو ما يشد هذه التجربة إلى التراث. والثاني: هو ما يشدها إلى الواقع. والثالث: هو ما يشدها إلى العصر..

هذا التداخل الثلاثي هو الذي يعطي القيمة الإبداعية لأي عمل فني، فإن سقط جانب منه سقطت القصيدة، فأصبحت إما تراثية متأخرة عن زمانها، أو أصبحت لاجئة إلى تجربة أوروبية، ومنقطعة عن تراثها بالاغتراب المكاني الذي هو مثيل للاغتراب الزماني. فالذي يتأثر بـ ت. س. إليوت، ويتكلم مثله، مغترب عن مكانه وموطنه وتراثه. وكذلك الذي يشد نفسه إلى تجربة تراثية، ولا يتفاعل مع عصره، هو أيضاً متخلف عن العصر بهذا المعنى..

لذلك، فإنني في الحقيقة وقفت موقفاً شديداً من تجارب شعرائنا المحدثين، لأنني وجدت أنهم يضيعون في متاهات من التجربة الأوربية، ويسقطون على ظاهرها، فأصبحت قصيدتهم شبيهة بالأفلام الكرتونية.. صور غريبة.. وكل صورة تطرد الصورة التي تليها.. ثم تنتهي من القصيدة من دون أن تفهم أي شيء.. ولا ماذا يريد أن يقول الشاعر.. بل لك أن تقرأ القصيدة من أسفلها إلى أعلاها، ومن أعلاها إلى أسفلها.. من دون أن تفهمها.. ومن الطريف أنني كتبت مرة قصيدة أهديتها لصديقي أدونيس أقول فيها:

«لو قلنا ما لم نفهم،
لفهمنا ممن لم يفهم،
ما قلنا..».

هذه التجربة في الحقيقة تجربة مبشرة، والخير كل الخير أن الكثيرين من شعرائنا الشبان

أخذوا يعودون إلى أنفسهم، ويحاولون أن يقوموا جدتهم بما يستقيم لها من أمر صحيح..

* إذن أنت مع الجديد ولكن بشروط.. فما هي؟

ـ أنا مع الجديد المتطور.. الجديد الغني.. ولكن أريد أن أجد الشاعر بعواطفه وآلامه وأحلامه ورؤاه الكثيرة في قصيدته.. وعندما لا تعطيني القصيدة أي شيء من ذلك فإني أتساءل: لماذا كتبت؟

* لكن ألست معي في أن الشعراء الأوربيين مثلاً وقعوا في التجربة نفسها؟

ـ هذا صحيح.. ولكن أية تجربة؟ إن الشعراء الأوروبيين عندما وقعوا في هذه المتاهة، كانوا يقصدون فيها الاحتجاج على العصر.. وعلى العالم الأوروبي الذي أفقدته الروح المادية كل العمق الروحي.. فالحرب العالمية الثانية شتتت القيم، فأصبح الفنان في الصورة أو في القصيدة يحاول أن يثور على كل ما هو مألوف.. وأراد فاليري أن يحطم اللغة، لأنه يريد أن يحطم المنطق.. !

أما نحن هنا في هذا الوطن العربي فنقوم على تجربة جديدة، وتفتح إلى الحياة جديد.. والتجربة الأوروبية ليس لنا أن نأخذها في مرحلة انحطاطها.. وإنما علينا أن نأخذها في مرحلة نضوجها. لا بأس في أن نستفيد من أية تجربة حضارية عندما تكون في أوج نهضتها وإشراقها.. لا أن نأخذها وهي تعترف بأنها في زمن احتضار، كما يقول كولن ولسون، أو كما قال شبنجلر: «موت الحضارة الأوروبية».

أريد أن أقول: إنه يجب علينا أن نعي أنفسنا، وتراثنا، ونفهم ماذا نريد أن نفعل..

* أنت مع الجديد.. فماذا عن التراث؟

ـ أنا أعتقد أن الفن له زمنه الخاص.. وكل عمل فني لا يستطيع أن يعيش حياة مستمرة هو الفن التراثي الذي يموت مع زمنه. فالمتنبي مثلاً حي، ومن أبناء هذا القرن، وأنا أتحسسه بعمق، ما دمت أردد شعره.. وكذلك شكسبير ودافنشي. كل هؤلاء الناس أحياء، لأن الفن أمره ليس كأمر العلم. العالم يبدأ من حيث انتهى عالم آخر.. أما الفن فله دائرته الزمنية الخاصة..

هذه رؤيتي دائماً.. ولذلك فإني أعود من آن لآخر ـ وحسب الظروف ـ إلى كتابة قصيدة عمودية.

* نذكر أن نازك الملائكة فعلت الشيء نفسه، وقيل عن ذلك: إن رواد الشعر الحديث وصلوا إلى نهاية الطريق، فعادوا إلى قصيدة البيت..

ـ هذا غير صحيح. والصحيح أن هناك شعراً. فعندما أريد أن أكتب قصيدة عن «قرص النوم» الذي شاع في حياتنا المعاصرة المرهقة، فإنني أجد التجربة أقرب إلى شكلية شعرية خاصة فأقول:

«قف.. واقرأ..
لا تعبر..
قف.. احذر..

****

ماذا في صحف اليوم؟
إعلان باللون الأحمر:
خذ قرصاً للنوم..
خذ قرصاً..
قرصاً للنوم..».

هذه القصيدة بإشكالاتها ومحتوياتها وتعب الإنسان المعاصر، احتاجت إلى هذا الشكل من الإيقاع ومن التجديد.. ولكن عندما أكلم المتنبي في قصيدة أخرى.. فإن المتنبي يخلق عندي اللغة المرادفة للغته، التي أستطيع أن أدخل عليه بها وأجالسه بها.. فأقول:

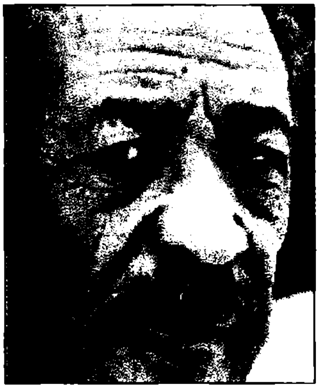
بك لا بغيرك يكبر الإنسان ... وعلى يديك لكَم تطاول شان
وبمثل ما وهَبت يداك وأكرمت ... شيدت دُنى وتفتحت أكوان
الفجر بعض مسار خطوك في الحياة ... فحيثما حل استفاق زمان
يا زيت قنديل وشمعة مدلج ... في غيهب ليست له شطآن

فأنا اعتقد أن القصيدة لا تموت.. والفن لا يموت.. وإنما لكل عصر ما يضيفه.. ولكل موضوع الشكل الذي يقتضيه..

* في ختام حوارنا مع تجربتك الشعرية، حدثنا عن حصاد التجربة من أعمال حتى الآن..

ـ صدر لي في عام 1946 ديوان «خفقة الطين»، وفي عام 1951 «أغاني المدينة الميتة»، وفي سنة 1957 «أغاني المدينة وقصائد أخرى»، وفي 1965 صدر لي ديوان «خطوات في الغربة»، وبعده «رحلة القصائد الصفر» سنة 1967، وفي 1969 «رحلة الحروف الصفر»، وبعده صدر «أغاني الحارس المتعب»، وقد ترجم إلى الإنجليزية، ثم صدر لي عن وزارة الإعلام العراقية «حوار عبر الأبعاد الثلاثة»، وأعيد طبعه في بيروت، ونلت عليه جائزة أحسن كتاب صدر خلال عامين، من أصدقاء الكتاب، وترجم إلى الإنجليزية أيضاً، ثم صدرت المجموعة الكاملة في بيروت، وأخيراً صدرت لي في القاهرة عام 1985 مجموعة «إلى بيروت مع تحياتي»..

* * *



4

الشاعر العربي السوداني
الدكتور تاج السر الحسن(1)

شاعر آسيا وإفريقيا

تاج السر الحسن.. صوت من طليعة الأصوات العفوية التي انبثقت من أرض السودان الغنية، ثم انطلقت من القاهرة.. نغماً جديداً في نشيد الشعر العربي، معبراً عن واقع الحياة في وطنه ومبشراً بحياة جديدة لشعبه وأمته، مغدقاً ذلك المزج الرائع من أصالة العروبة، ونبض إفريقيا: صورها وألوانها وحيويتها الدافقة. وقد اشتهر في السودان بصفة «شاعر آسيا وإفريقيا» لمواكبة شعره للنضال التحرري في القارتين، وحرارة تعبير فنه عن التعاون والتضامن بين أدبائهما.

على محبة وشوق ـ في العاصمة المثلثة ـ كان اللقاء.. ودار الحوار..

* فلنبدأ من البداية الطبيعية.. النشأة والتكوين الثقافي الباكر..

هذا يعود بي إلى سنين الطفولة.. حيث ولدت في إحدى قرى الشمال ـ الجزيرة أرتولي ـ عام 1930، في أسرة سودانية تهتم اهتماماً كبيراً بالثقافة العربية الإسلامية.. فكان والدي وجدي من حفظة القرآن الكريم والمهتمين بالحديث والفقه، والحريصين على تعليم أبنائهم اللغة

(1) ولد عام 1935 وتوفي في 14 مايو 2013.
أجريت هذه المقابلة في يونيو 1982 في الخرطوم، وقد أذيعت ضمن برنامج «سوق عكاظ» بتلفزيون أبوظبي، ثم نشر نصها بصفحة «ثقافة وفكر» بجريدة «الاتحاد» بتاريخ 20/ 1/ 1983.

العربية وعلوم الدين.

كانت دراستي الأولى في «الخلوة» أي «الكتاب»، ثم في المعهد العلمي بغرب السودان.. لكن البيت وجو العائلة في الواقع كان مدرستي الأدبية الأولى.. فقد كنا نجد فيه كتب الأدب.. مثل «خزانة الأدب» ومجلة «الرسالة» ومجلة «الفجر» السودانية القديمة.. الأمر الذي أثر في أبناء الأسرة.. فهناك عدد كبير منهم يكتب الشعر، مثل أخي الحسين الحسن، وعوض أحمد السيد.. وآخرين.

* ومرحلة القاهرة..؟

ـ كانت القاهرة حلم كل سوداني يهتم بالتعليم.. وأنت تعرف كم تحدث الشاعر السوداني التيجاني يوسف بشير عن مصر، وحبه لها، وشوقه إلى السفر إليها.. ولكن حلمه لم يتحقق.. وكان من حظي أن سافرت حيث أكملت تعليمي بالجامعة الأزهرية.. والحقيقة أن دراستي في مصر كانت طريقي للتفتح على الثقافة العربية والإنسانية بوجه عام.. فقد اطلعنا على نتاج الكتاب والأدباء المصريين: الحكيم وطه حسين والعقاد وغيرهم، كما اطلعنا على ما ترجموه من آداب عالمية.. كما كانت صلتنا وثيقة بالحركة الفنية كلها من شعر وفنون تشكيلية وموسيقى.. وأثر كل ذلك في تكويننا كشعراء.. وبفضل هذه الفترة تفاعلنا مع حركة الشباب والتيارات الأدبية الجديدة، وكنا جزءاً لا يتجزأ منها.. إن وجودنا في مصر كان كله مدرسة..

* وبعد القاهرة..؟

ـ انتقلت إلى الاتحاد السوفييتي حيث أكملت الدراسة في معهد جوركي للأدب، وأعددت رسالتي للدكتوراه في الأدب عن «الشعر العربي الحديث بين الحربين».. بعدها عملت فترة في عدن.. قبل أن أعود إلى السودان.

* وماذا عن رحلتك الأدبية..؟ كيف كانت إطلالتك الأولى فيها..؟

ـ لذلك ذكرى عزيزة.. كنا نحضر ندوة الشاعر الأستاذ خالد الجرنوسي في القاهرة، وكان فيها كوكبة من الشعراء، منهم عبد الله شمس الدين، وصلاح عبد الصبور، وفوزي العنتيل، رحمهم الله، والشاعر كمال نشأت، أطال الله بقاءه.. وكان مدير الندوة المرحوم زكريا

الحجاوي.. وهو مشهود له بالفضل في الدراسات الفولكلورية والأدبية واكتشاف المواهب.. وله بصماته المحمودة في الصعيد والشرقية في مصر.. وفي تونس.. وفي قطر.. وقد حدث أن زملائي الطلبة السودانيين بعثوا بورقة إليه يقولون فيها إن بينهم شاعراً سودانياً.. وفوجئت به يدعوني لإلقاء قصيدة.. وكانت شبه مؤامرة.. لكنني قمت وقدمت قصيدتي «الكوخ».. التي صورت فيها شيئاً من البيئة السودانية.. ومنها:

«ذلك الكوخ ذكريات تلاشت ... في طوايا طفولتي وصبايا
ذلك الكوخ منزلي وهُنا بالأمس ... كانت معربدات خطايا
كان أنشودة وكنت صداه ... كنت لحناً وكان لي هو نايا
وبقايا خطوي عليه تنادي ... صارخات الى لقاء لقايا
وهنا جدتي تسوق الأساطير.. ... وتروي الخرافة السحرية
وهي تلقي على السرير بقايا ... جسدٍ منهك ونفس هنيّة
وعلى وجهها الصغير خطوط ... رسمتها يد الزمان الغوية
وعصاها العتيقة الملوية، ... وارتجاف الأنامل المحنية».

* كيف كان صدى إطلالتك الأولى بقصيدة «الكوخ»؟

ـ كان المعلق على الندوة يومها أستاذنا الكبير محمد فريد أبو حديد.. وقد فوجئت به يعتذر لشعراء الندوة جميعاً ويقول: اعذروني فأنا سأعلق على قصيدة «الكوخ».. فقط.. لأنني زرت السودان وأجد في القصيدة تصويراً صادقاً له..

والحق أن كلمات الأستاذ محمد فريد أبو حديد كانت دافعاً قوياً وملهماً لي للعمل منذ تلك اللحظة.. وأنا أدين بالفضل ـ أقولها بأمانة وصدق ـ للأخوة في مصر.. فقد احتضنوني وشجعوني.. وأتاحوا لي المشاركة في النشاط الأدبي في «رابطة الأدب الحديث» و«جمعية الشبان المسلمين» و«جمعية الشباب المسيحية»، والصحف والمجلات، مثل: «الجمهورية» و«المساء» و«الشعب» و«روز اليوسف» و«صباح الخير» و«الغد».

* نحن نذكر ـ في تلك الفترة ـ كيف احتفى النقاد بكتاباتك وكتابات زملائك من الشعراء السودانيين: الفيتوري وجيلي عبد الرحمن، ومحيي الدين فارس.. وكيف كنتم تمثلون تياراً ساخناً

من تيارات الأدب الواقعي، المرتبط بحياة الناس وهمومهم.. ما رؤيتك الآن لهذا الاتجاه..؟

ـ الواقع أن اتجاه الشاعر نحو الشعب أصبح مظهراً من مظاهر العصر.. وقد ظهرنا نحن في مرحلة كانت انعطافاً مهماً في تاريخ الشعوب العربية بعامة، والشعبين المصري والسوداني بخاصة.. فقد كانت المعركة محتدمة من أجل التحرير.. وكان على الشاعر أن يتفاعل مع قضية وطنه.. وقد سبقت في الأفق الأدبي أعمال جليلة في هذا المجال مثل «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، والأعمال الفنية العظيمة للفنان الرائد مختار حول نهضة مصر.. كما سبقنا شعراء نادوا بحرية الشعر وضرورة ارتباطه بواقع الحياة وكان لهم فضل الريادة، مثل عبد الرحمن الشرقاوي وكمال عبد الحليم اللذين كتبا أعمالاً جميلة في هذا المجال.

وهكذا اندفعنا نحن في كتابة الشعر ذي الاتجاه الواقعي.. ولم نجد في ذلك تكلفاً أو تصنعاً.. فقد كانت أحاسيسنا حقيقية شعرنا بها وعبرنا عنها.. وكانت الأحداث المتلاحقة، كالعدوان الثلاثي بوتقة صهرتنا.

مع ذلك فإني لا أريد لهذه الدعوة أن تصل إلى درجة السماجة.. بمعنى أن يرتبط الشعر بحياة الشعب وهموم الناس، لكنه في الوقت نفسه لا يتخلى عن قيمه الجمالية الشعرية والفنية.

* نعود إلى عطائك الأدبي.. ماذا قدمت منه حتى الآن؟

ـ بدأت في مصر بعمل شعري مشترك مع الزميل جيلي عبد الرحمن هو ديوان «قصائد من السودان» وصدر في الخمسينيات.. وفي مصر أيضاً صدر ديواني الثاني «القلب الأخضر» عن دار الكاتب العربي.

وفي الاتحاد السوفييتي صدرت لي عن دار التقدم ترجمة عربية لكتاب «قلعة برست»، ويدور حول الحرب العالمية الثانية وقلعة برست التي تقع على الحدود البولندية السوفييتية، حيث دار صراع عنيف ضد الغزو النازي.

عدا ذلك، كتبت عدداً كبيراً من المقالات الأدبية للصحف والمجلات العربية المختلفة، في مصر.. ومجلة «الكلمة» في اليمن الشمالي، و«الحكمة» في اليمن الجنوبي.. كما نشرت في «الخرطوم» و«الثقافة» السودانية والصحف السودانية وبخاصة جريدة «الصحافة» وملحقها الثقافي.

* ورسالة الدكتوراه..؟

ـ أرسلتها إلى بيروت للنشر.. ولكن الأحداث المفزعة عطلت ذلك، لكني نشرت كثيراً من موضوعاتها للقارئ السوداني في الصحف السودانية.

* نعرف أن لك إنتاجاً شعرياً متراكماً ينتظر الصدور في ديوان أو دواوين، والحال كذلك بالنسبة لشعراء السودان الآخرين.. الأمر الذي يشكل هماً ملموساً من هموم الحركة الأدبية، ما رأيك؟ وما الهموم الأخرى..؟

ـ الحركة الأدبية في السودان جزء لا يتجزأ من الحركة الأدبية في الوطن العربي كله.. والهموم كثيرة جداً.. وفيما يتعلق بالنشر فإن لدينا إنتاجاً وافراً في كل إقليم من أقاليم السودان وبخاصة إنتاج الشباب.. ولكن للأسف فإن المجلات الأدبية السودانية لا تصدر بشكل منتظم.. ونحن في أشد الحاجة إلى جهاز مركزي للنشر.. وهو أمر نأمل في تحقيقه مستقبلاً.. كما نأمل أن تتحرر بيروت ويتحرر معها الوطن العربي، لتتحرر حركة النشر..

من همومنا أيضاً، حاجتنا إلى تسجيل وحفظ التراث الشعبي عند القبائل السودانية المتعددة في شمال السودان وجنوبه وشرقه وغربه.. فهو تراث وافر وغني.

وفيما يتعلق بالحركة الأدبية العربية بعامة، هناك هموم التخطيط الثقافي نفسه.

ثم هناك قضية الترجمة.. فالعرب يترجمون هنا وهناك في مصر، وفي بيروت، وفي الكويت، وفي الجزائر.. لكن بلا تكامل ودون تغطية الحاجات الأساسية لحياتنا العربية.. إننا نأمل أن يكون هناك في الوطن العربي مكتب للتنسيق تشرف عليه الجامعة العربية، أو منظمة التربية والثقافة والعلوم، أو وزارات الثقافة العربية، لتأتي الترجمة مسحاً شاملاً مرتبطاً بقضايا حاجاتنا الروحية في مختلفة التخصصات السياسية والاقتصادية والأدبية.

هنا ينبغي أن نذكر بالتقدير والامتنان الدكتور سامي الدروبي.. الرجل الذي قدّم وحده للمكتبة العربية الأعمال الكاملة للأديبين العالميين تولستوي وديستويفسكي في ترجمة رفيعة المستوى.. وأنا أذكر أنه كان يستعين ببعض المستعربين والمستشرقين الروس الذين يعرفون العربية معرفة جيدة، لأنه كان يترجم عن الفرنسية، وكان حريصاً على المقارنة بالأصل الروسي.. طبعاً نحن نحتاج إلى مئات من أمثال سامي الدروبي.

* وهم التواصل الثقافي بين الأقطار العربية؟

ـ هذه قضية مهمة ومطروحة بإلحاح.. وفي الفترة الأخيرة لاحظنا اتجاهات لتبادل الوفود الثقافية.. كأن يأتي وفد من الإمارات إلى السودان، ويذهب وفد من السودان إلى الإمارات.. وأعتقد أن هذا يمثل نواة جيدة لعلاج هذا الهم.

على العموم.. فإن الحركة الأدبية في السودان ستتطور بقدر ما تتمكن من الأخذ والعطاء والتفاعل مع الحركة الأدبية لدى الأشقاء العرب.. وأيضاً بقدر ما تستطيع أن تستوعبه من التطورات الهائلة التي حدثت في القارة الإفريقية في مجال الفنون والآداب.

قصيدتان من الدكتور تاج السر الحسن:

(أ) قريتي

إلى الشمال
إلى قريتنا التي تحضنها الرمال
أكتب يا أحبتي قصائدي الطوال
أكتب عن بلادي
عن ملاعب الأطفال
عن النخيل في أحضان بيتنا الصغير
عن ضفة الغدير
قصائدي ما مات في حروفها العبير
النهر في قوافيها يصارع الحروف
تياره العنيف، لا تحجزه السجوف
وأنة السواقي عاد وقعها الرهيف
عاد الحفيف..
قريتنا جزيرة تسبح في المياه
سفينة صغيرة مخضرة الزروع
ضفائر الحنطة في أكتافها تضوع
أبناء عمتي وخالتي، السلام

ما الذي أملك غير كلمة السلام
غير حنين في الضلوع
لا يحده الكلام
صنارتي ألقيتها في عتمة المساء
طعمتها بالسمك الصغير والديدان
أخفيتها
فلا ترى مكانها عينان
وفي الصباح،
أيقظني حفيف نخلتي
قد نضجت وثديها
قد ودعته تمرتان
يا شاطئ النيل الغني بالشتول
صنارتي يهتز في يدي حبلها المفتول
يقصر مرة، ومرة يطول
لقد كسبت جولتي من أول الصباح
رذاذ ماء النيل
كم يفيض بالأفراح
أعيش في الفرحة كالزهور والأقاح
ما أجمل الصباح..

(2) أبي

كطيور حلقتْ في عاصف ... وتلاشتْ في الجهات الأربعه
غرباء نحن عن أوطاننا ... آه لو كنا مدى الدهر معه
غير أنّا والليالي حولنا ... عابرات كخيول مسرعه
والمحيطات جدار ميت ... مثل كأس بهموم مترعه
هزنا الشوق إلى سدته ... فحملنا الذكريات الممتعه

وعبرنا ألف بحر ألف دار نحو تلك القمم المرتفعه
يا شراعاً أبيضاً في نيلنا يتحدى في الرياح الزوبعه
وخريفاً كردفاني الرؤى يملأ الأرض طيوفاً ممتعه
يا أبي جئناك طيفاً حلما لا جوازاً معنا.. لا أمتعه
لا هدايا في يدينا، فقراء كل ما نملك روح مولعه

***



5

الشاعر العربي السوري

سليمان العيسى (1)

صوت العروبة وشاعر الطفولة

كان من حظي أن أجري مع الشاعر الكبير أكثر من حوار، مرة في دمشق، وثانية في مؤتمر الأدباء ومهرجان الشعر في الجزائر، وثالثة في مهرجان القاهرة للإبداع الشعري بالقاهرة سنة 1996 الذي اخترته لكتابنا لأن فيه صورة معبرة عن الشاعر: حياته وفنه واهتماماته.

في بدء الحوار سألته أن يستهل بمقطوعة من شعره، يراها تعبيراً مكثفاً عن حياته أو فكره، أي بطاقة هوية له، فلم يفكر طويلاً وقال:

ـ كل ما كتبته في حياتي لم يكن إلا بطاقة هوية لي حصرت بها نفسي، وحاولت تسجيل أحلامي، وتحضرني الآن أبيات من قصيدة غير بعيدة أتحدث فيها عن نفسي وعن الشعراء الذين حملوا مثل همي. أقول:

هل كان حلم العاشقين ضلالة ... أم أننا خبط النهار الرائد؟
نحن الذين تلقفتهم نبرة ... من ناي راعية وبيت شارد
نخضر في صدر القوافي مثلما ... تخضر في صدر الربيع نواهد

---

(1) ولد عام 1921 وتوفي في 6 أغسطس 2013.
أجريت هذة المقابلة أثناء مشاركة الشاعر في مهرجان القاهرة للإبداع الشعري بمصر سنة 1996، وأذيعت في «صوت العرب». وقد كان الشاعر يعمل آنذاك في صنعاء باليمن، حتى دهمته أمراض الشيخوخة، فعاد إلى دمشق حيث توفي عن اثنين وتسعين عاماً.

الشاربون سلافة ما ذاقها ... إلا فم بكروم عبقر زاهد
نظما لتنبجس الصخور جداولاً ... ونجوع كي يثري البيادر حاصد

* شاعرنا الكبير.. كما تفضلت وأشرت، أنت شاعر قضايا، وشعرك كله يمكن أن ندرجه تحت عنوان القضايا العامة الكبرى في حياة الإنسان العربي المعاصر، وهذا يحدونا إلى أن نسأل أولاً عن مناهل الإبداع التي حركت شاعريتك في البداية..

ـ مناهل الإبداع حاولت أيضاً تسجيلها في سيرة ذاتية، أو ما يسمى بالسيرة الذاتية، وكتبت عن تجربتي الشعرية في أكثر من موضع في هذه السيرة، وصدرت في كتاب يتجاوز الخمس مئة صفحة عن المؤسسة العربية للدراسات في بيروت، بعنوان «على طريق العمر»، وقد حاولت أن أقدم نفسي فيه، ولا أدري كيف أوجز هذه المسيرة الطويلة، هذا المشوار الطويل الذي تجاوز سبعة عقود من الزمن حتى الآن.

* عمر مديد إن شاء الله..

ـ أنا بدأت الكتابة في عمر التاسعة أو العاشرة، وما أزال أكتب وقد تجاوزت الخامسة والسبعين.. نلاحظ أن المشوار كان طويلاً ومرهقاً ومتعباً...

المنابع الأولى أعتقد أنها كانت التراث، فأنا منذ طفولتي حفظت القرآن الكريم وأنا في السادسة أو السابعة، وبدأت أحفظ المعلقات وآلاف الأبيات من الشعر العربي: من أبي تمام إلى البحتري إلى المتنبي إلى أبي فراس إلى المعري.. حتى العصر الحديث إلى شوقي وحافظ وغيرهما.

هذا التراث القديم الذي امتد حتى عصر النهضة كان زادي الأول. ثم بدأت أطلع في وقت مبكر على الآداب الأجنبية، فقد كنت أعرف اللغة الفرنسية منذ الطفولة، فقد كانت تدرس في سوريا كما تعلمون أيام الانتداب الفرنسي، فبدأنا نطلع على الأدب الفرنسي وغيره من الآداب الغربية.

فإذن، المنابع الأولى هي الثقافة العربية والتراث العربي، ثم بدأت أرفدها بكل ما أستطيع من ثقافة أجنبية غربية بحكم أنني أعرف اللغة الفرنسية منذ صغري. وقد تعلمت الإنجليزية أيضاً فيما بعد، فصرت عن طريق هاتين اللغتين أستطيع أن أطلع على الآداب العالمية ما أمكن طبعاً.

* لا شك في أن الأحداث العربية المتوالية خلال هذه العقود كانت من أبرز وأهم المحركات والحوافز لشاعرتيك؟

ـ تظلمني إذا قلت: إن الأحداث هي التي حركتني. أنا ربيت بالأحداث.. فتحت عيني على النكبات والمآسي.. أنا طفل مشرد من لواء الإسكندرون.. رأس سوريا الأخضر الذي اقتطع منذ أواخر الثلاثينيات كما تعلمون، فكنت قافلة التشرد الأولى أنا وعدد كبير من رفاقي. خرجنا من هذه البقعة الخضراء ونحن صغار بعد أن حرمنا هويتنا العربية. فلا تقل إن الأحداث هي التي حركت.. أنا الذي كنت أحمل الأحداث في نفسي، وأعيشها يوماً فيوماً.. فكيف لا أتأثر بها؟ وكيف لا توحي إليّ؟ أنا الذي تشردت وأنا طفل صغير.. فكيف يمكن ألا تترك هذه التجربة أثراً في نفسي؟ وأحاول أن أدافع بالكلمة عن نفسي؟ أنا لم يكن الشعر في يوم من الأيام هدفي الأول، ولم أحلم أن أكون شاعراً، ولا خطر لي أن أكون شاعراً.. أنا كنت حالماً عربياً.. كنت أحلم بأمة عربية تعود إلى مسرح الحياة والتاريخ، وكنت أرى أن هذا الوطن العربي الممزق المشتت الضائع، لا بد أن يعود إلى مسرح الحياة.. لا بد أن تعود هذه الأمة إلى مسرح التاريخ من جديد..

هذه الفكرة وهذا الحلم هو الذي كان محركي الأول منذ الطفولة، وقد انغمست في الأحداث وعشتها لحظة لحظة ـ كما تعلمون ـ منذ الثلاثينيات إلى الآن. فأنا لم تأت الأحداث لتعلمني، وإنما غرقت فيها وعشت فيها وربيت فيها، فكان من الطبيعي جداً أن تكون الكلمة الشعرية بالنسبة لي سلاحاً أدافع به عن وجودي المهدد الغريق الممزق المنكوب، فحاولت أن تكون هذه الكلمة الشعرية سلاحي الأول، وكنت وما زلت قانعاً بأن الكلمة الشعرية لها دورها ـ كان وما يزال لها دورها ـ في النفس العربية في الوطن العربي.

* هل تعطينا مقطوعة من هذا العطاء الشعري الذي يعبر ـ كما تفضلت ـ عن حملك للأحداث في قلبك..؟

ـ يمكن أن أقدم أبياتاً أذكرها ـ لأني لا أحفظ شعري مع الأسف ـ وهي أبيات أرثي بها صديقاً من رفاق التشرد، كان رساماً مبدعاً مات في قبو كان يعيش فيه في دمشق، بعد أن تشردنا وعشنا في الغربة ـ صحيح طبعاً كنا في وطننا ـ لكن لم نكن في ذلك الوقت نملك من أسباب الحياة سوى النزر اليسير.

هذا الرسام المبدع كان يعمل في قبو، ومات من البرد في ذلك القبو، ورثيته بقصيدة قبل فترة طويلة أذكر منها بعض الأبيات.. وربما كانت هذه الأبيات تجسد حياتي وحياته، وتلخص حياتنا، فأنا عشت في قبو، وهو عاش في قبو، فأقول له في آخر القصيدة:

أرفيق أحلامي ونحن طفولة ... في الدرب من حسك المرارة ترضع
تتجهم الدنيا وتيبس حولنا ... وندق صخر الكبرياء فينبع
ما ضرنا نبو سلخنا عمرنا ... فيه وقبو في دجاه مودع
أيماننا تهب الكنوز وبيتنا ... هذا الوجود لنحن منه أوسع
سلها عروس الزائلين ألم تزل ... خلف السراب ببابنا تتسكع
بقصيدة سكرى بضربة ريشة ... تتنفس الأرض اليباب وتسمع

* في مرحلة من الحياة الخصبة للشاعر الكبير سليمان العيسى حدثت انعطافة مهمة في كتابته وإبداعه، وهي الاتجاه إلى أدب الأطفال. حدثنا عن رؤيتك لهذه الانعطافة.

ـ تجربتي في أدب الأطفال أو شعر الأطفال بالذات هي التي أعدها تجربتي الأولى والأهم والأخصب والأجمل في حياتي. في مرحلة من المراحل وجدت المرحلة تحترق.. مرحلة عربية في أواخر الستينيات تعرفها، إنها عام النكسة كما سميناه. في هذه المرحلة بالذات أحسست أن كل ما ورائي وأمامي قد احترق، وبدأت أبحث عن نوافذ جديدة أطل منها على المستقبل، فوجدتها في عيون الأطفال.

أنا لست ممن ييئسون.. لست ممن يلقون السلاح بسهولة. في تلك المرحلة التي احترقت بدأت أتجه إلى الأطفال وجعلتهم همي الأول، ومنذ ذلك العام تجربتي مع الأطفال تمتد حتى الآن ثلاثين سنة تقريباً أكتب لهم يومياً، وكما أقول لهم:

«أغني لهم ولهم أكتب..
لذا قلمي مورق..
لذا دفتري معشبُ..».

مئات الأناشيد، وعشرات المسرحيات الشعرية، وعشرات القصص الشعرية.. هناك أكثر من خمسة آلاف صفحة حتى الآن كتبتها أو عرَّبتها للأطفال. كنت أكتب وأعرّب.. أحاول أن أنقل إلى أطفالنا أجمل ماكتب لهم في العالم من قصة ومن شعر ومن مسرحيات، تساعدني في ذلك

زوجتي الدكتورة ملكة أبيض. فهم الأطفال وتجربتي مع الأطفال هي همي الأول منذ ثلاثين عاماً إلى الآن، وما أزال أتابع هذه التجربة.

* ونحن في الواقع نقرأ ونتابع كيف رأت بعض هذه الكتابات النور على المسارح في بعض البلاد العربية..

ـ أنا يسعدني أن أسمع هذا النبأ، لأن ما كتبته لم يكن إلا الخطوة الأولى في رأيي.. كل كلمة أكتبها للأطفال.. وكل نشيد وكل مسرحية شعرية، أريد لها أن تلحن وتمثل وتخرج ويغنيها الأطفال، وهذا يحتاج إلى عمل مؤسسات.. أنا لا أستطيع أن أقوم به وحدي كما تعرفون.. فأنا أكتب وأقدم نتاجي، لكن على المؤسسات وعلى المسارح وعلى وسائل الإعلام ـ التلفزيون والإذاعة ـ أن تنفذ ما أعطيه أنا من نتاج. أنا حتى الآن لم أجد إلا القليل القليل من هذا النتاج قد نفذ. هناك عشرات المسرحيات الشعرية والأوبريتات الصغيرة أريد أن يسمعها الأطفال ويغنوها ويجدوها ملحنة ومخرجة في التلفاز وفي الإذاعة، فهذه الخطوات لم تتم حتى الآن مع الأسف. لكن أنا مقتنع أنها لا بد سيأتي يوم تنفذ فيه، فهو عمل قومي تربوي متكامل.. لا أريد للكتابة أن تبقى كتابة فقط، وإنما أريد لهذه الكلمة أن تصل الأطفال بأي وسيلة كانت.

* ليتنا ـ ونحن نقترب من ختام هذا اللقاء الطيب ـ نسمع زهرة من زهرات سليمان العيسى للأطفال..

ـ للأطفال أحفظ بعض الأناشيد التي كنت وما زلت أغنيها مع الأطفال.. إن شئت، مثلاً هذا النشيد الذي يحفظه كل أطفال سوريا، لأنه موجود في كتبهم ـ كل أطفال سوريا يحفظون عدداً كبيراً من هذه الأناشيد ويغنونها ـ وهو نشيد «الرسام الصغير» الذي يقول:

أرسم ماما، أرسم بابا.. بالألوان

أرسم علمي، فوق القمم.. أنا فنان

(لاحظ الإيقاع الموسيقي قبل كل شيء، فأنا أحرص على الموسيقى بالنسبة للطفل).

أنا صياد اللون الساحر

أرض بلادي كنز مناظر

(هنا أعطيه فكرة الارتباط بالوطن).

دعني أرسم ضوء النجم
دعني أرسم لون الكرم
أكتب شعراً.. بالألوان
أحيا حراً.. أنا فنان

* جميل.. وواضح أن الشاعر الكبير سليمان العيسى حين يكتب للأطفال، فإنه يقدم المعادلة الصعبة: الموسيقى السهلة، والمعنى البناء..

ـ نعم.. نعطي للطفل أو نحاول أن نعطي الطفل شعراً حقيقياً.. أنا لا أستطيع أن أتسلى مع الأطفال إطلاقاً.. أنا أعطيهم أفضل وأنضج ما عندي.. وتجربة الكتابة للأطفال يجب أن تبدأ متأخرة.. تبدأ بعد النضج أو في سن النضج ولا تبدأ في مطلع العمر.. لا.. وإنما تبدأ بعد أن يكون الإنسان قد مارس تجربة الكتابة فترة طويلة من الزمن، وهذا ما فعله كبار الكتّاب للأطفال مثل تولستوي وهيجو، وغيرهما.. هم كتبوا للأطفال بعد سن النضج، فهي عملية مسؤولية كبيرة في الواقع، وأنا أتهيب كتابة نشيد من ثلاثين أو أربعين كلمة لطفل، أتهيب وأخاف أكثر بكثير من كتابة قصيدة للكبار في مئة بيت مثلاً. عملية صعبة.. لكن جميلة.

***



6

الشاعر العربي اللبناني
شوقي بزيع[1]

صوت التجديد والمقاومة في الجنوب

صص«هيئوا لي ثلوجاً على قمم الأربعين،
وشوكاً لكي ينحني جسدي فوق صبارة المر،
واستمعوا للخريف الذي تتعاظم صفرته،
في أقاصي ذبولي..
ولا تعدوني بشيء سوى ما تزين لي وحشتي من كوابيسها..
وارفعوني قليلاً لأشهد تصدير روحي
الذي يلمع الآن فوق سطوح المدن..
وارفعوني قليلاً،
لأسند خابية العمر فوق الحصاة الأخيرة..
فمن ألف عام أسير،
ولا أجد امرأة تشتري كبريائي الممرغ بالشوق،
أو تتبنى سقوطي على ركبتيها،

(1) ولد عام 1950.
أجريت هذه المقابلة في القاهرة أثناء مهرجان القاهرة للإبداع الشعري سنة 1996، وأذيعت من «صوت العرب» في برنامج «مهرجان الشعراء».

كسرب من الأودية..
كيف لي أن أرمم فخار صدري؟
وأكسو دمي بالهشيم
الذي لم يوحد مراياي في جنة ماضية؟
كيف لي أن أقود مظاهرة من خطاي القديمة،
نحو الصبي الذي شاخ في داخلي؟
أن أناديه من عتمة الأقبية:
هل أنا أنت؟
أم نحن وجهان لا يجريان إلى غاية أو هدف؟
ومن نحن؟
من يصرخ الآن فينا: الظلال أم الأصل؟
أم أننا نقطة المنتصف،
بين ما لا يجيء.. وما لا يعود؟».

* هذه الإطلالة الأولى على لؤلؤتنا الأدبية من نبع لبنان السخي، وعلى ملامح كلمته المتميزة في الشعر العربي في لبنان والوطن العربي، تفتتح بيننا الحوار..

شوقي بزيع شاعر نشأ في جنوب لبنان، ومنذ الصبا كان همه الوطن وعنائه في السبعينيات والثمانينيات وحتى الآن.. وهذا يحدونا إلى أن نسأله: إلى أي مدى ـ في رأيك ـ أثرت أحداث لبنان في حركة الشعر العربي فيه؟

ـ أعتقد أن الشاعر لا ينمو شعره في الفراغ، وإنما ينمو في تربة هي تربته المحلية التي يتغذى منها، كما تتغذى الشجرة، ويهضم هذه العناصر المكونة لتجربته لكي ينتج منها كائناً حياً مستقلاً ومتميزاً عن العناصر التي تغذى منها. فبطبيعة الحال شعري ـ مثل شعر العديد من اللبنانيين ـ غرف من تلك القضية التي واكبها وواكبته، وتمثلها وأنتج قصائد ودواوين اصطبغت بتلك الصبغة الدرامية المؤثرة المتفاعلة مع القضية الوطنية والقومية منذ السبعينيات كما ذكرت. فتجربتي تتغذى من ذلك المعين الذي هو الجنوب اللبناني على وجه الخصوص.. من مسقط الرأس.. من تلك الكائنات الأولى التي علمتني التحديق، وعلمتني الطيران الأول، وعلمتني

الركض في البراري، وعلمتني تحسس الألم والأمل، الشوك والندى، أعطتني شكل استجابتي للعالم والأشياء، وكذلك أعطت ذلك السرب من الشعراء الذي أطلق عليه اسم «شعراء الجنوب اللبناني». هؤلاء اعتبروا منذ البداية أن الشعر يحمل قضية، وأنه ليس ضرباً من ضروب المجانية اللغوية، وليس تهويماً في الفراغ، في وقت كانت هناك تيارات شعرية أخرى في لبنان تعتبر أن الشعر هو حيز جمالي، وهو لعب لغوي، وهو محاولة تجميع لمهارات لا طائل منها. فهنا تياران أساسيان في الشعر اللبناني. وأعتقد أنني أنتمي إلى التيار الأول، من دون أن أعتبر أن الشعر ملزم بأي شيء مسبق، وإنما هو التزام طوعي وخيار داخلي ووجداني، ودون أن يكون الشعر بالنسبة لي شعاراً دعائياً وخطباً جوفاء، وإنما هو تمثل داخلي لهذه العلاقة بيني وبين المحيط الذي أنتمي إليه.

* الشعر من هذا النوع في حالات كثيرة يتهم بالمباشرة والخطابية. ونحن نشهد أن شعر شوقي بزيع نجا من هذه التهمة.. ولذا نود أن نسألك: كيف تنظر إلى جماليات الشعر.. مثلاً في الشعر الثوري؟

ـ أنا أعتقد بعد هذه التجربة التي تربو على عشرين عاماً من الكتابة الشعرية بأن المعطى الوحيد الذي يمكن للشاعر أن يستند إليه في كتابته هو الحرية. خارج الحرية لا يمكن للشاعر أن يتنفس.. لا يمكن للشاعر أن يتلقى أوامر من أحد.. ولا يمكن للقصيدة أن تصدر بقرارات أو مراسيم.. ولا بلاط للشاعر إلا بلاط الحرية والهواء الطلق.. فهذا هو خياري منذ البداية. فمنذ بداية تجربتي الشعرية لم يفرض عليّ شيء، ولم أحاول أن أكتب الشعر بناء على توصيات وعلى وصفات كالوصفات الطبية التي يعطيها الأطباء، ذلك لأنه لم يكن لدي يقين بشيء منذ البداية.. كنت دائماً أقيم في القلق وما زلت، وأعتقد أن جمالية الشعر تكمن في أن يمتلك الشاعر القدرة والمهارة الكافية لكي يجمع ما بين المتعة والمعرفة.. أن يقدم لي متعة القول بأسلوب وبشكل متميزين.. لغة صورة شعرية.. قدرة على السبك وعلى صياغة هذه القلادة الجميلة التي اسمها الشعر. ولذلك أطلق العرب على الشعر تسمية «الصنعة»، وسموا الشعر والنثر «فن الصناعتين». لكن مهارة الشاعر ليست في «الصنعة» وحدها، وإنما هي في «الصنعة» من جهة، وفي إخفاء هذه «الصنعة» من جهة أخرى، حتى لا تظهر القصيدة وكأنها مفتعلة. يعني هناك فرق بين «الصنعة» و«التصنع». أنا مع «صناعة الشعر»، ولكني ضد «التصنع». فيجب علينا توظيف كل ما نمتلك من معارف ومن خبرات ومن طاقة حية في داخلنا ومن موهبة، لكي تطلع

القصيدة عملاً متكاملاً.. عملاً جمالياً، وفي الوقت ذاته عملاً يحقق أيضاً التواصل مع الآخرين عبر تقديم المعرفة، وعبر طرح السؤال، وعبر هذا المناخ المشترك من الأسئلة الكونية التي لا تعود سؤال الشاعر وحده، وإنما تصبح سؤال البشر في كل زمان ومكان.

*** هذا الكلام يحتاج إلى مثل من شعرك. واسمح لي أن أقترح عليك اختيار زهرة من بواكير أعمالك التي شدت الانتباه إليك وإلى فنك، واتسمت بالجمال والالتزام معاً، مثل قصيدتك الشهيرة «أيمن».**

ـ في الواقع بدأت أنسى مع العمر القصائد الأولى التي كتبتها، رغم أني أملك ذاكرة حساسة وقوية باتجاه الشعر بوجه عام.. أنا أحفظ قصائد حتى لشعراء آخرين من القدماء والمحدثين، لكن ما يساعدني في حفظ الشعر هو تكراره وإلقاؤه في الأمسيات الشعرية.. فطبعاً باعتبار أنني ألقي دائماً قصائدي الأخيرة فإنني أنسى البدايات أو قصائد البدايات مع الزمن.

لكن أعتقد أنني مازلت أحفظ من «أيمن» بعض المقاطع، خاصة أن هذه القصيدة تحولت إلى أغنية كما تعلم، غناها المغني والموسيقي اللبناني المعروف مارسيل خليفة:

«سأحدثكم عن أيمن..
عن فرح الغابات الفاتن في عينيه..
وعن سحر يديه،
إذا فرت أنهار الأرض وخبأها بين أصابعه..
سأحدثكم عن أيمن..
عن قمر تشتبك الأشجار على دمه المنسي،
فيسقط في النسيان..
عن طفل يركض خلف فراشته،
وعن الخنجر في أقصى الوديان..».

«أيمن» ليس اسماً رمزياً فحسب، وليس اسماً حركياً للطفولة المنتهكة، ولكن هو طفل حقيقي يعيش في قرية اسمها «العزّية».. قرية مجاورة لقريتي في الجنوب اللبناني، على مقربة من مدينة «صور» الجنوبية. هذا الطفل الذي كان يعيش في تلك القرية الجميلة التي يتوسطها

نهر كانت تقع طفولتي على ضفافه، والذي شاركني ملاعب الصبا الأول ولو بعد ثلاثين عاماً أو خمسة وعشرين عاماً كما أظن.. هذا الطفل كان عمره أربع سنوات، وقد قصفت قريته الطائرات الإسرائيلية عام 1978 كما أذكر، وقد أبيدت القرية على بكرة أبيها، ووجد «أيمن» مقتولاً وتحتضنه ذراع أمه التي حاولت أن تحميه فلم تستطع..

* جرت في نهر الحياة العربية مياه كثيرة عكرة.. والشعراء وحدهم هم الذين يحاولون لم شتات الأمة.. كيف تنظر إلى موضوع التواصل الثقافي بين الشعراء العرب؟

ـ لا شك في أن الشعر هو الأقدر على جمع هذا الشتات المتباعد الذي يحكم العالم العربي اليوم، والثقافة والفن بوجه عام.. لكن الشعر ـ كما يقول ت. س. إليوت ـ هو الأقدر على توحيد روح الأمة، وعلى إعطاء ذلك الإحساس بالانتماء القومي، لأنه ينبع من الداخل.. من أعمق ما في الوجدان من مناطق، ثم ينبثق عن ذلك الداخل، ويتفرع ويزهر ويثمر فيما بعد. فطالما كان الشعر العربي هو جامع الشمل، وهو صوت الضمير الجماعي، وكان عندما يصرخ تتردد أصداء صرخته في أصقاع الأمة من محيطها إلى خليجها. وأعتقد بأن الشاعر مازال مهيئاً لهذا الدور، حتى في ظل الانقسامات السياسية المستحكمة، وفي ظل الحدود المستغلقة، ولا أقول «المغلقة» التي يقول فيها الشاعر مظفر النواب: «كأن القيامة أهون من مركز للحدود..».

الشاعر وحده لا يتوقف عند مراكز الحدود، ولا يعرف جوازات السفر، وإنما يستطيع إذا كان شاعراً حقيقياً وأصيلاً أن يصل إلى كل قلب، وأن يعطي تلك الدفعة الوجدانية، وتلك الدفقة التي يمكن لها أن تعيد إلى هذا الإحساس القومي قوته ومناعته السابقتين. وهذا لا يتأتى بالخطب ولا بالشعارات ولا بالادعاءات، وإنما يتأتى من تمثل الشاعر لقضايا أمته، والوقوف على أسرار لغته أيضاً، وكونه شاعراً، أو أن يصبح شاعراً شمولياً ليس فقط على المستوى القومي وإنما على المستوى الإنساني..

أعتقد بأن القصيدة عندما تكتب تحدث كما تحدث الحصاة في الماء.. دوائر متعددة تنطلق من الدائرة الصغرى التي هي الوطن، والدائرة الوسطى التي هي الأمة، والدائرة الكبرى التي هي الإنسانية جمعاء..

* وطبعاً قبل كل ذلك، النواة، التي هي الشاعر..

ـ طبعاً.. يعني بدون هذه النواة لا يمكن لهذه الأشياء أن تحدث.. على كل حال المهرجان الذي جئنا إليه اليوم من كافة أقطار الوطن العربي.. «مهرجان القاهرة للإبداع الشعري» هو أيضاً إسهام من الإسهامات التي يمكن أن تغذي روح التواصل بين الشعراء. وأعتقد بأن القاهرة ـ أكثر من سواها ـ مهيأة لأن تكون النواة التي ذكرت، وواسطة العقد بين العواصم العربية، خاصة وهي تتهيأ لأن تكون العاصمة الثقافية للوطن العربي، وهي تستحق ذلك عن جدارة. وطبعاً نأمل أن تظل القاهرة مصدر الإشعاع، وأن تظل المنارة التي تعودنا عليها في الحقب السابقة.

* دعنا نقترب أكثر من تجربتك، بعرض حصاد هذه التجربة من الأعمال الشعرية..

ـ أنا بدأت الكتابة في مطالع السبعينيات، ونشرت في العديد من الصحف والمجلات والدوريات الثقافية العربية. لكن مجموعتي الشعرية الأولى تأخرت قليلاً وصدرت عام 1978، وهي «عناوين سريعة لوطن مقتول». ثم صدرت بعد ذلك المجموعة الشعرية الثانية بعنوان «الرحيل إلى شمس يثرب» عام 1981، ثم «أغنيات حب على نهر اللطياني» عام 1985 و«وردة الندم» عام 1990 ثم «مرثية الغبار» عام 1992 و«كأني غريبك بين النساء» عام 1995 وأخيراً مجموعتي السابعة «قمصان يوسف» وقد صدرت مطلع عام 1996.

* وفي الجعبة كثير إن شاء الله..

ـ يعني.. نأمل ذلك.. وأعتقد بأن ما يجعلنا على قيد الحياة وعلى قيد الأمل والحلم هو الشعر، خاصة في هذا الزمن الذي تتكاثر فيه الإحباطات والانتكاسات، ويكاد يصبح الإنسان فيه أعزل ومكشوفاً أمام اليأس. فأعتقد بأن الشعر هو أحد أجمل الأسلحة وأمضاها في مواجهة هذا الفراغ الزاحف من كل صوب..

* هذا المعنى ـ معنى تحدي اليأس وعدم الخضوع لما يتهددنا ولما يحاول أن يجتاحنا ـ لا بد أنه يسري في أشعارك الجديدة.. فهل تعطينا شيئاً من ذلك؟

ـ يمكن أن أقرأ شيئاً من مجموعتي السادسة «كأن غريبك بين النساء» بعنوان «الشاعر»:

«دائماً يكتُبُ ما يجهله..

دائماً يتبع سهماً غير مرئي،

ونهراً لا يرى أوّلَهُ..
هائماً في كل واد،
ينهر الأشباح كالماعز عن أقبية الروح،
وكالسّاحر يُلقي أينما حلّ عصا الشك،
ليمحو بعضُهُ بعضاً..
مقيمٌ أبداً في شبهة البيت ولا بيت له..
كلما همّ بأن يوضح يزداد غموضاً،
وبأن يفصح يزداد التباساً،
والذي يكتبه يحجُبُهُ..
هو يدري أن بعض الظنّ إثمٌ،
ولذا، يومئ للمعنى ولا يقربُهُ..
يدّعي الشاعر أن الشّعر ذئبٌ..
فيقول الناس: إن هو إلّا شاعرٌ،
والشّعر أضغاثُ رؤًى خادعةٍ.. أعذبه أكذبه..
لم يصدّق أحدٌ ما زعم الشاعر..
لم ينتبه الناس إلى الموت
الذي ينهش في هيئة ذئبٍ
جسمُه الرثّ،
لكي يستخرج المعنى الذي في قلبه..
الناسُ نيامٌ
فإذا الشاعرُ مات،
انتبهوا..».

* يبقى ـ وأنت من الشعراء المجددين ـ أن نستطلع رأيك في المدى الذي وصلت إليه القصيدة العربية حالياً.. وكيف تقيمها؟

ـ السؤال فضفاض قليلاً على أهميته.. فطبعاً لا يتسع المقام للحديث التفصيلي عن وضع

الشعر العربي راهناً. لكن.. طبعاً أنا لست متشائماً مثل البعض بالنسبة لهذا الواقع، ولا بالنسبة لمستقبله. ما زلت أؤمن أن لدى هذه الأمة احتياطياً غنياً جداً من الشاعرية لم تستخدمه بعد، وأن لديها هذا الإحساس العنيف بمغالبة الحياة وبهذا القلق المتوتر المستمر الناجم عن كثرة التحديات التي تواجهها. وهذه التحديات لحسن الحظ ليست سيئة بالمطلق، ولكن تساعدنا ـ ربما ـ في الحفر والتنقيب عن الذهب الحقيقي الذي يقبع في داخلنا.. في أعماق نفوسنا.. هذا الاحتياطي الذهبي للروح العربية الذي لن تجده إلا عبر طرح الأسئلة، وإلا عبر البحث عن مخارج لهذا المأزق ولهذه الجدران شبه المسدودة. في عملية البحث هذه أعتقد بأن الشاعر يلعب دوراً أساسياً، ولا بد أن يكون أحد وسائل التعبير الأساسية لدينا، مهما قيل عن انطفاء الشعر وعن انحساره، ومهما قيل عن سيادة الرواية.

أنا أعتقد.. إذا كنا نقف على المفصل الأخير للتاريخ كما ذهب «فوكوياما» عن نهاية التاريخ، وهي نهاية تستدعي بداية أخرى، وإلا كانت نهاية العالم بالكامل.. فيلزمنا أمران اثنان على المستوى الإبداعي. أعتقد يلزمنا الرواية لكي نتذكر، ولكي نروي، ولكي نستعيد ذلك الماضي الذي ضاع، ونعصمه بالكتابة من الضياع عبر الرواية.. ويلزمنا الشعر أيضاً لكي نتخيل، أي لكي نعرف مواطئ أقدامنا الجديدة، ولكي نبحث عن آفاق أكثر نضارة وأكثر شفافية للطريق الذي نسكله في المستقبل. إذن الشعر والرواية يتلازمان، ولن يكون أحدهما على حساب الآخر أبداً..

* أخيراً ـ إلى جانب تعبيرك في شعرك عن قضايا الوطن وهموم الأمة والإنسان بعامة ـ ماذا عن الذات والهموم الصغيرة التي عادة ما يفضي بها الإنسان لحبيبه أو ابنه أو قريب إلى قلبه..؟

ـ في الواقع.. المطلع على تجربتي الشعرية يعرف أن انعطافة ما حدثت منذ مجموعتي الخامسة «مرثية الغبار» التي قرأت مقطعاً منها في مستهل الحوار، مع الطفل الذي كنته، وأنا أقف على قمة العمر، وأنظر إلى الخلف، فلا أرى إلا سراب الماضي، وإلا بقايا ذلك الطفل الذي لم أعد أتعرف عليه، وأنظر إلى الحاضر، فأرى الكهل الذي يقف على مشارف الكهولة وينادي الطفل الذي كانه فلا يسمع جواباً، والحرب التي امتدت في لبنان عشرين عاماً تقف على شكل هوة كبيرة بيني وبينه، وكل منا ينادي الآخر قائلاً: أين أنت؟ وما الذي فعلته بي؟

كانت هذه القصيدة «مرثية الغبار» التي حملت المجموعة اسمها بداية منعطف في شعري.. منعطف يتجه من الخارج إلى الداخل.. يتجه نحو التأمل الداخلي.. نحو الباطن.. نحو الأسئلة الفلسفية.. وبدايات التصوف، وهذا ما انعكس في المجموعات الثلاث الأخيرة عندي.

* حسن.. فماذا نختار ختاماً لهذا الحوار الطيب؟

- «غبار على أفق الروح يعلو..
ويبتعد الطفل فيّ إلى ظلمة لا تؤوب،
مضاءً بأحزانه..
أنهر الأرض مثل قطيع من الذكريات أمامي..
وأتبع أقدامه صارخاً في هجير الصباحات..
لكنه لا يجيب..
أحدق مثل المجانين داخل مرآتهِ،
فأراه على وشك الموت
يرمقني من بعيدٍ،
ويسألُ: من أنتَ؟
لكننا سيدي واحد، فرقته الحروب..
لا تمت قبل أن يزهر اللوز في الأرض..
لا تتذرع بهذا الخراب الذي تلمحه الآن..
ماهي إلا شهور
وتنبلج الروح ثانية من وراء الجبال،
وقد شق ظلمتها العندليب..
شهور وتعلو الشقائق أضرحة الشهداء..
كل شيء أعد كما ينبغي،
في نهايات هذا المساء..
وبعد قليل سيجترح الضوء عشب وليد..
سيأتي الأحبة ثانية للحياة..
تواكبهم ثلة من عصافير أحلامهم،
ودم طازج،
ونهار جديد..
شهور وتنهض تلميذة في الصباح،

لتصنع من زرقة البحر مريولها المدرسي،
ويورق بين يديها الكتاب..
ولكنني لا أرى غير شمس تجرجر أمعاءها فوق
رأس الخليقة،
والأرض تفاحة تتناهشها في الظلام الذئاب..
ولماذا استتب ولم تشرق الشمس هذا الخراب؟
والذين قضوا تحت أنقاض أحلامهم،
من يعيد لهم أعيناً اطفؤوها، ليحيا التراب؟
سراب سراب..
لماذا التراب؟
إذا لم نجد فوقه من نقول له: عم صباحاً..
ولم يبق متسع ليجيء الجواب!».

* * *



7

الروائي العربي الجزائري
الطاهر وطـار[1]

مرآة الحياة الشعبية في الجزائر

مع مقدم شهر يوليو تموز، كل عام، تنتبه الذاكرة العربية، أو ينبغي لها أن تنتبه، إلى ذكريات ووقائع لها ومض البرق الساطع، ولها مغزاها الملهم.. ومن هذه الذكريات والوقائع، ذكرى انتصار الثورة التحريرية، ثورة المليون شهيد في الجزائر، في أول يوليو عام 1962..

ولئن كان الجانب الثقافي في كل ثورة تحرير، أو ثورة بناء، جانباً مهماً وأساسياً، إلا أنه في ثورة الجزائر، في مرحلة التحرير ومرحلة البناء معاً، كان أهم الجوانب، وعمودها الفقري، ذلك لأن الاستعمار كان يعني أول ما يعني نفي عروبة الجزائر، ونفي ثقافتها العربية الإسلامية.. وبالتالي فإن انتصار الثورة كان يعني أول ما يعني تأكيد عروبة الجزائر وبقاء ثقافتها العربية الإسلامية..

لكن المعركة ـ على هذه الجبهة الثقافية ـ لم تكن سهلة، وما تزال غير سهلة.. وقد كان من رواسب ليل الاستعمار الطويل، ظاهرة غربة اللغة، أو منفى اللغة، التي احتوت كثيراً من المثقفين والأدباء والفنانين الجزائريين، بل جلهم. ولم يكن هناك سوى قلة قليلة جداً، ارتبطت حياتها وامتدت جذورها في أرض ثقافتها ولغتها العربية. وكان من هؤلاء القلة، الرئيس هواري

(1) ولد في 15 أغسطس 1936، وتوفي في 12 أغسطس 2010.
أجريت هذه المقابلة أثناء مؤتمر اتحاد الأدباء العرب في الجزائر، في مارس 1982، وأذيعت في برنامج «المجلة الثقافية» بتلفزيون أبوظبي، كما نشر نصها في جريدة «الاتحاد» في 31 / 7 / 1986.

بومدين، الذي درس بالأزهر، والأديب الروائي الطاهر وطار، الذي درس بالزيتونة، والذي يعد أكبر روائي يكتب باللغة العربية في الجزائر وفي المغرب العربي كله، وواحداً من أعلام الصف الأول بين كتّاب الرواية في الوطن العربي. إنه نجيب محفوظ الجزائر، كما يقال أحياناً، وعلى يديه بلغت الرواية العربية في الجزائر مستوى من النضج والجودة لم يبلغه فن الشعر، أو الأدب المسرحي، أو غيرهما من فنون الكلمة..

على أن المهم في تجربة الطاهر وطار الروائية، ليس الجودة الفنية فحسب، وإنما هو أيضاً الالتزام الواعي بالتعبير عن قضايا الحياة وهموم الناس في المجتمع الجزائري. وفي الوقت الذي وجد كثير من الكتّاب الجزائريين، وبخاصة الذين يكتبون بالفرنسية أنفسهم في نهاية طريق مسدود بعد التعبير عن مرحلة ثورة التحرير، فإن الطاهر وطار انتهى بعد طريق الجهاد الثوري، الذي شارك فيه، بين صفوف الثوار، إلى ميدان فسيح زاخر بالقضايا والموضوعات.. هو ميدان الحياة اليومية بكل ما فيها من هموم ونضال من أجل البناء والحياة الأفضل، وصار فنه من أجل ذلك لوحات فنية تؤرخ لحركة الشعب الجزائري الآن، وفي الماضي.

من هنا، كان في مقدمة ما حرصت عليه وسعيت إليه في زيارتي الأولى للجزائر، هو أن ألتقي بهذا الرمز الرائع للمثقف العربي في الجزائر.. الطاهر وطار..

كنت قد قرأت عنه.. لكني لم أكن قد قرأت شيئاً من أعماله.. فسعيت قبل اللقاء إلى معرض كتاب وجمعت أعماله، ورحت أبحر في عالمه. وهو عالم الناس في الطبقات الشعبية، بكل ما فيه من حدة وهموم وفقر وأحلام وصراحة مرة.. ولئن ذكرك بعالم البيئة الشعبية كما صورها نجيب محفوظ، إلا أن له نكهته الخاصة ومذاقه الخاص، وحدته الخاصة في البناء.

ثم التقينا..

كان بسيطاً في ملبسه.. هادئاً وديعاً في ملامحه، على غير ما تعود المرء ويتوقع في وطن الجهاد والشهداء... في الخمسين من عمره.. وهو عمر غني بالتجربة.. ففي شبابه الباكر قطع دراسته في جامع الزيتونة للمشاركة في النضال المسلح لتحرير الوطن.. وكان لهذه المشاركة الفضل الأول في تفتح براعم موهبته الأدبية، فبدأ يكتب القصة القصيرة عام 1955.. ثم انعطف إلى الرواية بدءاً من عام 1965. وبعد الاستقلال أسس «الأحرار» أول جريدة عربية في الجزائر.. وهو الآن متفرغ للعمل الثقافي السياسي في جبهة التحرير الجزائرية..

* اسمح لنا بأن نبدأ بالتعرف على ملامح التكوين الثقافي لك.

ـ تكويني الثقافي عربي محض، ودراستي كانت باللغة العربية، أما اللغة الفرنسية فهي مكتسبة من المحيط فقط.. وقد تعلمت تعليماً دينياً.. أي في معاهد دينية: معهد عبد الحميد بن باديس بالجزائر، ثم جامع الزيتونة بتونس..

* وخارج هذا الإطار الأكاديمي.. ماذا عن القراءات؟

ـ إضافة إلى التراث الذي تشبعنا به، هناك الأدب العربي الحديث، وبخاصة أدب جماعة المهجر في ازدهارهم في الخمسينيات، فهؤلاء كانوا بالنسبة لنا أساتذة.. كذلك كانت جماعة الديوان في مصر، وكل ما ترجم من روايات وقصص قصيرة وشعر.. والحقيقة أن كل هذا جعل رجل الدين أو المثقف الديني الذي كنته يتحول إلى فنان..

* في المرحلة المعاصرة، هل تتابع الحركة الأدبية في الأقطار العربية الأخرى، هل زرت بعضاً منها، وهل لك صلات ببعض أدبائها؟

ـ نعم فأنا زرت منطقة الشام الكبير كلها. ولي أصدقاء من أبناء جيلي وأيضاً من الشباب فيه.. كذلك منطقة المغرب العربي: المغرب وتونس وليبيا.. وكذلك مصر.. وأنا أقول إننا ـ ثقافياً وأدبياً ـ كل لا يتجزأ.. فنحن يهمنا ونتابع آخر ما يصدر لأي كاتب عربي.. وهم أيضاً يتابعون ما نصدر.. فنحن نشكّل أسرة كبيرة.. لكن هناك ظروفاً أخرى خارجة عن نطاقنا كأدباء وهي تلقي بعض الظلال..

* ننتقل إلى عطائك وإنتاجك.. ماذا قدمت حتى الآن؟

ـ قدمت مسرحيتين: «الهارب» و«على الضفة الأخرى».. وقدمت ثلاث مجموعات قصصية هي: «دخان من قلبي» و«الطعنات» و«الشهداء يعودون هذا الأسبوع».. وكلها عن الفرد الجزائري داخل الثورة التحريرية، بسلبياته وإيجابياته، أي بما له وما عليه..

أما الروايات فقد قدمت منها، حسب الترتيب الزمني لصدورها: «اللاز» و«الزلزال» و«الحوات والقصر» و«عرس بغل» ثم «العشق والموت في الزمن الحراشي» وهو الكتاب الثاني المكمّل لرواية «اللاز».. وهذه الروايات كلها تهتم أيضاً بمشاكل الفرد الجزائري، سواء

أثناء الثورة التحريرية، أو أثناء البناء الوطني.. فنحن في الجزائر لنا مشاكلنا الكبيرة والمتنوعة والسريعة أو العاجلة واللافتة للنظر، بحكم أن مجتمعنا خاض ثورة عارمة شعبية فيها الموت والحياة، والعدم، والشجاعة، والتخاذل والانهزام.. أي فيها كل ما في حياة الإنسان.. ثم إننا بعد أن خرجنا من الليل الطويل للاستعمار، وجدنا أنفسنا نبدأ من الصفر في جميع المجالات، بما في ذلك تعمير مدننا التي كانت مسكونة من قبل المعمرين الفرنسيين والإسبان وغيرهم من المرتزقة الأوروبيين.. وطوال السنوات الأربع والعشرين الماضية، فإن مجتمعنا يتحول.. يبني نفسه ويتحضر.. أو يخرج من البداوة إلى مجتمع المدنية كما يقول ابن خلدون.. وهو يبنى على أسس علمية صحيحة مستقبلية.. وطموحه كبير وهو أن يصل إلى مستوى الإنسان الأوروبي الذي عاشره ويعاشره حتى الآن، أو على الأقل إلى حد مرض من هذا المستوى.. إن طموحنا كبير.. وأكبر حتى من إمكانياتنا سواء الإمكانيات البشرية أو غيرها.

* حديثك الحار هذا يكاد يجيب على سؤال لنا عن المعين الذي تستقى منه موضوعاتك وقضاياك في أدبك..

ـ الحقيقة هي أن كل كاتب هو وليد محيطه وبيئته، وهو نحلة تعطينا مذاق الرحيق الذي ترعاه.. وأنا منذ أن تفتحت عيناي وبدأت أعرف الحياة، وجدت نفسي داخل ثورة تحريرية، وداخل مجتمع جزائري يتحرك.. وجدت نفسي مسؤولاً عن أناس أكبر مني.. وأيضاً وجدتني جزءاً من مسؤولية أناس آخرين منهم من هو أصغر مني..

على أية حال، فدوري يمكن تلخيصه في أني إلى حد ما مؤرخ أديب للمجتمع الجزائري، من الخمسينيات حتى الآن..

* هذا من حيث المضمون.. فهل هناك شكل فني نستطيع أن ننسبه إليك؟

ـ الحق أنني من الكتاب العفويين.. أؤمن بطبيعية الشكل والمضمون والعفوية.. بصدقها وإخلاصها.. دون جري وراء أشكال وإشكالات وتغريبات.. صحيح أنني أنتمي إلى الواقعية الاشتراكية، والواقعية النقدية.. ولكني أفسح المجال لنفسي لأستعين بجميع المدارس، بما في ذلك المدارس المضادة للواقعية، مثل التجريدية.. وهذا يلاحظ في بعض رواياتي.. لكنني أبغض البهرج.. وأرى أنه في إمكان أي كاتب أن يتمرد في نصه وأن يكتب كما يشاء.. لكن يبقى

سؤال: ما قيمة كل نص؟ هل النص القيّم هو الذي صدر عن الكاتب في حالة إنسانية طبيعية، أم هو الذي تبهرج وجاء إلى عرس من الأعراس؟

* باعتبارك في طليعة المثقفين الجزائريين، ما أبرز ملامح الحياة الثقافية وهمومها في الجزائر؟

- إذا رجعنا إلى الفن في الجزائر عموماً.. سواء كان أدباً أو طرباً، وطوال فترات تاريخ الجزائر، فإننا نجده ملتزماً مرتبطاً بهم الإنسان، ولو كان هماً دينياً عادياً.. وأنت تعرف أن رائد المقاومة الجزائرية والعربية، الأمير عبد القادر، كان شاعراً ومثقفاً.. فمن هنا فالهم الأكبر، الآن وفي الماضي، وسواء كانت الكتابة باللغة العربية أو الفرنسية، هو الهم اليومي للإنسان.. ومن هنا يمكن أن نطلق على هذا الأدب تعبير «الأدب الملتزم».. وصحيح هناك تفاوت في القيمة الفنية، لكن هذا هو التوجه العام لما يزيد عن تسعة وتسعين في المائة مما نشر أو قرئ.. إننا لم نعرف حتى الآن الأدب العبثي، أو التجريبي الغارق في التجريبية.. وحتى الأدب المضاد للإنسان، إذا صح استخدام التعبير، فإنه إنساني اجتماعي سياسي اقتصادي.

***



8

الشاعر العربي اليمني
الدكتور عبد العزيز المقالح[1]

وجه اليمن الجميل وجسر المحبة مع أدباء العروبة

الصديق الشاعر المبدع، والناقد النابه، الدكتور عبد العزيز المقالح، شاعر وناقد كبير من أدباء الصف الأول في الحركة الأدبية العربية المعاصرة..

صورته هي صورة الوجه الجميل لقطرنا اليمني العريق.. وجه الصفاء الإنساني، والوداعة الفطرية، والسكنية الصوفية.. بينما تجيش الأعماق بفيض من الكنوز والطاقات الخلاقة الهائلة، يصرفها شاعرنا بسخاء، وبحكمة، ووعي أيضاً..

وصورته أيضاً هي صورة الإنسان العربي الجاد.. الذي يضع فكره وقلبه وعمره كله، في خدمة حركة الحياة.. حياة شعبه وأمته.. في تواضع وصمت.. وفي التزام دقيق بأحلام الحرية والتقدم والوحدة..

وأبرز ما يميز الصورة التي ترسمها كلمات هذا الحوار هو سخاء عطائه: إبداعاً شعرياً.. وبحوثاً نقدية.. وجهوداً بناءة في كل المجالات الفكرية والثقافية..إنه يبدو من بين الكلمات مؤسسة ثقافية بذاته، وهو ما يلمسه بالفعل كل من يزور اليمن.. ذلك القطر العريق الذي كان يواجه أقسى التحديات، للخلاص من ركام رواسب قرون ممتدة من الظلام.. ولاستعادة دوره الحضاري الرائد العظيم.. في تاريخ أمته.. ثم ابتلي بعواصف الإرهاب الدموي المروع

(1) ولد عام 1937.

والإرهابيين، من كل جنس، تجتاح أمنه، ووحدة أراضيه وشعبه، وحياته ووجوده ذاته.

في صنعاء، في شهر يناير عام 1982 ـ وكانت الحال غير الحال ـ تم إجراء هذا الحوار، وأذيع في برنامج «لآلئ من الخليج والجزيرة العربية»، كما نشرت نصه جريدة «الاتحاد» في صفحة «ثقافة وفكر» في 31 يناير 1985...

* اسمح لنا بأن نطل، في البداية، على خلفية الصورة، أعني مرحلة النشأة والطلب..

ـ ولدت في قرية من قرى اليمن عام 1939، في المنطقة الوسطى، في مكان يدعى «الشعر».. من المناطق التابعة للواء «إب». وقد كان جدي فقيهاً يعلّم أبناء القرية، فأخذت معلوماتي الأولى وتلقيت دراستي الأولى عليه في الكتاب، ثم انتقلت إلى صنعاء العاصمة حيث التحقت بمدارسها الأولية، وكان ذلك في منتصف الأربعينيات، وكان والدي حينئذ في السجن، فقد كان أحد أوائل المناوئين لنظام الإمامة.. ثم انتقل والدي من سجن صنعاء إلى سجن حجة، في الجهة الغربية الشمالية من صنعاء، فاضطررت أن أنتقل إلى مدينة حجة، وهي مدينة صغيرة على رأس جبل، وكانت في العهد السابق تعتبر سجناً كلها..

في تلك المدينة ـ حجة ـ أطللت الإطلالة الأولى على الأدب والشعر خاصة، فقد تعلمت على أيدي الكثيرين ممن كانوا في السجن. وكما تعلم فقد ضم السجن الرعيل المستنير من اليمنيين.. فكان فيهم الشاعر الكبير.. وكان فيهم المحاضر والمفسر.. وكان فيهم الجغرافي الجيد. كان السجن كلية من الكليات النادرة، فقد جمع أكبر رجالات اليمن، وكان ذلك من حظي ومن حظ بعض الشباب الذين أتيح لهم أن يتعلموا على يد هذا الجيل..

* وماذا عن رحلة الشعر؟

ـ أذكر أن أول محاولة شعرية لي كانت في سنة 1952، وكنت في ذلك الحين في الرابعة عشرة من عمري كتبت القصيدة مستوحياً بعض القراءات في السير الشعبية. وبعد فترة كتبت قصيدة أخرى، وكانت في رثاء شقيق لي توفي صغيراً. أما النشر فقد بدأته في الصحف المحلية، أو على الأصح في الصحيفة المحلية الوحيدة، صحيفة «النصر»، وكنت أنشر تحت اسم «ابن الشاطئ»، مع أني كنت أعيش في مدينة جبلية لا علاقة لها بالشاطئ، لكني أردت أن أتخفى.. وكنا في ذلك الحين نقرأ للكاتبة المعروفة «بنت الشاطئ»، وكنت أعرف أن لها اسماً آخر، وأنها

تتخفى لسبب من الأسباب، فاخترت أنا أيضاً أن أكون «ابن الشاطئ»، ونشرت أولى قصائدي تحت هذا الاسم، لعدة اعتبارات، منها أن الشعر المسموح أو الشعر السائد في ذلك الحين كان قصائد المديح، وقد بدأت كتابة ما يسمى بالقصيدة الرومانسية أو القصيدة الوصفية التي لا علاقة لها بالمدح أو الهجاء، فكان لا بد من أن أتخفى. وهناك سبب آخر هو أنني كنت أعتبر أن هذه المحاولات لا تستحق أن يكون اسمي مرتبطاً بها، فهي محاولات أولى، كنت لا أريد أن أظهر وأن أكتب اسمي إلا عندما أعمل وأكتب قصيدة أراها من وجهة نظري تستحق أن ترتبط باسمي..

ظل ذلك شأني إلى ما قبل الثورة بعامين، عندما بدأت أكتب وأنشر بعض القصائد باسمي الصريح. وجاءت الثورة.. وبعدها بخمس سنوات أتيحت لي الفرصة للانتقال إلى القاهرة حيث واصلت دراستي، والتحقت بجامعة القاهرة، حيث حصلت على الليسانس في الآداب عام 1971. وفي سنة 1974 نلت درجة الماجستير عن رسالة بعنوان «الشعر المعاصر في اليمن». وفي سبتمبر 1977 نلت درجة الدكتوراه في «شعر العامية في اليمن».

لقد أردت أن أقدم من خلال الدراستين الشعر اليمني بوجهيه الفصيح والعامي.. ففي رسالة «الشعر المعاصر» تناولت الشعر الفصيح، وفي رسالة «شعر العامية» تناولت الشعر الشعبي، أو ما يسمى في بعض المناطق بالزجل، وفي بعض المناطق الأخرى بالشعر النبطي. وفي هذه الرسالة لم أقتصر على الشعر العامي المعاصر، وإنما تناولت الشعر العامي منذ بدايته تقريباً، أي من الجذور، أو منذ ظهور القصيدة العامية، وهي قصيدة مفصحة وموشحة..

* فلنطل على جانب آخر من الصورة.. جانب رحلة الحياة العملية..

ـ رحلة الحياة العملية ابتدأت بالتدريس من أواخر الخمسينيات.. ابتدأت مدرساً، ثم عملت مذيعاً في دار الإذاعة في صنعاء قبل قيام الثورة وبعد قيامها، ثم انتقلت من الإذاعة إلى وزارة التربية والتعليم مستشاراً فيها، ثم سكرتيراً للإعلام والخارجية في رئاسة الوزراء، ثم مندوباً لليمن في جامعة الدول العربية، ثم طالباً بجامعة القاهرة..

* ثم عدت إلى صنعاء..

ـ نعم عدت إلى صنعاء لأعمل مدرساً للأدب الحديث في الجامعة، ولأعمل أيضاً رئيساً لمركز الدراسات والبحوث اليمنية، ثم مديراً للجامعة..

* نذكر أن خروجك من القاهرة هذه المرة، كان مشهداً حزيناً، في أعقاب اتجاه السادات ونظامه إلى مصالحة العدو الصهيوني، وزيارة القدس.. وكان لذلك أثره في شعرك..

ـ عبرت عن ذلك في قصيدة «من تداعيات الليلة الأخيرة للمتنبي في مصر»، وقد كتبتها عندما ودعت القاهرة وداعاً حزيناً.. وداع الابن عندما يترك صدر أمه. صنعاء والقاهرة ـ كما هو معروف ـ مدينتان اختلطت مشاعرهما ومشاعر أبنائهما، وأصبحت القاهرة بالنسبة لليمنيين مزروعة في وجدانهم. وعندما تركت القاهرة أحسست بحنين جارف، كأنها المدينة التي وضعت رأسي على صدرها لأول مرة في الحياة.. وليس هذا شعوري وحدي وإنما شعور كل اليمنيين، الذين يحملون لمصر ويحملون للقاهرة كثيراً جداً من الحب. وفي ختام القصيدة أقول:

«حين يعود النيل إلى النيل،
ويمد على صدر الدلتا كفيه العاشقتين،
ويخلع أكفان الموتى،
ويجيء ليسأل عن عاشقه السبئي،
قولي يا أشجار الحارة:
شرده عنك الليل، وعصف القحط،
احترقت عيناه على جمر المجرى،
ومضى قبل مجيء الأمطار».

والواقع أن هذه القصيدة التي ودعت بها مصر، كانت تعبيراً عن مشاعري تجاه المحنة التي ألمت بمصر. والتي نرجو أن تزول قريباً وتنتهي، لتعود مصر.. عربية.. نقية كما عرفناها.. وكما ستكون إلى الأبد.

* عودتك إلى صنعاء، واحداً من الطلائع المستنيرة المسلحة بالعلم والثقافة، كانت بداية لرحلة جديدة في حياتك.. والمرء لا بد أن يتوقف تقديراً عند دورك كرئيس لمركز الدراسات والبحوث اليمنية.. فهل تعطينا نبذة عن هذا المركز؟

ـ المركز هو الأول من نوعه في بلادنا، وهو يهتم كثيراً بالمخطوطات، وينبغي أن نوضح أن اليمن هو بلد التاريخ والمخطوطات، فعندنا من التراث الإسلامي الكثير، وقد كان اليمن ـ في فترة طويلة ـ البلد الذي تهرب إليه الكتب الإسلامية، وبخاصة تراث المعتزلة. ولهذا السبب،

ولأسباب تتعلق بتوثيق التاريخ اليمني المعاصر أنشىء مركز الدراسات. ومن واجبي أن أشير بكثير من التقدير إلى دور الإمارات العربية المتحدة في هذا المجال، فهي التي أسهمت بإعداد مبنى مركز الدراسات. فلها الشكر على هذا الجهد الأخوي الكريم..

وقد انتهى إعداد المركز في عام 1975، لكنه لم يبدأ بداية صحيحة إلا في عام 1978، وقد كان رئيسه السابق الأستاذ أحمد حسين المروني.. من خيرة المربين.. ومن خيرة المناضلين.. وكان له دور في إعداد المركز، وتعاونا على أن نجعل منه مكاناً علمياً يهتم بتراثنا، ويسجل جزءاً كبيراً من تاريخنا المعاصر..

والمركز يقوم على ثلاث إدارات رئيسية هي: إدارة البحث والتحقيق، وإدارة التوثيق والمكتبات، ثم إدارة الترجمة والنشر.

* وماذا عن إنجازات المركز والمطبوعات التي أصدرها حتى الآن؟

ـ هناك العديد من الكتب، بعضها يتعلق بالتاريخ، مثل كتاب «معارك حاسمة»، وكتاب «صفحات مجهولة من تاريخ اليمن»، وبعضها حول رجالات اليمن، مثل «النفس اليماني»، وبعضها حول المخطوطات اليمنية، ومنها كتاب كبير يقترب من ألف صحفة، وهو عن مصادر الفكر الإسلامي والعربي في اليمن، وهناك كتب أدبية، مثل ديوان «زمان الصبا» من شعر العامية. وهناك كتب عن اللغة، فنحن نهتم بالتاريخ واللغة والفكر الإسلامي، وهناك أيضاً كتاب مهم عن «القات»، وهو كتاب فريد في نوعه يضم بحوثاً علمية متنوعة، وكتاب آخر عن ثورة 26 سبتمبر 1962..

* نعود إلى مسيرة الأدب والشعر، ونسأل عن حصادها، ونبدأ بدواوين الشعر..

ـ كان الديوان الأول الذي أصدرته هو ديوان «لا بد من صنعاء»، وهو أول أعمالي الأدبية المنشورة، وقد تلاه ديوان «مأرب يتكلم»، وهو ديوان مشترك مع الزميل الشاعر عبده عثمان. أما الديوان الثالث فكان «رسالة إلى سيف بن ذي يزن». وتوالت الدواوين بعد ذلك حتى أصبحت سبعة: «هوامش يمنية على تغريبة ابن زريق البغدادي»، و«عودة وضاح اليمن»، و«الكتابة بسيف الثائر علي بن الفضل»، ثم «الخروج من دوائر الساعة السليمانية».

* من عناوين دواوينك، ومن كل ما فيها من قصائد تتجلى ملامح اليمن وصنعاء: الواقع.. والتاريخ.. والرموز الملهمة من سير أبطالها.. فهل تعطينا لمحة عن ذلك من شعرك؟

ـ كتبت كثيراً عن صنعاء.. المدينة العريقة.. صنعاء التاريخ. ومن ذلك قصيدة بعنوان «البكاء بين يدي صنعاء» عبرت فيها عن أشواقي وحنيني، وقد تعبّر عن أشواق وحنين كثيرين ممن يعشقون هذه المدينة التاريخية. وفيها أقول:

صنعاء يا أنشودة عبقت — وأجاد في إنشادها الأزل
إن أبعدتني عنك عاصفة — وتفرقت ما بيننا السبل
فأنا على حبي، وفي خجل — روحي إلى عينيك تبتهل
ألقاك منتصراً ومنكسراً — وعلى جناح الشعر أرتحل
يجتاحني شوق، ويسحقني — شوق، وفي التذكار أشتعل
ما نجمة في الأفق عابرة — إلا هتفت بها متى نصل؟
ومتى على الكفين راحمة — هذا الغريب الدار ينتقل؟

* الملاحظ أن هذه القصيدة من شعر البيت، ولكنك معروف في الحياة الثقافية العربية بأنك من المتحمسين لقصيدة التفعيلة، وتعتبر رائداً لها في اليمن.. فما رؤيتك للتجديد؟

ـ لا أستطيع أن أخفي حماستي للقصيدة الجديدة، وللجديد عموماً في حياتنا، سواء أكان شعراً أو غير ذلك.. لكن هذا لا يعني تنكراً للقصيدة البيتية أو ما يسمى بالعمودية، فهي جزء من تراثنا الحي المشرق والأصيل الذي سيبقى لنا من الأشياء الحية الجميلة من ماضينا العربي الزاهر.. وفي اعتقادي أن الحماسة للجديد وللتجديد في الشعر إنما هي خدمة للتراث وحماية للقصيدة البيتية، فهناك مقولة حول التراث، مؤداها أن فهمه وإجادة معرفته لا يعني تكراره بأي حال من الأحوال.. أن نعرف تراثنا شعراً ونثراً لا يعني تكراره، وإنما تجاوزه.. فالقصيدة الإسلامية تجاوزت الجاهلية.. والقصيدة العباسية تجاوزت القصيدة الأموية.. وكل عصر كان يتجاوز في الحدود التي لا تجعله مختلفاً، أو على صراع مع الأصول. ونحن نعيش العصر الحديث، والتجاوز أصبح ضرورة، لكن على ألا يكون على حساب اللغة العربية وقواعد اللغة العربية.. أما التجديد في الإطار الشعري وفي إطار اللغة، فهو مسموح به.. ومن حقي أن نتوقف قليلاً لنتذكر التجديد داخل شكل القصيدة العربية، ومن ذلك التجديد المعروف «بالموشحة»..

وقد وصلت الموشحة في القرون الأخيرة لازدهار الثقافة العربية في الأندلس إلى ما يشبه قصيدة التفعيلة المعاصرة.. ولو أن فترة الانقطاع والركود وما سمي بعصر الانحطاط الذي هبط على الواقع العربي والإسلامي، ولو أن فترة الانقطاع هذه لم تحدث؛ لكان الشعر الجديد شعر التفعيلة، قد ظهر في القرن السابع أو الثامن الهجري.. لكن مرحلة الانقطاع تسببت في أن القصيدة الجديدة لم تظهر إلا في أربعينيات هذا القرن، ولم تظهر في القرن الثامن أو التاسع الهجري. هذه وجهة نظر حقيقية مستقاة من واقعنا الثقافي والتاريخي.

وكذلك هناك مايسمى بشعر «البند»، وقد ظهر في العراق في القرن الثالث الهجري، وهو يشبه إلى حد كبير القصيدة الحديثة..

وهكذا لا تكون القضية هي حماسة لشيء لم تكن له جذور في التراث.. فعلى القصيدة ـ لكي تؤكد مرحلة المعاصرة ـ أن تتجدد، ـ وكما قلت ـ في حدود القوانين الخليلية إذا صح أنها كذلك قوانين، وفي حدود إطار قواعد اللغة العربية، بحيث لا تسيء إلى أية قاعدة منها.

•

* هنا ينشأ سؤال: إلى أي مدى نمشي مع التجديد.. وبشكل محدد، هل نصل إلى قصيدة النثر؟

ـ أنا لا أود أن أتحجر.. وقد قلت إن الحدود والإطار هو اللغة العربية.. وقواعد اللغة العربية.. وأستطيع أن أوضح أكثر فأقول: إني لا أود أن يأتي يوم نستخدم فيه العامية، أو ننصب الفاعل ونرفع المفعول، فما دمنا نتحرك داخل إطار اللغة العربية، وفي إطار قواعدها المعروفة والملزمة، فأي تجديد في اعتقادي مشروع. وفيما يتعلق بقصيدة النثر، فإنها إحدى المحاولات التي أرجو أن تترك لها مساحة واسعة. فإن أضافت شيئاً إلى القضية وإلى الإبداع العربي، فذلك ما نتمناه. وإن لم تضف فإنها ستندثر كما اندثرت محاولات أخرى لم يكتب لها النجاح..

أما بالنسبة لي، فإن حماستي للقصيدة الجديدة المحافظة على الوزن غالبة.. وإن كنت قد كتبت حول قصيدة النثر، داعياً إلى أن نترك لها الباب مفتوحاً، وألا نضع قواعد تطغى على روح الإبداع..

* يتعلق بالتجديد وبالقصيدة أيضاً ما صاحبها من غموض وإيغال في الرمز وإبهام أيضاً.. الأمر الذي ينعاه بعض المتحمسين للقصيدة القديمة على القصيدة الحديثة..

ـ هناك غموض، وهناك إبهام.. فأما الغموض فإنه في اعتقادي ـ ونحن نعيش عصر التعقيد والغموض ـ قد يكون مفيداً في بعض الأحيان.. وأما الإبهام فهو الشيء المرفوض، فالقصيدة المبهمة التي لا تحمل شيئاً، ليست بقصيدة ولا يمكن أن تكون شعراً.. أما القصيدة الغامضة التي تحمل أسراراً فنية، وتحتاج إلى قدر من الثقافة لاستيعابها، فهذه قصيدة جيدة.. وقصتنا المعروفة عن أبي تمام ـ الشاعر الغامض ـ قد تكرر الحديث عنها كثيراً.. فحين اعتبر النقاد وكثير من المتلقين شعره غير واضح، وقالوا له: لماذا لا تكتب ما يفهم؟ قال لهم: ولماذا لا تفهمون ما يقال؟

فالقضية معروفة، وتعود إلى القرن الرابع.. وأن نجدها الآن في أواخر القرن العشرين أمراً ليس غريباً.. وكما قلت: نحن في عصر التعقيد والغموض. وكل شيء يزداد غموضاً وتعقيداً، ولا يزداد يسراً ووضوحاً.. والأدب جزء من هذا التعقيد.. لكن كما قلت ينبغي ألا يكون الغموض المؤدي إلى الإبهام..

والقضية ترتبط بمشكلة المتلقي أو مشكلة الإيصال. فشعرنا البيتي أو القصيدة البيتية تعتمد على خلفية تاريخية هائلة، عمرها ستة عشر قرناً.. أما القصيدة الجديدة فعمرها لا يزيد على ثلاثين عاماً.. فالمتلقي يحتاج إلى وقت لكي يتسلح بالثقافة المناسبة، لتجعله متلقياً جيداً للقصيدة الجديدة، كالمتلقي للقصيدة العربية، هذا الذي يحتشد في نفسه كل ما في التاريخ ليجعل القصيدة البيتية واضحة ومسموعة..

وهناك نقطة مهمة أخرى، هي أن شعبنا العربي كله، من المحيط إلى الخليج، يعاني من حالة أمية، وحالة ثقافة متدنية، لا تجعله قادراً حتى على تقبل القصيدة العمودية الواضحة.. وقد قمنا بتجربة في الجامعة، وقرأنا بعض قصائد من شعرنا العربي القديم، منها على سبيل المثال قصيدة للمتنبي مطلعها:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه
وما أنا إلا عاشق كل عاشق أعق خليليه الصفيين لائمه

وقد وجدنا حيرة عند المتلقي، تساوي إن لم تزد على حيرة كثيرين عند قراءة القصيدة الجديدة.. وهناك شعراء بيتيون أو شعراء يكتبون القصيدة البيتية في العصر الحديث، يجودون في أشعارهم، ويحاولون أن تكون لها صور حديثة ورموز ذات دلالات معاصرة، وهؤلاء يواجهون بما يواجه به الشاعر الجديد نفسه. فالقضية قضية تثقيف وقضية معرفة أكثر منها قضية غموض أو وضوح..

* نعود إلى حصاد رحلتك الحافلة، وبوجه محدد إلى نتاجك النثري، والنقدي..

ـ في الكتابة النثرية أصدرت في البداية كتاب «الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن»، ويضم رسالة الماجستير التي تقدمت بها إلى جامعة عين شمس، ثم تلاه كتاب «قراءة في أدب اليمن المعاصر»، ثم «يوميات يمانية» و«قراءة في الأدب والفن»، ثم «الزبيري ضمير اليمن الوطني والثقافي»، وكتاب «أصوات من الزمن الجديد»، وهذا الكتاب بالذات يضم مجموعة من الدراسات حول الأدب العربي واليمني..

ومعظم الكتب السابقة تكاد تتركز على واقع الأدب اليمني، ما عدا كتاب «أصوات من الزمن الجديد» فإنه يتحدث عن أصوات أدبية من مصر والسودان ولبنان وغيرها من المنطقة العربية..

صدر لي أيضاً منذ فترة كتاب «الشعر بين الرؤيا والتشكيل»، وهو كتاب يتحدث هو الآخر عن عدد من شعراء العربية، وعن قضية التشكيل أو الشكل والمضمون في القصيدة العربية. العرب الذين يتناولهم هم: بلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي من العراق، ونزار قباني من الشام، والصديق المرحوم صلاح عبد الصبور من مصر، وقد ندمت كثيراً لأن الكتاب صدر بعد وفاته بأيام قليلة فلم يره للأسف الشديد..

لي كتاب آخر هو «شعر العامية في اليمن» ويضم رسالة الدكتوراه، وصدر عام 1978، وهو من الكتب التي أعتز بها، لا لأنه رسالة الدكتوراه، وإنما لأنه من الكتب القليلة في بلادنا الذي يتحدث عن القصيدة العامية منذ بداية تكونها وظهورها، مع مقارنة بالقصيدة الفصحى..

كذلك هناك كتابان صغيران صدرا مؤخراً، أحدهما عن الرئيس الراحل المناضل جمال عبد الناصر، عنوانه «عبد الناصر واليمن»، والآخر هو «أزمة القصيدة الجديدة». وحديثاً صدر لي كتاب «اليمن الإسلامي ـ قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة»، وقد حاولت فيه أن أتحدث عن بعض أفكار المذاهب الإسلامية التي عرفتها اليمن في عهدها الإسلامي، منذ القرن الثاني أو الثالث الهجري إلى وقت قريب. ولم يقتصر هذا الكتاب على قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة، بل ضم فصلاً عن الإسماعلية، وفصلاً آخر عن السنة في اليمن، والكتاب يشمل تقريباً الأفكار والمذاهب الدينية التي عرفتها اليمن في عهدها الإسلامي العظيم..

* يبقى أن نسأل عن جهودك لخدمة الحركة الثقافية والأدبية الشابة في اليمن..

ـ في كل قطر عربي تقريباً.. يظهر عدد قليل، وتختفي أسماء لامعة كثيرة. وفي بلادنا حركة

شعرية وقصصية جيدة. صحيح أنها ـ ضمن الخفوت العربي العام ـ خافتة الصوت، لكن.. هناك حضور لعدد كبير من الشعراء الشبان يستحق بعضهم، إن لم أقل كلهم، الخروج إلى أقطارنا العربية واحتلال أماكنهم في هذا الوسط الثقافي..

وبالنسة لنا، نحن الذين يمكن أن نقول: إنه قد أتيح لنا قدر من الظهور، فمن واجبنا أن نقدم هؤلاء الإخوة. وقد حاولنا قدر الإمكان أن نعرّف بعدد كبير منهم.. ولي محاولة أخيرة، وهي كتاب بعنوان «من البيت إلى القصيدة ـ دراسة في شعر اليمن الجديد» وهو دراسة في الأصوات الشعرية الجديدة التي أصبح لها حضور في اليمن.. وأعتقد أن من حقها أن يصبح لها حضور على مستوى الوطن العربي الكبير.

* * *



9

الشاعر العربي العراقي

عبد الوهاب البياتي[1]

شاعر التجديد والغربة والعالمية

عبد الوهاب البياتي.. اسم حاضر حضوراً عميقاً في الحياة الأدبية العربية المعاصرة.. بل لعله أكثر الشعراء المعاصرين شغلاً للناس.. فهو أحد الرواد البارزين لحركة التجديد في الشعر العربي الحديث.. وهو أبرز الذين استمرت جعبتهم غنية بالقدرة على العطاء والإبداع.. وهو أكثرهم حظاً في الانتشار خارج حدود الوطن العربي واللغة العربية، إذ ترجم الكثير من شعره إلى عشرات اللغات، وكتبت عنه عشرات البحوث والكتب والدراسات الجامعية.. ثم إنه أكثر الشعراء المعاصرين إثارة للجدل والمعارك الأدبية، بوفرة ما كان يدلي به من أحاديث صحفية وجرأة آرائه في زملائه الشعراء..

ومع ذلك.. فإنه لم يشبع جمهور أمسيته الشعرية في أبوظبي منذ أيام.. فقد اختار من دواوينه قصائد لا تناسب القراءة في أمسية شعرية بقدر ما تناسب القراءة المتأنية المتأملة.. فساد الأمسية شيء من الفتور.. جعلني أتذكر كلمات قالها لي في حواري معه ذات يوم تقول: «أنا أختلف عن شعراء القاعات وشعراء المناسبات، هؤلاء الذين يحولون الشعر إلى وسيلة أكثر مما هو غاية».. ثم قرأ قصيدته «اعتذار عن خطبة قصيرة» التي كتبها في استوكهولم منذ أكثر من عشرين سنة ليبين موقفه الشعري، وأنه ليس شاعر قاعات، والتي تقول:

(1) ولد عام 1926، وتوفي في 3 أغسطس 1999. بعد رحلة الاغتراب والترحال الطويلة، حط البياتي رحاله في سوريا، حيث توفي، ودفن ـ حسب وصيته ـ إلى جوار ضريح الصوفي الأندلسي بدمشق محيي الدين بن عربي.

«سيداتي، سادتي:
خطبتي كانت قصيرة..
فأنا أكره أن يستغرق اللفظ زماني..
ولساني،
ليس سيفاً من خشب..
كلماتي - سيداتي - من ذهب..
كلماتي - سادتي - كانت عناقيد الغضب..
وأنا لستُ بسكرانَ، ولكني مُتعب..
الشموع انطفأت..
والليالي بردت..
وأنا أحمل قلبي في حقيبة،
مثل طفل ميت، أغرق بالدمع صليبه،
عبر آلاف الخيانات وآلاف الأكاذيب الحقيرة..
خطبتي كانت قصيرة..
وأنا لستُ بسكران، ولكنني أسخر،
من عذابي..
وأنا لست بقيصر..
إن روما تحترق..
إن روحي تختنق..
بين آلاف الخيانات وآلاف الأكاذيب الحقيرة..
فوداعاً..
سيداتي.. سادتي».

ولأن عبد الوهاب البياتي هو أكثر شعراء العروبة سفراً وترحالاً واغتراباً.. في عواصم الوطن العربي، ومدن أوروبا الشرقية والغربية، حتى صار الاغتراب اللمحة الأوضح في حياته وشعره، فقد بدأت حواري معه بوقفة حول الاغتراب ومفهومه لديه وأثره عليه.. فقال:

- قديماً قال شاعرنا أبو تمام: «فاغترب تتجدد».. فأبو تمام هنا يطرح مفهوماً جديداً للغربة،

وهو أن الإنسان من خلال الغربة يجدد نفسه. وبالنسبة لي فإن الغربة ليست هي غربة المكان وغربة الزمان فحسب، بل هي غربة الروح أيضاً.. إن الإنسان عندما يأتي إلى هذه الحياة لا يخير، فهو لا يختار لون بشرته أو لون عينيه مثلاً.. وهو لا يختار البلد الذي يولد فيه.. ومن هنا يحدث لون من الانفصال أو لون من الغربة بين الإنسان وبيئته. ثم تأتي الغربة الأخرى.. غربة الإنسان الروحية والمادية.. ثم تأتي غربة الإنسان من ناحية البحث عن الوجود الحي المتجدد، وهو ما أشار إليه أبو تمام في كلمته: «واغترب تتجدد».

بالنسبة لي.. عانيت الغربة بكل ألوانها وهي غربة الوجود.. وغربة الزمان.. وغربة المكان.. وغربة العصر.. وغربة محاولة التجدد والولادة من جديد. والشاعر بحاجة دائمة إلى أن يولد باستمرار. وولادة الشاعر لا يمكن أن تتم من خلال القصائد فقط.. بل من خلال الزمان والمكان المتغيرين.

* إذن، ما أبرز ما أخذت وجددت به روحك من الأماكن التي اغتربت فيها؟

ـ كنت ولا أزال أولد من جديد في كل قصيدة أقولها.. وفي كل ديوان جديد.. وأستطيع أن أقول: إن مدينة القاهرة التي عشت فيها مدة عشر سنوات من أجمل مدن العالم بعد بغداد.. حيث استطعت فيها أن أبدع وأن أكتب أحسن أعمالي الشعرية.. وأذكر منها على سبيل المثال «سفر الفقر والثورة»، و«الذي يأتي ولا يأتي»، و«الموت في الحياة»، و«الكتابة على الطين»، و«قصائد حب على بوابات العالم السبع».. كما أني فيها كتبت كتابي «تجربتي الشعرية».. إضافة إلى أنني استطعت من خلال إقامتي في القاهرة أن أقيم علاقات عظيمة وعميقة مع نخبة من الإخوة الأدباء في القاهرة..

وبعد القاهرة.. كانت هناك محطات سفر في مدن عربية أخرى، أذكر منها دمشق وبيروت حيث أبدعت أيضاً.. وبخاصة في المراحل الأولى من حياتي.

ثم هناك مدن أوروبية متعددة أقمت فيها وكتبت، ولكنني أعتبر أن إقامتي في المدن الأوروبية أشبه بمرحلة انتظار، أكثر من كونها مرحلة إبداع.. في هذه المدن انتظرت طويلاً.. وأبدعت بعد ذلك بعد عودتي إلى الوطن العربي..

* إحساس الغربة يسري في الكثير من شعرك.. فأي كلماتك ترى أنها عبرت أكثر عن مفهومك للغربة؟

ـ لي قصيدة عن الغربة بعنوان «إلى ألبير كامو» يتركز في بيتيها الأخيرين مفهومي للغربة:

«النهر للمنبع لا يعود..

النهر في غربته يكتسح السدود».

ولي قصيدة أخرى عنوانها «الوحدة»، وهي جزء من قصيدة طويلة عنوانها «قصائد من فينا» كتبتها هناك أثناء سنوات الغربة والترحال والتجوال.. تقول:

«كقطرة المطر..
كنت وحيداً..
آه يا حبيبتي.. كقطرة المطر..
لا تحزني..
غداً سأشتري لك القمر،
ونجمة الضحى،
وبستاناً من الزهر..
غداً إذا عدت من السفر،
غداً إذا أورق في ضلوعي الحجر..
لكنني اليوم وحيد..
آه يا حبيبتي..
كقطرة المطر..».

* يرتبط اسم عبدالوهاب البياتي بحركة التجديد في القصيدة العربية الحديثة.. سواء من حيث الشكل أو القضايا التي عالجتها.. فأين تضع نفسك في حركة التجديد هذه؟

ـ قد لا أستطيع أن أضع نفسي، لأن ذلك متروك للنقاد والقراء.. ولكني أستطيع أن أقول شيئاً واحداً مهماً، هو أني حاولت في بداياتي الشعرية أن أحدث ثورة في التعبير، ذلك لأن ثورة التعبير تقود إلى التعبير عن مضامين جديدة.. وأنا لم أقل لنفسي إنني أريد أن أكون مجدداً، وإنما حاولت التعبير عن تجاربي الجديدة، وجاء التعبير عن هذه التجارب الجديدة لا بالأشكال التقليدية المحضة، بل بلغة وبأوزان جديدة.. وهكذا كان التجديد بالنسبة لي وبالنسبة لبقية رواد الشعر الحديث.

* لا شك في أن التجديد يحدث نتيجة حاجة ملحة إلى أساليب تعبير جديدة تكون أكثر قدرة على التحليق في آفاق جديدة.. فما هي في نظرك الظروف الموضوعية التي كان لا بد لها من أن تؤثر وتدفع حركة الإبداع الشعري إلى التجديد؟

ـ أعتقد أن التجديد ليس حذلقة، ولا يمكن أن يتم بإرادة فردية محضة، وإنما يأتي تعبيراً عن روح المجتمع الجديد.. ويأتي تلبية للموضوعية.. ولحركة التاريخ.. وللحتمية التاريخية. ولهذا فإنه عندما تكون هناك تغيرات وتحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية في المجتمع، فإنها حتماً تنعكس على الحياة الثقافية ومنها الفن والأدب وبخاصة الشعر.. وعلى هذا فإن حركة التجديد في الشعر العربي التي بدأت في نهاية الأربعينيات جاءت تلبية للحتمية التاريخية التي سادت المجتمع العربي في تلك السنوات..

* ما معالم وحدود هذا التجديد في الشعر العربي كما ترى؟

ـ طبعاً تناول التجديد أشياء خطيرة تتعلق ببنية القصيدة العربية سواء البنية الشكلية أو البنية الجوهرية.. وقد قلت: إن التجديد عبارة عن ثورة في التعبير، والثورة في التعبير تعني التجديد في الشكل وفي المضمون، أي في الجوهر وفي العرض.. وقد اختلفت طبيعة القصيدة العربية بعد قيام حركة التجديد، لأن خصائص القصيدة العربية القديمة مختلفة عن خصائص القصيدة العربية الحديثة، ولكن تظل القصيدة الحديثة هي بنت القصيدة القديمة؛ إذ جاءت إضافة وتحولاً من تحولاتها..

* فكيف كانت حدود التجديد في شكل القصيدة وعرضها؟

ـ في الشكل كان الشاعر في القصيدة القديمة ملتزماً من أولها إلى آخرها بعدد متماثل من التفعيلات يكرره في كل بيت، وملتزماً بقافية واحدة أو بقافية متراوحة ما بين بيتين أو ثلاثة. أما القصيدة الحديثة فقد اكتفت باستخدام التفعيلة كوحدة موسيقية، وجعلت الجملة الشعرية في البيت تنتهي حيث ينتهي المعنى أو تنتهي الصورة، فلا يضطر الشاعر إلى إكمال بقية التفعيلات ليتمم البيت كما في القصيدة القديمة.. وهو الحشو كما يسمى في اللغة الأدبية.

* وفي المضمون والجوهر.. كيف كان التجديد؟

ـ القصيدة العربية القديمة جوهرها غنائي.. أي تعبّر عن غنائية الأشياء.. وغنائية الحياة.. وتظل تحوم حول سطوح الأشياء، من دون أن تنفذ إلى جوهرها. أما في القصيدة الحديثة فهناك محاولة للنفاذ إلى جوهر التجربة الشعرية والتعبير عنها أيضاً.. كما أن هناك شيئاً جوهرياً آخر هو أن الحديثة تحاول أن تعبر بلغة التجربة نفسها.. إن الشاعر القديم كان في أكثر الأحيان لديه لغة جاهزة أو قاموس شعري جاهز يستخدمه في كل قصيدة سواء في الرثاء أو المديح أو الفخر.. أما في الحديثة فهناك للشاعر قاموس خاص بكل قصيدة.. أي أن اللغة أصبحت تستمد حياتها ومعالمها ومقوماتها من التجربة نفسها، لا من شيء خارج عن التجربة.

* هناك اتجاهات معاصرة لتجاوز حدود التجديد التي وصلتم إليها وتجاهل موسيقى التفعيلة، وهو ما يعرف بقصيدة الشعر الحر أو قصيدة النثر.. فما هو موقفك منها؟

ـ في رأيي أن أي محاولة تجديدية اعتباطية خارجة عن التراث الشعري القومي لا تؤدي إلى أي نتيجة، ولا تلبث أن تفشل.

لذلك فإن محاولات التجديد الأصيلة في القصيدة العربية تبقى جزءاً من تراث الشعر العربي وتدخل في بنيته وتركيبه، وتصبح إضافة إلى تراث شعرنا العربي، أما المحاولات الاعتباطية غير الجادة التي لم ترتبط بضرورة فنية أو تاريخية، فإنها لن تلبث أن تموت..

* إذن فأنت لست مع تجربة التحرر من التفعيلة فيما يعرف بقصيدة النثر؟

ـ نعم.. ولكني مع الصادق الأصيل النبيل المكتوب في أي شكل من الأشكال الأدبية، على ألا نقحم عليه التسميات.. فما يسمى بقصيدة النثر ليس شعراً.. هو نثر.. وأنا لست ضد النثر على الإطلاق، خاصة إذا كان نثراً جميلاً رائعاً نبيلاً يتمتع بخصائص الأدب الصادق الصحيح.. وأنا لي كتابات صحفية من هذا اللون.. ولا أسميها شعراً..

* يرتبط اسمك بمفهوم خاص عن رسالة الشعر في الحياة والالتزام فما رؤيتك لهذا المفهوم؟

ـ أنا أولاً أدعو إلى أن يكون هناك تطابق بين شعر الشاعر وحياته.. أي أن يكون هناك موقف أخلاقي من العالم في شعر الشاعر.. والموقف الأخلاقي يعني الموقف الوطني والإنساني..

وأنا أغضب أحياناً حينما أرى هناك تناقضاً بين شعر بعض الشعراء ومواقفهم الأخلاقية، أي مواقفهم الوطنية والإنسانية.. وعموماً أنا أرى أن الشعر يجب أن يحمل رسالة وطنية إنسانية أخلاقية للعالم.. لأن الشعر يهدف إلى تغيير العالم.. والشاعر لا يمكن أن يدعو الإنسان إلى شيء وهو لا يلتزم به.. كيف يدعو الإنسان إلى شيء من دون أن يكون ملتزماً به؟ ذلك هو السؤال الملح الجوهري الذي أطرحه دائماً على نفسي، وأطرحه على بقية الشعراء.. ولهذا فأنا أنظر إلى تجارب الآخرين، ولا أعتبر لها أي قيمة، إذا لم يكن فيها هذا الترابط. ففي هذه الحالة يفقد الشعر قدرته على التغيير وعلى إيصال الرسالة إلى الآخرين..

* كيف يتحقق التزام الشاعر حين يريد التعبير عن ذاته وهمومه الخاصة وتجاربه العاطفية مثلاً؟

ـ الشاعر حر فيما يكتب، ولا يمكن أن نلزمه بموضوع معين.. لكني أعتقد أن الشاعر وهو يعبّر عن همومه وانتصاراته وهزائمه وحبه ومشاكله، يمكن أن يكون ملتزماً.. وأخلاقياً.. وصاحب موقف قومي وإنساني تجاه الأشياء. مثال ذلك موضوع الحب.. هناك شعراء يكتبون في الحب، ولكنهم لا ينظرون إلى المرأة في أشعارهم نظرة حرة كريمة.. نظرة مساواة للرجل في المجتمع.. بل ينظرون إلى المرأة كأنها أَمَةٌ أو عبدة.. أو تنتمي إلى عصور الإقطاع والرقيق.

* مثل مَن مِن الشعراء؟

ـ مثلاً أشعار نزار قباني.. بالرغم من أن لها قراء، فإنني أعتقد أنها أشعار زائفة.. تقوم على اللفظ الجميل.. وهو ما يسمى في الأدب العربي بسحر اللغة.. أي الاعتماد على الصياغة والكلمات والجمل والصور الجميلة. ونحن لو حللنا مضمون هذه اللغة، لوجدنا فيها مفهوماً متخلفاً وعتيقاً إن كان فيها مفهوم. وهناك نماذج مماثلة في الشعر العربي، ولكن لم تكن لها أي قيمة، بالرغم من أنها كانت جيدة وأن كاتبها كان متمكناً وأستاذاً في التعبير.. إنني أعتقد أن محصلة الشاعر الحقيقية هي التي تصب في تراث أمته.. وفي تراث الإنسانية.. وتضيف إضافة جديدة لهذا التراث. ومن هذه الزاوية أنظر لكل الشعراء.. طبعاً لنزار قباني بعض الأشعار التي لا ينطبق عليها هذه المفهوم، لكنه كذلك في معظم أشعاره.. حتى تلك التي تتناول القضايا الوطنية، فهو يتناولها تناول المتفرج الذي يجلس على التل وينقد. وأنا في رأيي أنه لا حق للإنسان في النقد

إذا كان لا يمارس العمل.. الإنسان الذي يعمل هو الذي يحب، وهو الذي ينقد.. أما الإنسان الذي لا يعمل، وإنما يحترف كتابة الشعر فقط؛ فليس له هذا الحق.. إنني أعتقد أن الشاعر ينبغي أن يعمل ويكون طرفاً في القضية التي يتناولها.. وإلا فكيف للشاعر أن يعبّر أو يدين أو ينقد أو يؤيد قضايا لا ناقة له فيها ولا جمل، ولم يكن مسهماً فيها على الإطلاق. الفنان أو الإنسان لكي يكون طرفاً في أي قضية، يجب أن يكون جزءاً من هذه القضية أو نقيضاً لها..

* ولكن ألا يمكن أن تكون الكتابة الجميلة شيئاً مقبولاً ومرغوباً بذاته؟

ـ أرجو ألا يفهم أني أتهجم على نزار قباني، بقدر ما أريد تشخيص موقعه في حركة الشعر.. ذلك لأن شعر نزار من الناحية والنظرة التقليدية يمكن أن يعتبر شعراً جيداً وجميلاً.. لكنني أنظر إلى الشعر بمفاهيم وطنية.. وإنسانية.. وقومية جديدة.. وبرؤية جديدة للعالم. وقد آن الأوان للشعر العربي أن يخرج من قوقعة التعبير الجميل فقط، والذي ليس له أثر وراءه.. إن الشاعر يمكن أن يستخدم اللغة الجميلة ـ اللغة السحرية ـ في قول أشياء تخدم الإنسان وقضيته العادلة. فالفنان في اعتقادي ينبغي أن يقف دائماً وأبداً منحازاً إلى الإنسان ضد الموت والتعاسة.. أما الفنان الذي يقتصر على التعبير عن الجمال المادي فليس له موقع، خاصة في القرن العشرين. ورأيي هذا ينطبق على نزار وعلى كثيرين من الشعراء البارزين الذين لا يبالون بمضامين أشعارهم، بالرغم من أنهم يكتبون أشعاراً جميلة.. ولكن لو حللنا مضامين شعرهم لوجدنا أنه ليس فيها شيء جديد.

* الآن وقد وصلت سفينة حوارنا إلى الشاطئ، ما أجمل أن نختم بمقطوعة أثيرة من شعرك..

ـ لتكن مقطوعة «من أجل الحب» من ديوان «أشعار في المنفى»:

«من أجل أن نضحك للشمس،
على شواطئ البحار،
ونجمع المحار،
ونقطف النرجس من حدائق النهار..
من أجل أن تصمد في وجه رياح الليل والأمطار،
بيوتنا الحالمة الأزهار..
من أجل أن نكتب في جمال عيني أرضنا الأشعار.
ونقطف الثمار،

من ألف بستان، وأن تجمعنا ـ مهما اختلفنا ـ دار..
من أجل أن ينهار،
ليل الطواغيت،
وأن تنتصر الحياة..
غنيت للحب.. وللسلام.. والصغار..
يا إخوتي الكبار

***



10

الشاعر العربي المصري

فاروق شوشة[1]

صوت الشعراء ولسان لغتنا الجميلة

هو إذاعي بارز متميز.. من ذلك الجيل من رجال الإعلام العرب، الذين كان اختيارهم يتم بأدق معايير بيان الصوت والأداء واللغة والثقافة.. والذين آمنوا بالإعلام ومارسوه كرسالة مقدسة في خدمة الحياة وبناء الإنسان.. بكل ما هو حق وخير وجمال..

وهو أديب وشاعر مرموق.. تتميز كلمته بإخلاصها العميق للغتها العربية الجميلة.. وولائها الواعي لتراثها الموسيقي الغني.. وارتباطها الحميم بوجدان الإنسان المعاصر وهمومه وأحلامه..

هو بعد ذلك.. بصوته الرخيم الدافئ العميق.. وأدائه الموسيقي المحكم.. وذوقه المرهف الذكي في الاختيار، كان الباب الرحيب، الذي سرت من خلاله أجيال بعد أجيال من جماهير المستمعين.. من المثقفين والعامة.. إلى ساحة محبة الشعر، وتذوق لغتنا الجميلة..

فعلى امتداد نصف القرن الأخير.. كان الزميل والصديق الإذاعي الشاعر فاروق شوشة صوت كل شعراء العربية القدامى والمحدثين، الذي ينفخ في كلماتهم مزيداً من نبض الحياة والحرارة والموسيقى والجمال.. كما كان الغواص الماهر الذي يمنح مستمعيه ـ كل مساء ـ

(1) ولد عام 1936.

أجريت هذه المقابلة بالقاهرة ضمن البرناج التلفزيوني «سوق عكاظ» بتلفزيون أبوظبي، في يونيو 1982، ثم نشر نصها في جريدة الاتحاد في 7/ 4/ 1983.

درراً من الكنوز الثمينة المطمورة من تراث لغتنا الجميلة..

لكل هذه المزايا كان طبيعياً ومنتظراً أن يختاره مجمع الخالدين ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ لعضويته ثم لمنصب الأمين العام له.. في بيته.. المطل من وسط الزحام على نيل القاهرة الساري في سكون حزين غامض.. وبلهفة الشوق التي تشعلها رفقة العمر الجميل، كان اللقاء.. وكان الحوار..

* لسنوات طوال، عرفتك جماهير المستمعين للإذاعة، كأعمق الأصوات، وأشهرها في تقديم وأداء الشعر.. فهل كان لذلك تأثير على جانب الشاعر فيك؟

ـ لو أذنت لي، لن أتكلم فقط عن أداء الشعر، ولكن سأتكلم عن العمل الإذاعي بعامة.. فأنا أعتقد أن انتسابي للعمل الإذاعي، ثم تخصصي في تقديم البرامج الثقافية والأدبية، ومنها البرامج الشعرية التي نبع عنها أداء الشعر، صرفني لفترة عن أن أكتب شعراً.. ولذلك فإني أعتبر أن السنوات الأولى من عمري الإذاعي كانت سنوات اكتفاء وهمي، أنا فيه سعيد من دون أن أشعر بأني أقرأ شعر الآخرين، وأقدم شعر الآخرين، وأناقش شعر الآخرين.. وبالتالي فأنا متابع للحياة الشعرية، ولدي شبه ارتواء، ولكنه ارتواء وهمي..

وعندما أفقت من هذه السنوات، اكتشفت أني تخلفت طويلاً عن مسيرة جيلي من الشعراء..

لكن الإذاعة ـ في الوجه المقابل ـ أعطتني معرفة الكثيرين وحب الكثيرين.. فلم أحزن..

المهم أنني عندما عدت لمتابعة الشعر بعد سنوات التوقف اكتشفت أنه لا يمكن أن يعوض الإنسان عن إبداع الشعر لا أداؤه، ولا قراءته ولا مناقشته، ولا أي شيء آخر..

* أنت من المذيعين المعروف تكوينهم الثقافي واللغوي المتميز.. فهل تعطينا فكرة عن هذا التكوين: جذوره وتناميه؟

ـ لا أريد أن أطيل في أشياء قد تبدو خاصة.. ولكني أريد أن أشير إلى عدة سمات معينة..

في الرابعة من عمري أدخلت الكُتّاب.. وكان دخولي الكتاب لأني أكبر الإخوة أو أكبر الأولاد لوالدي، وكانت أمنيته أن أكون عالماً من علماء الدين في القرية، شأن كل من ينشأ في القرى..

وفي سن السادسة حفظت ثلثي القرآن.. وقد قال أحد الأصدقاء لوالدي إنه لكي أدخل

الأزهر ينبغي أن أكون في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. فماذا أفعل طيلة هذه السنوات من الفراغ؟.. وهكذا دخلت المدرسة الابتدائية على الرغم من إرادته..

هذه الفترة التي أعطتني الارتباط الأول باللغة العربية من خلال النص القرآني مسؤولة عن إبانتي عن الكلمات.. وعن علاقة حميمة مع الكلمة الفصيحة، حتى وإن بدت صعبة أو غير مفهومة، وعن إدراك لقدر من الجرس ومن الموسيقى والحس البلاغي القديم..

أعتقد أن هذه النشأة الأولى مسؤولة عن ارتباطي باللغة وبالشعر والتعبير بشكل عام..

بعد ذلك كانت دراستي في الجامعة متخصصة في الأدب العربي، وبالتالي في الشعر العربي باعتباره الدائرة الواسعة في هذا الأدب.. والحق أني مدين للحياة الجامعية ولأصدقائي ولأساتذتي في الجامعة وما بعدها بالتعرف على الكثير من المصادر خاصة في إعادة قراءة التراث العربي.. لأنني أعتقد أن مشكلتنا كمواطنين في كل الرقعة العربية هي أننا لا نعرف هذا التراث معرفة حقيقية أو عميقة.. فنحن ندرك إدراكاً مبتسراً، أعني كمجرد جذاذات هنا. أو صفحة هناك.. أو كبعض القصائد المعروفة لهذا الشاعر أو ذاك.. لكننا لا نعرف التراث كسلم منتظم ترقى كل سلمة فيه فوق الأخرى، ويسلم كل عصر فيه إلى الآخر، وتتحرك فيه من خلال العصور موجات وتيارات تضم خلالها أصوات التجديد والتمايز الشعري، بدءاً بالشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي وشعراء المعلقات، فشعراء الغزل العذري في صدر الإسلام والعصر الأموي، وشعراء التجديد في العصر العباسي، فالانفتاح على الثقافات العالمية والإنسانية في مطالع العصر الحديث..

هذا الإدراك للتراث أعتبره اللبنة الأولى، أو السمة الأولى للإنسان العربي عندما يتعرف على ملامح شخصيته..

* هذا يقودنا إلى برنامجك الشهير «لغتنا الجميلة»..

ـ من خلال تقديمي لبرنامج «لغتنا الجميلة» في الإذاعة، أعتقد أن الشيء الذي استفدته أنا شخصياً هو أنه كانت هناك أمامي فرصة واسعة مطولة هي الآن قرابة ستة عشر عاماً للعودة إلى التراث، بعين فيها لون من النقد والتأمل والتقييم وإعادة الاكتشاف.. وكلما اكتشفت شيئاً أدركت أني ما زلت أجهل الكثير، وما زال هناك الكثير من الكنوز بحاجة إلى مكتشفين وغواصين جدد.. وهكذا..

* شهدت السنوات الأخيرة شيئاً من الوفرة لديك في الإنتاج وفي النشر.. فهل تعرفنا برصيد عطائك حتى الآن في الشعر وفي الكتابات الأدبية الأخرى؟

ـ بالنسبة للشعر، فقد كان أول ما نشر لي مسرحية شعرية نشرتها وأنا طالب بالتوجيهية في سن السادسة عشرة.. وأنا أعتز بهذا العمل؛ لأنه كان أول ما رأيت من حروف مطبوعة على الورق لي.. والغريب أن أول ما كتبت كان مسرحية شعرية، وكان موضوعها الفتنة الكبرى، حيث علي وعثمان ومعاوية وشخصيات إسلامية أخرى تتحاور في صراع سياسي وتاريخي، وهي قضايا كانت تشغل وجداني، وبالقطع وجدان كل فتى عربي في هذه السن..

في الجامعة.. كنت كلما كتبت بعدت الساحة بيني وبين النشر، وعرفت أن وقع النشر بعيد.. ولذلك فإن أول مجموعة شعرية نشرتها كانت سنة 1966 وعمري ثلاثون عاماً.. وهذا ربما يكون نشراً متأخراً.. وقد كانت بعنوان «إلى مسافرة» وفيها اخترت ما كنت مقتنعاً به في ذلك الوقت من الإنتاج القديم كله..

أما المجموعة الثانية فقد تأخرت أيضاً فترة طويلة بسبب الإذاعة كما قلت، وهي مجموعة «لؤلؤة في القلب»، وصدرت عام 1972، ثم صدرت المجموعة الثالثة «العيون المحترقة» عام 1973، والرابعة «في انتظار ما لا يجيء» عام 1980، وأخيراً صدرت لي المجموعة الخامسة «الدائرة المحكمة»..

* هذا بالنسبة للشعر.. فماذا عن الأعمال الأخرى؟

ـ من خلال العمل الطويل في برنامج «لغتنا الجميلة» تجمعت لدي مادة كبيرة جداً.. تصور حلقات يومية لمدة ست عشر سنة.. فيها مختارات ودراسات وتقييمات وربط أشياء بأشياء.. لذلك أصدرت من مختارات البرنامج مجلدين بعنوان «لغتنا الجميلة».

كذلك اخترت «أحلى عشرين قصيدة حب في الشعر العربي» بدءاً بالعصر الجاهلي ووصولاً إلى العصر الحديث.. باعتبار أن كل عصر تمثله قصيدة هي القصيدة النموذج من خلال شاعر حب أعتبره الشاعر النموذج للعاطفة في ذلك الوقت.. وأعتقد أن مثل هذا الكتاب يمكن أن يكون مدخلاً، خاصة لشداة الأدب ومن هم في أول الطريق، لأنه ليست لدينا مختارات عصرية للشعر العربي، وإنما لدينا مجموعة من المختارات القديمة، كالمفضليات، والأصمعيات، وجمهرة أشعار العرب، وحماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، ومختارات البارودي.. لكن

ينقصنا أن يعكف أصحاب الأذواق العصرية لكي يختاروا مختارات يعكس اختيارها بدوره موقفاً نقدياً من حركة هذا الشعر العربي..

* هل ستثني باختيار آخر؟

ـ أنا بسبيلي لكي أخرج «أحلى عشرين قصيدة في الحب الإلهي».

* فاروق شوشة من رجال الإعلام الذين يؤمنون بالإعلام كرسالة في عملية بناء الإنسان العربي، بالثقافة الجادة واللغة الصحيحة، وبكل ما هو حق وجميل في ثقافتنا.. فإلى أي مدى أدى الإعلام أو قصر في رسالته في نظرك؟

ـ في الواقع هذا سؤال صعب؛ لأن تقييم دور الإعلام تجاه المواطن العربي الآن، ولو في حدود الدائرة الثقافية والأدبية، يحتاج إلى دراسة مستأنية واسعة، ويعني أن نسأل الناس.. فلا أعتقد أن الإعلاميين هم الذين يملكون الحق في الإجابة.. ولكن المتلقين في كل مكان هم الذين يستطيعون الحكم..

على كل حال.. ومن خلال تحسسي لوجهات النظر التي ألتقي بها وأسمعها وتصلني خلال رسائل الكثيرين، فإني أعتقد أننا لسنا في المستوى المطلوب، وأن الأجهزة الإعلامية العربية من حيث توجهها إلى المواطن بجدية، لم تشحن بالطريقة الكافية.. وأقصد بالشحن هنا المضمون.. المضمون الذي يتلاءم مع طبيعة القضايا العربية المطروحة في الساحة..

* ما هو هذا المضمون بالتحديد؟

ـ الواقع أننا حين نسأل: ماذا نريد للإنسان العربي؟ فإننا نقول: نريده أن يتحرك من خلال عدة دوائر محكمة.. الدائرة الأولى التي لا شك فيها هي دائرة الانتماء العربي وشخصيته العربية القومية.. فبدون هذا الإنتماء يصبح إنساناً بلا جذور.. وإذن فالمسؤولية الأولى في رأيي للأجهزة الإعلامية هي ـ ثقافياً ـ إن نوصل هذه الجذور في وجدان الإنسان العربي من خلال خطة طويلة متتابعة الحلقات وتغطي مساحات شاسعة.. والتراث العربي الذي أتكلم عنه ليس مجرد كتب في مكتبة، وليس مجرد شعراء أو خطباء، وليس مجرد كتابات أدبية.. وإنما روح تحيا وتسري في شرايين الحياة.. فنحن نعيش الآن لأن فينا تراثاً حياً.. هذا التراث الحي هو لغة

نطق بها، وإبداع نعبر عنه، وقيم تحكمنا، وأصالة ننتسب إليها، وشخصية نتوجه بها إلى أنفسنا وإلى العالم الخارجي، وبدونها لا يستطيع العالم الخارجي أن يفهمنا وأن يتحاور معنا. هذه في رأيي الدائرة الأولى..

* والدائرة الثانية؟

ـ الدائرة الثانية والمهمة جداً هي دائرة نقل هذا المواطن من الدائرة الإقليمية الضيقة إلى الرقعة العالمية والإنسانية.. والفكر الإعلامي الآن يقول لنا إنه نظراً للثورة في أجهزة الإعلام والاتصال فإن العالم كله أصبح قرية صغيرة.. وإذا كان هذا العالم قرية صغيرة فإن ما يحدث في أقصى بقعة من العالم وإن صغرت يؤثر فيّ وفي حياتي وفي أفكاري.. فمسلسل على الشاشة الصغيرة للتلفزيون، أو أغنية على شريط كاسيت، أو فيلم على شريط فيديو يستطيع أن يقلب حياتي رأساً على عقب إذا لم أكن مزوداً بثقافتي وانتمائي وجذوري وأصالتي.. ومن هنا تصبح الدائرة الأولى هي المدخل حتى أستطيع أن أعيش الدائرة الثانية في إطار صحي، وأن أنفتح وأعانق تجارب الآخرين، وأنفتح على كل ما تفرزه وتنتجه الحضارات والثقافات الأخرى قديماً وحديثاً..

* فماذا عن الإعلام واللغة؟

ـ الواقع أنني لا أريد أن أتهم الأجهزة الإعلامية بالتقصير في حق اللغة.. هناك بعض الأصوات تقول: إن انتشار العامية خاصة في المسلسلات وبرامج المنوعات وكثير من الحواريات الإذاعية العربية قد جعل للعامية لوناً من الطغيان على الفصحى.. أنا ضد هذا الرأي.. أنا أحس أن نسبة ما يذاع من الفصحى في الأجهزة الإعلامية قد ترك تأثيره الحتمي والعميق في حياة الناس.. ولو حسبنا نسبة ما يذاع من المادة الإخبارية السياسية والتعليقات والبرامج الثقافية الجادة والقراءات القرآنية والأحاديث الدينية المتخصصة، لوجدنا أنه يصب في أذن المستمع والمشاهد يومياً عدد من الساعات يفوق جهد أي مدرسة أو جامعة أو أكاديمية لغوية متخصصة.. فضلاً عن أن هذه اللغة التي يستمع إليها ليست لغة كتاب، وليست لغة صامتة، ولكنها لغة حية، وظيفية، منطوقة، لها دلالاتها البلاغية والسياسية والاجتماعية والسيكولوجية والشعبية.. ويترجمها المواطن حتى من لم يتعلم.. وهذه فرصة لأقول: إن مفهوم الأمية في حياتنا الآن قد تغير بفضل الإذاعة والتلفزيون، فلم تعد الأمية أن هناك شخصاً لا يقرأ أو لا يكتب.. وإنما الأمية الآن هي

أن شخصاً لم يتصل بروح العصر.. وأجهزة الاتصال بعصره، هي الإذاعة والتلفزيون.. فإذا استطاع أن يسمع، وإذا تمكن من أن يشاهد، فقد تغلب على عائق القراءة والكتابة، لأنه بالسمع وبالمشاهدة يستطيع أن يكون مثقفاً.. وهناك بالفعل ملايين المثقفين الآن في الوطن العربي.. في الريف.. في صعيد مصر.. في البادية والصحراء.. في الأقاليم النائية البعيدة.. لم يدخلوا مدرسة أو كُتاباً، ولم يقرؤوا كتاباً، ولكنهم مثقفون بهذا المعنى.. يعيشون حياتهم وعصرهم ومجتمعهم.. ويعرفون مشكلات الإنسانية من خلال ما يسمعونه وما يشاهدونه.

إن حصيلة هذا الكلام كله.. هو أن الأجهزة الإعلامية تؤدي دوراً.. لكنه ليس الدور الذي نستطيع أن نفاخر به نحن كمسؤولين ونقول: نحن في مستوى المسؤولية.. ولكن ينقصنا الكثير من الجدية والتخطيط والكوادر الجيدة التي أُحسن تثقيفها فتستطيع أن تثقف الآخرين.

* لعلك بذلك تشير إلى ما كان يتبع قديماً في انتقاء العاملين بالإذاعة والتلفزيون ومدى التدقيق والحرص على المستوى الثقافي واللغوي لديهم..

ـ تماماً.. فأنا أتصور أن الإعلام من خلال الإذاعة والتلفزيون هو النموذج فيما يتصل بشيئين أساسيين.. الأول هو الوسيط الذي يستخدمه وهو اللغة.. اللغة عند الإعلامي لا ينبغي أن تكون مجرد لغة صحيحة فحسب، فهذه بديهية وأولوية وأمر مفروغ منه.. وإنما ينبغي أن يتكلم لغة فيها السمات الإعلامية.. وأقصد بالسمات الإعلامية ما فوق الصحة.. فإن كان المجال أدبياً فنحن نتكلم عن الجمال وعن البلاغة.. وإذا كان توجها إلى مشكلة فنحن نتكلم عن الدرامية والتقنية والفنية.. وإذا كنا نتكلم في المجال السياسي فنحن نتكلم عن الموضوعية وعن المنطق والحجة والوعي.. هذه اللغة ينبغي أن تكون مزودة ومشحونة بما بعد الصحة والسلامة؛ لأنهما أمران مفروغ منهما..

الشيء الثاني.. هو أن يكون هذا الإعلامي ـ كما قلت ـ مزوداً أو صاحب رسالة.. لأن كلمة «إعلامي» تقود إلى التساؤل: أعلم عن ماذا؟ وماذا أريد أن أوصل؟

إن الإعلامي هو قناة.. لكن هذه القناة الموصلة تصبح بوقاً أجوف إذا لم يملأها شيء له قيمة ومضمون يستهدف تغييراً وإضافة وحفزاً وشحناً وتوجيهاً وتخطيطاً ودفعاً لمسيرة وغربلة لكثير من الأشياء التي يجب أن نتخلص منها.. هذه الرسالة التربوية التثقيفية التعليمية السياسية الحضارية لا بد أن تتجسد في مضمون يحمله الإعلامي.. وإلا فإنه بدون هذا المضمون يصبح

ـ كما قلنا ـ بوقاً يمكن أن يملأ بأي شيء إلا أن يكون هذا الشيء مفيداً وبناءً.

* نعود إلى فاروق شوشة الشاعر.. وإلى ديوانك الجديد.. ونسأل: لماذا «الدائرة المحكمة»؟

ـ لأنني أحس دائماً أن هناك لوناً ما من الحصار حول الإنسان.. يولد دائرة محكمة حوله.. وأشد أنواع الحصار هو حصار تحبه وترفضه في الوقت نفسه.. حصار تنتمي إليه وتريد أن تنفلت من إساره.. فهذا الحصار نوع من القدر.. كأسمائنا.. وأوطاننا.. ومصائرنا.. وكذلك مدننا.. وشعرنا..

إذن.. ليكن مسك ختام لقائنا صيدة الديوان «الدائرة المحكمة»:

«أجيئك مزدحماً بالوعود..
مضيئاً كدائرة البرق..
منتظراً لانهمار السواقي..
ألاصق عربي بجدران عزلتك الموحشة..
تلوح للعابرين الحيارى:
أن انغمسوا في رحابي..
ولوذوا ببابي..
وسيحوا.. دروبي ممتدة مدهشة.
وأنشطر اثنين:
بعضي يلاعن يوم قدومي لديك..
وبعضي يبارك يوم انتسابي إليك..
وأمضي.. تلاحقني دمدمات انشطاري..
ويصلبني في الميادين جوعي وعاري،
وذل انتظاري..
وأرجع مختنقاً بانكساري..

* * *

أجيئك.. تحملني صهوات الرؤى المعلمة..
بكفي سيفك أحمله عن ميامين قبلي..

مضوا في هواك..
وغطوا ثراك..
وفاحوا مباخر تمسح بالعطر أحزانك المظلمة..
وما زلت شاخصة كالشواهد فوق القبور..
كوجه الخرائب في ليلة معتمة..
وأنزل في المعمعان..
أطاعن ثبت الجنان..
وظهري إليك..
أمنت فجاءات هذا الزمان..
تلبست جلد الأمان..
عرفت اختلاط المسالك بليلة المدلجين..
وطعم المرارة في طعنات الجبان..
ظننت بأنك في الروع حصني..
ملاذي.. وأمني..
وزادي إذا جعت..
كهفي إذا خلعتني القبائل،
واختطفتني الأسنة،
وانهرت في ساحة الملحمة..
وها أنت عارية تسترين البقايا.
تكشف وجهك لي..
وتساقط جلدك.. هذا الخبيء وراء مدى الأقنعة..
وجدتك راجمة الأنبياء،
وقاتلة الشعراء،
ومخرسة الألسنة..
وجدتك عاتية القهر،
فاسدة الأمكنة..

وأرتد.. أين المفر؟

وأين براءة حلم تقصف..

خطو توقف..

عمر تجاعيده مبهمة؟

وأسقط.. تتسعين فماً لازدرادي..

ولحداً عميق القرار..

وفخاً.. ودائرة محكمة..

* * *



11

مسؤول الرياضة والشباب السعودي
سمو الأمير فيصل بن فهد[1]

أمير الشباب والرياضة والثقافة

كان من أبرز الملامح الجميلة، في محيا المملكة العربية السعودية، يتدفق حيوية ونشاطاً وإيماناً بالشباب والعمل الشبابي، رياضة وثقافة وفناً وبناء اجتماعياً وإنسانياً.

وحين سعيت إلى لقائه والحوار معه.. لم أكن أتوقع أن يتم ذلك بسهولة، وفي زيارتي الخاطفة، ضمن جولاتي سعياً وراء لآلئ الخليج.. فقد كنت ألمس ازدحام وقته في الرئاسة العامة للشباب.. لكن الاستجابة كانت شابة.. أعني سريعة وودودة.. ولعلها كانت من أسرع وأيسر المرات.. بين كل لقاءات «لآلئ من الخليج»..

ولقد مرت سنوات طوال على اللقاء.. جرت في نهرها مياه كثيرة وجديدة، وتحققت إنجازات عظيمة في ميدان العمل والشباب الذي كان يقوده.. وأخطر من ذلك أن القدر صدم الحياة الشبابية والرياضية والثقافية العربية بالرحيل المبكر المفاجئ لأمير الشباب والرياضة في السعودية..

مع ذلك.. فإن هذا الحوار يظل طازجاً نضراً.. بملامحه المميزة.. وأفكاره الشابة الخضراء.. وأحلامه الجميلة المجنحة. كما يظل ملهماً بكثير من الطموحات والآمال..

---

(1) ولد عام 1946، وتوفي في 21 أغسطس 1999.
أجري هذا الحوار في الرياض، وأذيع في برنامج «لآلئ من الخليج» عام 1980، كما نشر نصه في مجلة «الرياضة والشباب» في دبي بتاريخ 20 يوليو 1993.

* في البداية نرجو أن نشكركم على استجابتكم الطيبة لدعوتنا لإجراء هذا الحوار..

ـ وأنا أشكركم على إتاحة هذه الفرصة الكريمة لي.. فهذا من سبل التعاون والتواصل في منطقة الخليج. . وأنا سعيد بهذه الفرصة.

* سمو الأمير.. اسمح لنا بأن نبدأ بإلقاء نقطة ضوء على بعض الملامح الشخصية في رحلة العمر..

ـ ولدت سنة 1945، وتعليمي الابتدائي والثانوي كان في المملكة العربية السعودية، ثم ذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في كاليفورنيا، حيث نلت الشهادة الجامعية، وعدت للمملكة.

في المملكة أصدر المغفور له جلالة الملك فيصل رحمه الله أمره بتعييني بالإدارة العامة لرعاية الشباب. كانت وقتها إدارة عامة.. ثم تحولت بعد فترة إلى رئاسة عامة، تتبع مباشرة سمو ولي العهد.. ولها هيئتها الاعتبارية، واستقلالها الذاتي..

* هذا عن رحلة الدراسة والعمل.. ماذا عن الميول والهوايات.. ونصيب القراءة منها؟

ـ في اعتقادي أن القراءة ليست مجرد هواية.. وإنما هي واجب.. ولكن دعني أعتبرها من ضمن الهوايات.. وحينئذ أكون من الهواة المدمنين على القراءة.. أحب القراءة في كل الجوانب.. هناك طبعاً القراءة المتخصصة.. لكني أحب أن أقرأ في كل شيء.. فهناك وقت مخصص لقراءة الصحف السعودية والعربية والمجلات.. لكني حين أتحدث عن القراءة فإني أقصد قراءة الكتب.. وأنا أهوى قراءة الكتب بشغف كبير.

* أي الكتب.. أو أي فروع المعرفة تستهويك أكثر؟

ـ أكثر ما يستهويني نوعان من الكتب: كتب التاريخ، وكتب السيرة الذاتية.. وهناك كتب كثيرة قرأتها وأثرت فيّ إلى حد كبير.. من ذلك كتاب تاريخي هو دراسة مفصلة عن أبي جعفر المنصور.. والنقطة التي أثّرت فيّ منه هي نقطة الطموح اللامتناهي أو اللامحدود لدى أبي جعفر المنصور، فهو قد بدأ تقريباً من الصفر.. وأسس أو كوّن دولة من أكبر الدول الإسلامية التي ظهرت في التاريخ.

غير ذلك هناك كثير من الكتب يطول الحديث عنها ويتشعب، بل يحتاج إلى ندوات متخصصة..

لكني أنتهز الفرصة لأقول إن تراثنا العربي، وتاريخنا العربي، غنيان بشكل لا نتصوره نحن.. غنيان بالنفائس. وأعتقد أنه آن الأوان لأن نحبب شبابنا وأولادنا وإخواننا في القراءة، بطرق مقبولة، حتى يقبلوا عليها.. ويتعودوا عليها.. فالقراءة ـ في تصوري ـ تعوّد، ثم تصبح عادة..

* في الواقع.. لقد لمستم قضية من أخطر قضايا الشباب في عصرنا.. وهي قضية انصراف الشباب عن الكتاب وعن القراءة.. وهي قضية تمس فكر الشباب وثقافته في مجتمعاتنا المعاصرة.. فما رؤيتكم لهذه القضية.. وكيف نعالجها؟

ـ أنا أشاركك مشاركة تامة في أن المشكلة مزعجة إلى حد كبير.. خاصة في الفترة الأخيرة.. وإذا تأملنا الموقف، وجدنا أن الصحف الآن تعتمد على الصورة والخبر.. وكذلك التلفزيون.. والفيديو.. والراديو. لكن علينا ألا ننسى أن التلفزيون مثلاً يقدم برامج أدبية وتاريخية وثقافية وإخبارية وعلمية.. بمعنى أن ما كنت تقرؤه في أسبوع أصبحت تشاهده في نصف ساعة أو ساعة.. أي أصبح مختصراً إلى حد كبير.. وبطبيعة الحال سهّل على النفس أن تشاهد بدلاً من القراءة.. وهذا جعل التلفزيون منافساً خطيراً للكتاب..

لكن تبقى حقيقة أساسية في الموضوع، وهي أنه مهما حدث، فلا يمكن بحال من الأحوال الاستغناء عن الكتاب أو القراءة..

* وإذن ما السبيل لاستعادة الكتاب لمكانته؟

ـ أنا أعتقد أن المدرسة.. والجامعة بوجه خاص.. أساس في تكوين الرغبة لدى الشاب أو الشابة في القراءة.. فإذا نظرنا إلى هذه الزاوية، وجدنا أن برامجنا التعليمية المتطورة، أو التي تطورت مؤخراً بشكل ممتاز، ستكون دافعاً أساسياً..

أيضاً هناك المكتبات العامة الكثيرة في منطقتنا.. ولكني لا أتصور أنه لدينا المكتبة النموذجية بمعناها الحقيقي.. فالمكتبة ليست مجموعة كتب أو مراجع أو مخطوطات أو أقسام فحسب.. وإنما المكتبة بناء ممتاز مريح مكيف.. ربما يحتوي على كافيتريا في مكان معين منه.. فيه سهولة وسماحة من القائمين عليه.. يحظى بالدعاية اللازمة.. يجري مسابقات تشجيعية معينة، تمثل عاملاً مساعداً للتشجيع على القراءة.. يحتوي على أفضل نوعيات الكتب. كذلك، أتصور أن شكل الكتاب أيضاً من العوامل المغرية بقراءته. أما بالنسبة لثمن الكتاب، فيجب أن يكون

بأرخص الأسعار، وللحكومات دور في ذلك..

لقد أقيمت معارض الكتاب في جميع بلدان الخليج.. وكانت ناجحة.. وشاركت فيها دول العالم العربي. كذلك أرى أن وسائل الإعلام تساهم وتساعد في إعطاء الشباب فكرة عن آخر ما وصل إليه كتابنا العرب أو المؤلفون العرب.. وأعتقد أن لدينا نوابغ قدموا للمكتبة العربية نفائس لا حد لها.. والحكومات العربية مدعوة إلى شراء جميع هذه المؤلفات وتوزيعها بطريقة تتيح قراءتها..

* حسناً.. نعود إلى ملامحكم.. ونسأل عن مدى ميلك إلى قراءة الأدب..

ـ كما ذكرت في البداية أنا أحب القراءة في كل شيء.. في السياسة.. والسير.. والتاريخ.. أما في الجانب الأدبي، فأنا أتابع باستمرار ما ينتج أو يظهر من كتب الشعر في العالم العربي.. فأنا أحب قراءة الشعر بشكل كبير.. أحب قراءة شعرائنا المخضرمين.. والشعراء الجدد.. وأدب الشباب. وفي هذا المجال لدي ملاحظة أحب أن أقولها خاصة بالشعر الحديث.. وهي أني لا أميل مطلقاً إلى الشعر الحديث، وأتفق مع الرأي الذي يقول به كثير من فطاحل أدبائنا العرب، ومؤداه أننا إذا سمينا هذا الشعر الحديث نثراً، فإن النظرة إليه ستتغير وسيقرأ.. أما إذا أسميناه شعراً، فإننا حين نقرؤه لن نجده شعراً بالمعنى المفهوم.. فأنا عندما أقرأ الشعر الحديث أتصوره نثراً لا شعراً..

* هل حبك لقراءة الشعر.. يدفعك أحياناً لحفظ شيء منه؟

ـ أنا أحفظ الكثير من الأبيات.. وهذا يعود بلا شك إلى القصيدة نفسها.. فبعض القصائد تجبرك على حفظها.. وكثير من القصائد تمر عليك مرور الكرام، من دون أن تؤثر في نفسك مطلقاً.. وأنا أحفظ كثيراً من الشعر القديم، وخاصة الأبيات أو القصائد التي قيلت في الحماسة والفخر أو المدح أو الغزل.. عاشت مع الناس بمرور الزمن.. بل صار الناس يرددونها في مناسبات تمر بهم شخصياً.. للتعبير عن أنفسهم أو آرائهم.

* هل تعطينا مثالاً مما تحفظ؟

ـ الأمثلة كثيرة ومتشعبة، وربما كل الإخوان يعرفونها ويعيشون فيها.. لكن منذ فترة كنت أقرأ في كتاب قديم.. من الشعر القديم.. عن شاعر اسمه «نصر بن أحمد البصري» وحياته

وأشعاره.. وقد استهوتني أربعة أبيات من شعره.. فيها عمق تصوير.. تقول:

رأيـــت الــهــلال ووجـــه الحبيب فــكـــانـــا هــلالـيــن عــنــد الـنـظــر
فـلـم أدر مــن حـــيـرتي فيهما هـــلال الــسـمـا مـــن هـــلال البشر
ولـــولا الــتـــورد فــي وجـــنـتـيـه ومـــا راعـــنـــي مـــن ســـواد الشعر
لـكـنـت أظـــن الــهـــلال الحبيب وكـنـت أظـــن الــحـبـيـب الـقـمـر

أنا أعتقد أن هذه الأبيات الأربعة فيها من التصوير بطريقة محببة ذكية جميلة ما جعلني أحفظها، من القراءة الثالثة لها..

* ننتقل إلى جانب المسؤولية التي تضطلعون بها في خدمة الوطن والشباب.. من خلال الرئاسة العامة لرعاية الشباب..

ـ الحمد لله.. مسؤولياتنا مسؤوليات محببة للنفس وقريبة من النفس.. والمرء يشعر بأنه يؤدي جزءاً صغيراً من الدين للوطن ولأبناء الوطن. كما ذكرت لك.. رعاية الشباب كانت في البداية إدارة صغيرة تتبع وزارة العمل والشؤون الاجتماعية.. انفصلت الآن وأصبحت رئاسة مستقلة لها أنظمتها ولها هيئتها الاعتبارية.. وكانت مقصورة على الرياضة فقط أو الرياضة والشباب، ولكن الرياضة كانت تطغى على كل عمل شبابي آخر. ثم توسعت بفضل الله تعالى، ثم بفضل دعم جلالة الملك فيصل.. ثم بفضل جلالة الملك خالد.. ثم بفضل خادم الحرمين الشريفين الملك فهد..

لقد تلقينا دعماً بلا حدود، وذلك لسبب رئيس معروف، وهو أن الشباب هم عماد الأمة.. فيجب أن تكون لهم هيئة خاصة ترعاهم، ويجب أن يغدق على هذه الهيئة بكل ما يمكن..

أصبحت الرياضة تأخذ مجراها الطبيعي الكبير، ولكن أنشطة الشباب الأخرى أخذت حقها.. فتنوعت أنشطة الشباب.. فأصبح هناك نشاط شبابيّ ثقافي.. وأدبي.. ورسم.. وفنون مختلفة.. ولم يقتصر تعاملنا مع قطاع الشباب فقط، وإنما صار مع أي قطاع أو جهة أو شخص يخدم أو يقدم شيئاً للشباب..

من هذا المنطلق أنشأنا الأندية الأدبية.. وأنشأنا جمعية الثقافة والفنون.. وأنشأنا قسم الشؤون الثقافية.. وأنشأنا إدارة للفنون الشعبية للحفاظ على الفنون الشعبية في المملكة.. وتدريب من يرغب من الشباب السعودي الهاوي.. واشتركنا في مهرجانات في أوروبا كان لها أثر عظيم..

كل مجال ذكرته تشعبت عنه أشياء كثيرة.. لكن الشيء أو الهدف الرئيس في كل الأحوال هو

أن نخدم الشباب في جميع مجالات وجوانب حياته..

* ما مدى مشاركة الشباب وإقبالهم وتجاوبهم مع هذه الأنشطة المختلفة؟

ـ هو تجاوب كبير وطيب في كل المجالات.. الأندية الأدبية ـ مثلاً ـ وجدت أساساً لخدمة أدب الشباب، أو الأدباء الشبان الذين لم يكونوا يجدون مجالاً لنشر إنتاجهم أو طبعه، أو مجالاً لمناقشة قضاياهم.. فدور النشر من الصعب أن تنشر إلا لأديب له اسم ونشاط كثيف معروف.. ومن الصعب أن تغامر بالنشر لأديب شاب.. فكانت المهمة الأساسية للأندية الأدبية هي خدمة الشباب.. ولذلك فهناك تفاعل كبير معها..

والأمر نفسه بالنسبة لجمعية الثقافة والفنون.. حيث نلاحظ تفاعلاً كبيراً معها..

ولا أنسى هنا أن أضيف أننا في نشاطنا نهتم بالجوانب الاجتماعية: من رحلات ومعسكرات ودعوات.. وأضرب مثالاً: ففي الفترة الماضية انتقلت وفود ضمت أكثر من ثمان مئة شاب سعودي إلى بلدان كثيرة في أوروبا وآسيا.. وبالمقابل جاءت وفود من هذه البلدان لزيارة المملكة.. وأقمنا أسابيع إخاء مع دول عربية شقيقة.. وستقام أسابيع أخرى.. وقد سميناها أسابيع إخاء، لتأكيد معنى وهدف الإخاء والمحبة.. وهي تشمل أنشطة ثقافية وفنية وأدبية وفنوناً شعبية.. أما الجانب الرياضي فيها، فهو للترويح فقط وليس للمنافسة.. وهذه نقطة مهمة يجب إيضاحها..

* هناك مقولة يرددها المهتمون بالثقافة: بأن هناك سخاء في الصرف على الرياضة، في مقابل الاعتدال وربما التقتير على الثقافة.. فما هو رأيك في هذه المقولة؟

ـ هذا صحيح.. وأنا أشارك الإخوان القائلين بذلك.. أشاركهم تماماً.. لكن لهذا مبرراته وأسبابه..

أولاً.. أنا أحمّل أجهزة الإعلام النصيب الأكبر من مسؤولية هذه المسألة، بإلقائها الضوء على الرياضة ـ وبخاصة كرة القدم ـ وإفرادها الصفحات الكثيرة، والتعليقات، والدفع بسخاء، لالتقاط الصور، ونقل المباريات، وبثها على الهواء مباشرة..

إنني أنتهز الفرصة لأقول لإخواننا الأدباء والمثقفين: إنهم لو تحركوا بطريقة جديدة، وليس بالأسلوب التقليدي القديم، أي تحركوا بسرعة وبمبارزة فربما تحقق لهم ما يطلبون.

أرجو ألا يساء فهمي.. فأنا أقول إنه لا يكفي فقط أن يجلسوا وينتظروا حضور الناس إليهم،

طالبين منهم بإلحاح أن يشاركوا في النهضة الثقافية أو الأدبية أو الممارسات الثقافية والأدبية.. لا.. أنا أعتقد أن عليهم أن يسعوا هم إلى الناس، بمختلف الوسائل والطرق المحببة لدى الناس.. كالتلفزيون، والصحف، والندوات المستمرة، والمشاركة مع الجامعات والجهات الحكومية الأخرى.. حتى يصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الناس، وحتى يتعود عليهم الناس. ووقتها يجيء دور الجهات الحكومية وواجب السخاء عليهم..

إن الظاهرة لا تقتصر على منطقتنا فقط، وإنما هي في كل مناطق العالم.. حيث نجد الرياضة ـ بعنصر السرعة فيها والمنافسة والتحدي إن صح التعبير ـ تحظى بالاهتمام الأوسع.

لكن على أي حال.. أعتقد أنه من خلال المؤسسات التي قامت والتي ستقوم إن شاء الله، سيكون المجال واسعاً..

إننا لا ننسى أبداً أن أدباءنا ومثقفينا ومؤرخينا هم الركيزة الأساسية التي نعتمد عليها.. ونحن نقدرهم، ونجلهم، ونحترمهم، ونبذل كل شيء في سبيلهم.. وأنا لا يفوتني مرة أخرى أن أشيد بدورهم في حياتنا وفي مجتمعنا وفي رسالتنا.. وأتمنى إن شاء الله أن ندعم رسالتهم بكل شكل من الأشكال..

* ليتنا في هـذا المجال نطل إطلالـة سريعة على بعض المنجزات والمشاريع الثقافية لديكم..

ـ هناك مثلاً جوائزَ الدولة التقديرية للأدباء الرواد.. ومشروع المجمع العلمي في المملكة العربية السعودية، وهو مجال رحيب لمشاركة أدبائنا ومفكرينا ومثقفينا.. ومشروع مؤتمر لجميع الأدباء العرب يعقد سنوياً في جدة.. وهناك سنوياً جوائز رعاية الشباب في الثقافة والآداب والفنون.. ومشروع تنظيم جديد لجميع الأندية الأدبية بالمملكة، وتهيئة المقار المناسبة الفسيحة، التي تتيح للأدباء أن يجدوا بها المكان الصالح للبحث والتأليف والمناقشة والمناظرة..

إنني أرجو أن أؤكد أننا سنصل في فترة من الفترات إلى الصرف على الثقافة والأدب، بحجم يتساوى مع ما يصرف على الرياضة..

وأخيراً أحب أن أضيف الإشارة إلى مشروع تسجيل الفولكلور الشعبي السعودي ـ من رقصات، وشعر، وإيقاعات ـ على أسطوانات وأشرطة وأفلام سينمائية وفيديو. وذلك على أيدي شركة وطنية إعلامية متخصصة.

لقد اقتضى المشروع مسح أنحاء المملكة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وبدأ بشهادات ومعلومات كبار السن ذوي الخبرة والمعرفة بتاريخ هذه الفنون الشعبية..

* يبقى أن نقف وقفة في ميدان الرياضة لنتعرف على الواقع الرياضي في المملكة..

ـ أعتقد أنه لم يصرف على الرياضة في أي بلد عربي ـ وربما في أي بلد أجنبي ـ مثلما صُرف في المملكة العربية السعودية. والحمد لله أقمنا المدن الرياضية المتكاملة، والإستادات الرياضية، وبيوت الشباب، والمنشآت الرياضية المختلفة الأخرى.. وكان لذلك أثره الكبير.. فمثلاً كنا نقيم جميع معسكراتنا خارج المملكة في الدول العربية وفي أوروبا.. الآن ومع توافر المنشآت الرياضية أصبحنا نقيم معسكراتنا داخل المملكة..

ومن جانب آخر.. لم تكن لدينا سابقاً من الاتحادات الرياضية سوى اتحاد كرة القدم، وربما اتحاد آخر معه. .الآن توجد لدينا جميع الألعاب الموجودة في العالم تقريباً.. وتتطور من حسن إلى أحسن.. ولا شك في أننا نحتاج إلى مزيد من الوقت.. وقد تعاقدنا مع مختلف الخبرات في العالم، وأرسلنا شبابنا إلى الخارج، ليستفيدوا ويحلوا محل الأجانب.. لكن هذا يحتاج إلى وقت.. ونحن متفائلون إن شاء الله بالنسبة للمستقبل.

أما كرة القدم، وهي الشغف الأساسي للجماهير في المملكة، بل في جميع دول العالم؛ فقد بذلنا ما نستطيع.. أو بتعبير أدق جزءاً مما نستطيع.. ونسير على خطة طويلة الأمد، ستحقق نتائجها يوماً ما.. وأملنا كبير إن شاء الله أن يحقق فريقنا السعودي بطولات كان ينبغي أن يحققها من وقت مضى. .لولا أن المنشآت عندنا جديدة.. والخبرات جديدة. وعموماً.. فالرياضة الآن تسير من حسن إلى أحسن، ومن تطور إلى تطور.

* ما رؤيتك للوعي الرياضي والروح الرياضية لدى الجمهور في المملكة؟

ـ جمهورنا السعودي جمهور واعٍ.. جمهور ممتاز.. فهو أولاً يكرم الضيف، ويصفق للضيف.. وهذه روح أصيلة.. وهو يشجِّع منتخبه على طول المدى.. ويتمتع بالروح الرياضية..

* ما مدى انتشار الأنشطة الرياضية المتعددة في أطراف المملكة الواسعة؟

ـ في كل مكان في المملكة العربية السعودية يوجد مكتب تابع لرعاية الشباب.. مهمته رعاية الأندية الموجودة في هذه المنطقة.. ومتابعة برامج الشباب..

* قبل أن نترك الساحة الرياضية، نحب أن نسألكم عن الرياضات التي تمارسها؟

ـ أنا أحب رياضتين وأمارسهما: السباحة.. وكرة السلة..

* هل نتعرف على الجانب الإعلامي من نشاطكم.. والذي يحقق التواصل بينكم وبين الجماهير؟

ـ نحن نصدر جريدة أو مجلة أسبوعية.. تعتبر ملحقاً.. تبيّن أنشطة رعاية الشباب. لكن إطلالنا وتواصلنا الحقيقي مع الناس يتم من خلال كل قنوات الإعلام السعودي.. التلفزيون.. والإذاعة.. والصحف التي تخصص صفحات طويلة عريضة للرياضة والشباب.. إضافة إلى الشباب أنفسهم، والمحبين للرياضة، والشباب الذين بأحاديثهم معاً ومع الناس ينقلون هذه الأنشطة..

لا شك في أن مجلتنا ليست منافساً للصحف أو نداً لها.. وإنما هي وثائقية إن صح التعبير. أما علاقتنا بالصحف فعلاقة ممتازة، وهم جزء منا، ونحن جزء منهم.. ونعتمد عليهم في إبراز كل شيء..

* أخيراً ـ سمو الأمير ـ نحب أن نستطلع رأيكم في مدى التفاعل والتعاون بين أجهزة رعاية الشباب في المملكة، وما يماثلها في منطقة الخليج والوطن العربي بعامة..

ـ في منطقة الخليج.. أرى أن نشاطنا ممتاز، وعلاقتنا ممتازة في مجال الشباب والرياضة. وأيضاً من خلال مجلس التعاون الخليجي.. أتصور أن الأمر سيكون أفضل في فترة زمنية قصيرة..

وفي إطار العالم العربي.. هناك اتفاقيات وبروتوكولات تجمعنا مع إخواننا العرب.. وهذه الاتفاقيات هي للتنظيم ليس إلا.. وجميع منشآتنا هي لخدمة الشباب العربي، لا الشباب السعودي فقط..

إن علاقاتنا العربية ممتازة.. وتعاوننا مستمر لا حدود له.. ونحن نرجو أن يستمر ويتدعم ويتسع هذا التعاون وهذا التفاعل.. ونثق إن شاء الله بأن مستقبل العمل الشبابي ـ بجناحيه: الرياضي والثقافي ـ سيكون أكثر ازدهاراً.. حتى نبني أجيالاً جديدة.. عامرة بالصحة والروح الرياضية.. والفكر.. والثقافة.. إن شاء الله..



12

الشاعرة العربية العراقية
لميعة عباس عمارة[1]

صوت الحب وملهمة السياب

لم يكن غريباً أن يحظى هذا اللقاء مع لؤلؤة العراق الشاعرة لميعة عباس عمارة، باستحسان غامر من المشاهدين.. وباحتفاء واسع من الصحافة..

ولم يكن غريباً أن يستنسخه الكثيرون، اعتزازاً به.. بل لم يكن غريباً أن تُدعى الشاعرة بعده إلى الإمارات العربية المتحدة لتقديم فنها في أمسيات شعرية مشهودة. ذلك أن اللقاء كان واضح التميز، من بين أكثر من مئة لقاء مع أدباء المنطقة وشعرائها، حيث كانت فيه الشاعرة عمارة نموذجاً للحضور العميق الشامل على الشاشة الصغيرة.. الحضور بالصورة الجميلة، وخفة الظل الجذابة، والفكرة الذكية، والشاعرية المبدعة.

* لعل خير بداية للحوار مع الشاعر هو الاقتراب من عالمه الشعري، أي بأن نبدأ بالشعر.

ـ أصعب شيء أن يبدأ الشاعر من دون مناسبة، بقصيدة. مع ذلك أختار مقدمة ديواني الجديد، وفيها أقول:

---

(1) ولدت عام 1929.

سجلت هذه المقابلة مع الشاعرة أواخر عام 1979 في بيتها في بغداد، وأذيعت ضمن برنامج «لآلئ من الخليج والجزيرة العربية» من تلفزيون أبوظبي، ثم نشر نصها الشاعر حبيب يوسف الصايغ في العدد السابع من مجلته «أوراق» في يناير 1984.

«كل شعري،

قبل لقياك سدى..

وهباء كل ما كنت كتبت..

اطو أشعاري،

ودعها جانباً،

وادن مني..

فأنا اليوم بدأت..».

* هل هذان البيتان يمثلان نزوة الشاعر وخياله، أم أن هذا هو رأيك الحقيقي في الديوان؟

ـ بل أقصد أن ديواني الجديد هو خير ما كتبت، هذا تقييمي، وفيه أنا قاسية جداً..

«من يميني على يميني رقيب، باتر الصوت دائن لا يدان».

* فما سر هذا التميز؟ ما الجديد الذي توافر فيه دون ما سبقه من دواوين؟

ـ لا نستطيع حصر الأشياء الجميلة، كما لا نستطيع أن نعرف العطر.. ديواني عطر جميل، وأنا شممته وأحبه.

* ربما عبرت فيه عن نفسك أكثر؟

ـ كنت حقيقية أكثر.. حقيقية بلا خوف.. وكنت بالتأكيد فيه أنضر.

* على أية حال لنبدأ من البداية، حتى لا نغمط حق الدواوين الأولى، ولنتعرف على مسيرة حياتك وقصة الشعر معك.

ـ بالتأكيد. أنا ولدت في مكان من العراق هو بغداد. أنا كرخية.. ولدت في الكرخ، ودرست الدراسة المعروفة.. وتخرجت من كلية دار المعلمين العالية.

* هذه الكلية خرجت جيلاً مهماً من الشعراء.

ـ أنا كنت من المحظوظين في هذه الكلية، فقد تتلمذت على أسماء شهيرة جداً. فمثلاً، كان الدكتور مصطفى جواد والدكتور محمد مهدي البصير من الأساتذة الذين شرفت بالتلمذة على أيديهم. كذلك كان زملائي يمثلون دورة متميزة، ضمت شعراء وأسماء لامعة كثيرة. فمثلاً كان الشاعر شاذل طاقة ابن صفي، وكان عبد الوهاب البياتي يجلس في مقعد خلفي طوال سنوات الدراسة الأربع.. لقد كانت دورة غنية ضمت ستة شعراء ممن طبعوا الدواوين.

* وفي الصفوف الأخرى؟

ـ نحن كنا في الصف الأول، لكن كان عندي تطلع إلى أن أحضر في الصفوف العليا، فكنت أذهب إلى الصف الرابع لأحضر دروس الأساتذة الكبار الذين لم يكونوا يدرسوننا. كان في هذا الصف كمال عيسى، وهو الآن يوصف بالشاعر الكبير والشاعر القومي، وكان فيه أيضاً ديزي الأمير الكاتبة القاصة. وفي الصف الثالث كان هناك بدر شاكر السياب، فجمعتنا الكلية لمدة سنتين، في السنة الأولى كنت أحضر مع من يحضرون لسماعه، ففي ذلك الوقت كان بدر مشهوراً، وكان له ديوان مطبوع وهو طالب قبل الخمسينيات.

* لا شك في أن هذه الفترة التي جمعت مجموعة كبيرة من محبي الأدب والشعر والشعراء، كان لها تأثير يجذبك أكثر للشعر والإسراع بإنضاج مواهبك.

ـ بالضبط كان تأثيرها سيئاً، ففيها نسيت دوري، وكنت أسمع وأنقد، وربما أنصح وأوجه، كما كنت أعبر عن عواطفي ومشاعري بصورة شفهية وفي ثوب أحاديث.. وهذا خطأ بالنسبة للشاعر.

كنا لا نقيم وزناً ولا نعرف قيمة للكلمة المكتوبة، فكنا نقول ما خطر ببالنا. ولو أنني كتبت ما كنت أقوله شفهياً لكان عندي عدة دواوين منه، لكنني ما كتبت في تلك الفترة شيئاً يذكر.. فقط قصائد معدودة أكثرها شعر مناسبات وغزل.

* نحن نعرف أنه في تلك الفترة كان الشاعر الكبير بدر شاكر السياب يبدأ توهجه، وأنك لازمتِ تلك الفترة وصاحبت هذا التوهج، فحبذا أن تحدثينا كيف كان يلقي شعره، وكيف كان يهتم بقصائده.

ـ بدر مع الأسف لم يترك تسجيلاً من إلقائه، وقد كان من أحسن من يلقي الشعر، سواء كان الشعر حماسياً وطنياً أو غزلياً. كان يذوب أثناء الإلقاء، وحتى لو أعاد القصيدة عشرين مرة فإنه كان يتأثر التأثير نفسه. وأنا أذكر مثلاً مقطعاً من القصائد التي يعجبني إلقاؤه لها، وهو من قصيدة «أغنية قديمة».. يقول فيه:

«لم يسقط ظل يد القدر
بين القلبين؟ لم أنتزع الزمن القاسي،
من بين يدي وأنفاسي،
يمناك؟ وكيف تركتك تبتعدين.. كما
تتلاشى الغنوة في سمعي.. نغماً.. نغما؟».

بدر كان يموت وهو يقول هذه الكلمات، تحس بأعصابه المرهفة وأوردته وحنجرته، بل رئته وليست حنجرته. وطبعاً هذا كان يجذب الطلاب من الكليات الأخرى، فكانوا يأتون إلى دار المعلمين العالية، في الحديقة، ونحن كنا كثيراً ما نهرب أو نترك الدروس.. فقد كانوا يدرسوننا أو يمتحنوننا عن شاعر بينما نكون نحن حافظين لديوانه كله. فكان هربنا من الدروس غير مؤثر علينا، وكنا نجلس في الحديقة نستمع إلى بدر، وكان يتألق عندما تحيط به الفتيات الجميلات، وبالصدقة كان في زمان بدر في الكلية أجمل الطالبات..

* نعلم أيضاً أنه كان يأخذ رأيك في بعض قصائده.

ـ لا والله.. لا تعلم هذا ولا أحد يعلمه، وإنما اتهمت أنا بأني أتبجح وأقوله، وأنا أدعي أنه كان يأخذ رأيي.. طبعاً كان يأخذ رأيي. فالشاعر عادة حين يكتب قصيدة فإنه يقولها لأناس عاديين، كما أنه يحب المديح من الناس البسطاء. فكيف إذا كان مع إنسان يفهم؟ إنسان مثقف وشاعر؟ طبعاً يجب أن يسمع رأيه، لكن ذلك يستكثر إذا قلناها. ومع ذلك فأنا كنت أول من يسمع القصيدة، وعادة كنت أستحسنها لأن بدراً كان «فلتة» و«صدفة».. بدر لا يتكرر.. وأذكر أن قصيدة واحدة لم أرض عنها، ربما فنياً، أو ربما لأنها كانت تمس بعض النواحي الحساسة، فمزقها بدر، لم يذكرها في دواوينه.

من الذكريات أيضاً أنه كان لنا مجلس أدبي دائم، وليس في الكلية فقط. من ذلك بيت الأستاذ محمد شرارة رحمه الله، والذي كان له فضل كبير على الأدباء، وهناك رأيت نازك

الملائكة، وسمعت بدراً.. كانت السهرة كل يوم خميس تتم في بيت الأستاذ محمد شرارة في الزعفرانية، ويحضرها مجموعة كبيرة من الأدباء والفنانين، وتقرأ فيها القصائد الجديدة. وأذكر أن بدراً خبرني أنه أخطأ كثيراً حين كان يقرأ قصائده قبل نشرها، لأن نازك ـ كما يقول ـ بدت متأثرة بخطواته الجديدة. وطبعاً نازك لها تاريخ قديم، وعندها قصائد مثل «الكوليرا»، وأنا الآن لست بصدد إثبات من السابق بالشكل الحديث للقصيدة، فالقضية في نظري بسيطة، ولا تستحق كل هذا التسابق عليها، لأننا لو حسبنا الرواد، أو من يدعون الريادة، أو من يحشرون في الريادة لبلغوا المئة.

* هذا المنتدى الأدبي في بيت الأستاذ شرارة، بطبيعة الحال كان مظهراً من مظاهر التفتح والازدهار الثقافي.

ـ فعلاً، فالندوة لم تكن تنتهي بصورة شفهية.. فقد كان شقيق الأستاذ شرارة يجمع ما قيل من قصائد، ويغذي بها الصفحة الأدبية في الصحف التي كانت تصدر آنذاك مثل «الزمان» و«البلاد»، فكنت تطالع كل أسبوع قصائد جديدة للشعراء الشباب.

* هل ترين أننا نحتاج حالياً لمثل هذه الندوات؟

ـ لا.. لسنا محتاجين.. إن الأديب الآن مدلل.. فقديماً لم يكن لدى الأديب ما يشتري به السجائر، أما الآن فهو مترف.. إنك تسألني عن زمن كنا نحمل فيه كتب الزملاء ودواوينهم وندور بها على المدارس ونبيع، ونعود بالحصيلة للشاعر، حيث لم تكن هناك دور نشر.

* لكننا نحتاج إلى الحوار الذي كان يجري في تلك الندوات.

ـ الحق أنه كان غنياً، وأنا لست أدري إن كان الأمر يعود إلى قضية الإنسان.. الفرد.. فقد وجد أفراد متميزون في تلك الفترة، أفراد أذكياء موهوبون، على صعيد الرسم والتمثيل والشعر والأدب والترجمة والثقافة والسياسة وكل شيء.

* وماذا عنكِ أنتِ؟ كيف بدأت تدخلين عالم الشعراء كشاعرة؟

ـ أنا حتى الآن أسأل نفسي: هل دخلت؟

* بالتأكيد دخلت..

ـ معنى الدخول عندي هو أن أقرأ بعد ألف سنة.. وعلى أية حال نحن محبو الشعر.. ونحن متذوقو الشعر.. ونحن نجرب ونكتب كهواة. فإذا استحسن الناس ما نكتب فهذا يسعدنا بالتأكيد.

* إذن حدّثينا عن دواوينك..

ـ أول ديوان سميته «الزاوية الخالية»، والزاوية الخالية تعني زاوية الشعر في حياتي، فقد كنت مشغولة كموظفة وكأم لأربعة أطفال، فلم يكن هناك مجال للشعر.. فنسيته. وفجأة إذا بي أتذكر أني شاعرة، حين كبر أولادي.. والواقع أنني في كل مرة أترك فيها الشعر أتصور أن ذلك هو آخر عهدي به، وأنه الطلاق المؤبد مثل طلاق رامبو للشعر.. ولكن بعد سنوات أعود وأكتب شعراً، وأكتب أحسن.

* وديوانك الثاني؟

ـ «عودة الربيع» وهو صغير جداً ونفد.. «عودة الربيع» قصيدة لأخي الذي توفي وعمره ست وعشرون سنة.. فعندما أنظر إلى الحديقة أجد أن الورود والأشجار ترجع في الربيع، أما الإنسان فلا يتجدد عندما يموت..

* وبعد «عودة الربيع»؟

ـ «أغاني عشتار»، وفيه قصائد أحبها، وقصائد للخليج. فقد كان زوجي بالكويت، فكتبت «رسائل إلى الكويت»، ومنها:

«كفاي باردتان والأشواق يرعشها ارتجافي..
من لي بساعده يشد أضالعي.. ألا تخافي؟
من لي بكفيه ودفئهما يمر على شفافي؟».

في «أغاني عشتار» أيضاً قصيدة أحبها هي «الغد الأعمى»، تمثل امرأة عجوزاً يريد حبيبها القديم أن يراها بعد سفر طويل وغربة. ومن الطريف أن الفنان فريد الأطرش سألني مرة عن

قصيدة لي يلحنها، فقلت له: قصيدة «الغد الأعمى»، فصرخ قائلاً: «دخيلك.. إلا هاي».. فقلت باندهاش: أنت لا تعرفها.. إنها قصيدة حلوة.. فقال: «لا.. وإلا سينادي الجمهور عليّ من الصالة: يا أطرش غَنِّ الأعمى!».

أقول في القصيدة، وهي طويلة:

«غداً يزورني.. غداً ليت غداً لا يطلع
ليت غداً لأمسه بلا عيون يرجع
ماذا يرى لو زارني من فتنة تشعشع؟
أصابع معروقة ونظرة تستطلعُ؟
ووجنة ذابلة وضحكة تصطنع؟
وعتمة لا شيء غير الشيب فيها يلمع؟
يحب روحي؟ أي روح في حطام تشفع
مواهبي.. إذ أكتب الشعر ألوفاً تطبع؟
ما قيمة الذكاء في النساء؟ ماذا ينفع؟
أي الأحاديث غداً بذكرها يستمتع؟

.... إلى أن أعود فأقول:

«غداً يزورني.. غداً ليت غداً لا يطلع».

* وبعد «أغاني عشتار»؟

ـ أصدرت «عراقية» بعنوان أولى قصائدها.

* الملاحظ أن ديوانك «عراقية» يضم مجموعة من القصائد القصار جداً، الأمر الذي يدعونا للتساؤل عن رؤيتك للقصيدة القصيرة جداً.

ـ رأيي أن العصر لا يجعل لدى القارئ والسامع صبراً على القصائد الطوال.. وأنا أحترم الجمهور وأحابيه وأخافه، وأكابد تهيب طفل في الامتحان عندما ألتقي بالجمهور، ودائماً أهرب في الوقت المناسب قبل أن يمل الجمهور، فالقصائد القصار مناسبة لروح العصر. لذلك تجد أكثر قصائدي الحديثة قصاراً.. قد يصل بعضها إلى بيت ونصف بيت.

* مثل؟

ـ كثيرون من الناس يوقعون رسائلهم بكلمة «المخلص إلى الأبد»، وأنا لا أتصور ذلك، فأقول:

«لا تقل للأبد..
حبني اليوم أو،
حبني فجر غد..
حبني دون حد..».

* وبعد ديوان «عراقية»؟

ـ «يسمونه الحب».. فأحياناً تنشأ لدينا عواطف لا نعرف كنهها، يسميها غيرنا حباً، لكنها ليست كذلك..

في هذا الديوان قصائد لتونس، وفيه قصيدة من بغداد تمثل تجربة فنية خاصة، فهي رسالة من مازن إليّ، قمت بإعادة كتابتها موزونة.

* نصل إلى الديوان الجديد، أحب أعمالك إليك كما تقولين.

ـ هو «لو أنبأني العراف»، وهو في نظري أحلى وأنضج وأكثر تأثيراً، وفيه مجموعة من القصائد القصار والطوال. فأنا أكتب قصائد طوالاً في المناسبات، لكن ليس أكثر من خمسين بيتاً.

* هل نكشف عن بعضها؟

ـ ليس عند الشاعر سر، وأنا في بداية ديواني «أغاني عشتار» أقول:

«لعنة اللاعن يا شعر عليك   ما الذي أوقعني بين يديك؟
كل أسرار الورى مكتومة   وخفي الهمس مفضوح لديك».

أما في «لو أنبأني العراف» فأقول:

«لو أنبأني العرّاف..
أنك يوماً ستكونُ حبيبي،

لم أكتُبْ غزلاً في رجلٍ..
خرساء أصلّي،
لتظلَّ حبيبي.

***

لو أنبأني العراف..
أني سألاقيك بهذا التيه،
لم أبكِ لشيءٍ في الدينا..
وجمعتُ دموعي..
كل الدمعِ..
ليوم قد تهجرني فيه..».

***

* من حديث الشعر إلى بعض الملامح الخاصة التي تكمل الصورة، كاتجاهاتك في القراءة مثلاً..

ـ أنا أقرأ في كل العلوم، ولا أقتصر على الشعر والأدب، وأقرأ قليلاً بلغات أخرى، الإنجليزية والفرنسية والألمانية.. وحبي للقراءة قديم منذ أيام الدراسة، وقد كانت أمي ـ وهي أمية لكن تفهم ـ تلاحظ أني أضع الروايات داخل الكتب المدرسية.

* أي الكتب باق في ذهنكِ وقلبكِ؟

ـ كتب كثيرة ظللت أحبها، وكنت أشعر بأنها عظيمة، ولكن لما رجعت إليها بعد عشر سنوات قل إعجابي ببعضها. الكتاب الوحيد الذي أظل معجبة به، وأرجع إليه بالتأثر ذاته، ويظل الملجأ والسحر والبلاغة، وأظل ألهث وراء سموه؛ هو القرآن الكريم.

وفي الشعر ظللت أحب المتنبي، وأرجع إليه وأجده جديداً. وفي الأدب الغربي كتب كثيرة منها «اعترافات فتى العصر» لألفريد دي موسيه، و«صورة دوريان جراي» لأوسكار وايلد.

* وفي الفنون الأخرى؟

ـ في وقت الفراغ من الشعر، وقت الصمت، أرسم بالزيت وبالفحم.. كذلك أخيط.. بل أعتبر الطبخ فناً من الفنون الجميلة.. أحب إتقانها من قلبي.

* وماذا عن كتاباتك الأخرى غير الشعر؟

ـ عندي تمثيليات لكن لا أضع اسمي عليها، لأنها بالعامية، وأنا أبرأ من العامية، لكنها هكذا تأتي باللغة المحكية. وعندي كتابات نقدية، ودراسات لغوية وتاريخية. وعندي ديوان من الشعر الشعبي، الذي أكتبه أحياناً دون أن أقصده.

* مثل؟

ـ «ردت أسألك وبحسن نية.. بحلفك بالله ترد..
ربك بيوم صورك.. كم يوم طينك نقعه بماي الورد؟».

* أخيراً، ما مدى اطلاعك على نتاج الحركة الأدبية في منطقة الخليج؟

عندما كنت تلميذة كنت أشترى وأقرأ دواوين إبراهيم العريض، وأنا أعرف عدداً من الشعراء والأدباء الذين يشاركون معنا في المهرجانات، مثل محمد الفاذز وعبد الرزاق البصير. لكن، هناك شاعر شاب من البحرين هو علوي الهاشمي، له ديوان مما يعجبني فيه صورة «من أين يجيء الحزن إليّ وأنت معي؟»، التي تذكرني بقول المتنبي:

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام؟

* * *



13

الشاعر العربي المغربي
محمد بنيس(1)

أبرز رموز الحداثة وقصيدة النثر في المغرب

«من يسمعني الليلة أمشي؟
ومعي تمشي شهوة غيم ما زلت أرددها؟
من يدرك أن حياتي لم يعرفها أحد؟
هضبات ترسو في الجو..
أعشاب تشبه رائحة الدري..
وأصفار هشمها برد..
من يبصر خلف جدار الشهوة نعشي؟».

* هذه الكلمات للشاعر العربي من المغرب محمد بنيس، تمثل الأفق الذي وصلت إليه قصيدة الحداثة على يد شريحة من المبدعين هنا وهناك من أنحاء الوطن العربي، ومن رموزهم الشهيرة المثيرة للجدل بين المتحمسين والمنكرين الرافضين: محمد بنيس.

(1) ولد عام 1948.
أجريت هذه المقابلة أثناء مهرجان القاهرة للإبداع الشعري سنة 1996 بالقاهرة، وأذيعت كحلقة في برنامج «مهرجان الشعراء» الذي كنت أقدمه في إذاعة «صوت العرب».

* قبل الدخول بك إلى عالم الشعر، نود أن نقترب منك كإنسان، ونطل على مسيرة حياتك والتكوين الثقافي..

ـ تعلم أن مسيرة الحياة دائماً متعرجة، وبالتالي عندما ننظر إلى الحياة ونريد أن نعيد صياغتها فلا نجد إلا بعض الخطوط، ولذلك سأقول هذه الخطوط.

أنا من مواليد مدينة فاس المغربية في سنة 1948، أو هكذا قيل لي، ثم كأبناء جيلي دخلت لأتعلم القرآن، ووجدت نفسي فجأة في مدرسة ابتدائية في وقت كان الحصول فيه على الشهادة الابتدائية يعتبر نهاية العلم. ولم أكن أصدق ولا يصدق أحد أنني يمكن أن أدرس حتى الشهادة الابتدائية. ولكن يبدو أنني هكذا كنت مع غيري نصعد درج المعرفة بنوع من العفوية، وأيضاً بنوع من التشبث للانتماء إلى أماننا، بحيث أصبحنا شيئاً فشيئاً مهيئين للانتساب إلى عالم أكبر من حينا، وهذا العالم الأكبر غريب، وهناك أطفال آخرون في العالم.. لا أعرف لماذا لا نشبههم أو لماذا هم لا يشبهوننا. ومن ثم كانت مغامرة فيها من عذوبة التعلم وفيها من قساوة ما يعني أن تتعلم، وتبدأ في فهم ما تتعلمه وما تعيشه، ثم قساوة أن تطرح السؤال على ما تعيشه أو على ما تكتبه.

إذن هذه خطوط يمكن أن تكون لهيكل عظمي، ولكن ربما كانت تشير إلى هذه اللحظات التي قادتني إلى الجامعة واختيار الدراسة الأدبية والحصول على شهادات، لأنه كان لا بد أن أحصل على الشهادة، فبالنسبة لي أنا كنت واعياً بأن الشهادة هي طريق الحرية، وليست غاية في حد ذاتها. وأصبحت مدرساً للآداب، وأنا أنفر من أن أكون مدرساً أو داخل مؤسسة، رغم أن التدريس فيه أشياء إيجابية لأنه يدفعنا للتعلم. في الحقيقة في التدريس لا نعلم فقط، بل نتعلم باستمرار. وكل الأشياء الأخرى هي أشياء ربما كانت تعود لآلام الكتابة على عكس ما يتوهم من أن الكتابة كلها لذة ومتعة. نحن بالنسبة لنا الكتابة هي آلام وآلام لا حدود لها.

* من حديثك نفهم أنك ابن مدينة فاس، وهي المدينة العريقة، مدينة التراث والعلم القديم، والتي يوحي ذكرها دائماً بالارتباط الحميم بالتراث، ونفهم أن الأرضية الثقافية تراثية أو أنك صاحب جذور تراثية.

ـ نعم، كل أبناء فاس المتعلمون في سني أو قبلي كانت لهم أولاً ثقافة دينية، فالثقافة التراثية هي ثقافة دينية تعلّم القرآن، وأنا حفظت القرآن وأنا صغير، وحفظته مرات عديدة، وهذه ركيزة

أولية لتعلم اللغة العربية، وهي التي كانت من فضلها تعلم أشياء أخرى كثيرة. ولكن مع المدرسة ومع الحياة الثقافية والاجتماعية كان التفتح على الثقافة الحديثة القادمة من خارج فاس.. وهذا حدث لنا ولكل من عاش في فترتنا في فاس، مثل كل من عاشوا في صنعاء، أو ربما عاشوا في مدينة نواكشوط في موريتانيا أو في منطقة أخرى. ولكنها كانت حياة غريبة جداً، وفي كل لحظة كنا نسعى لاستيعاب هذا التراث والخروج عليه في نفس الوقت.

* إذن الرافد الثاني هو الثقافة العالمية، ولعلي أقول الثقافة الفرنسية بوجه خاص؟

ـ لا.. لم أكن منغلقاً في يوم ما على الثقافة الفرنسية بوجه خاص، لكن كنت دائماً معجباً بالثقافة الإنسانية، ولكن مترجمة إلى اللغة الفرنسية لأستطيع أن أقرأها، بمعنى: إلى جانب اهتمامي بالثقافة الفرنسية كان لي اهتمام خاص بالثقافة الألمانية التي أحبها كثيراً، والثقافة الإيطالية والإنجليزية والروسية، ثم لاحقاً الثقافة الآسيوية: الصينية واليابانية والهندية، وإلى حد ما الفارسية، وقليل من التركية. والشيء الطبيعي حضور الثقافة الأمريكية، مع عدم نسيان بعض القضايا المتعلقة بالثقافة الإفريقية.

إذن الفرنسية كانت معبراً بالنسبة لي لثقافات أخرى، ومعبراً مباشراً رغم أنه يخضع لقضايا. لكن على كل حال هذه القضايا ليست هي قضايا الثقافة العربية التي لا تترجم إلا بعد فترات طويلة من ظهور الأعمال، أو عدم ترجمة أشياء، لأنه للأسف الشديد لا يمكن من خلال اللغة العربية وحدها أن نكون حديثين على الإطلاق.

* حسن، بدأت همَّ أو ألم معاناة الكتابة كما تصفها.. هل تذكر البدايات، وجذور التجديد إلى آفاق أوسع وأعلى وأبعد مما توارثناه أو توارثه جيلك؟

ـ يمكن أن أشير في هذا الصدد إلى أن علاقتي بالكتابة وبالشعر غريبة جداً. فأنا لم يكن يخطر في بالي على الإطلاق في لحظة أنني يمكن أن أكتب، لأنني كنت مهووساً بالرياضيات، فاختصاصي الأول كان هو الرياضيات، ولكن حدث أنني أحب الفنون منذ صباي.. يعني هكذا بطريقة عفوية من دون أن يعلمني أي شخص، لا في البيت ولا خارج البيت. لكن كان لي علاقة خاصة بالأشياء والأشكال والأنغام.. يعني كنت أطالع كثيراً، ولكن كل هذا لم يكن يجعلني أو يجعل مني شخصاً سوف يكتب في يوم ما، إلا أن أشياء في داخلي وقعت، وأيضاً بلقائي بأساتذة

لم يحرضوني على أي شيء، ولكن وجدت نفسي ذات يوم تبحث عن يدي لتكتب، وهكذا عثرت على يد تكتب.

* الكتابات الأولى لك.. ما نوعها ولونها؟

ـ قصائد شعرية.. وهي قصائد متصلة بالموت.

* في سن الصبا تكتب للموت؟

ـ ربما أول قصيدة كتبتها عن الموت، وربما إذا قرأت جميع أعمالي فستجد ربما الموت هو العنصر الأساسي الحاضر في الكتابة.

* هو على كل حال الحقيقة الكبرى في حياة الإنسان، وإن غفل عنها كثيراً.. لكن أنت لم تغفل؟

ـ بالنسبة لي أنا أعتبر أنني لم أخترع هذا الموضوع.. الموت.. ولكن عشته شخصياً، وأعتبر أن كل حياتي هي مواجهة للموت بأشكال متعددة ولا نهائية، سواء بالنسبة لشخصي كإنسان أو كعضو في مجتمع أو كعنصر ثقافي.

* دون الإغراق في التفاصيل، هل هناك أحداث معينة أحضرت الموت هذا الحضور الطاغي في حياتك؟

ـ طبعاً هذا شيء مهم شخصي جداً.. أكتب عنه، ولكن لا أتكلم عنه على الإطلاق.

* من حيث الشكل، البدايات الأولى، ماذا عن الوزن الموسيقي فيها، وماذا عن التجديد؟

ـ نعم.. قصائدي الشعرية كانت موزونة ولكن بطريقة الشعر الحر.. بالتفعيلة. في سنة 1965 بدأت أكتب، وكان كتاب نازك الملائكة قد وصل إلى المغرب، وكان هناك صديق يفهم في قضايا العروض، وكنت أتعلم في الحقيقة أن أفرق بين الكتابة والتعلم التقني. ولذا كنت أحاول أن أتعلم، وكنت أحس أن بداخلي قصيدة تبحث عن نفسها، وهي إلى الآن ما زالت تبحث عن نفسها.

* دعنا نطل على رحلة البحث عن القصيدة من خلال عمل من أعمالك..

ـ نعم.. أقرأ لك مقطعاً من قصيدة كتبت في السنوات الأخيرة بعنوان «صحراء على حافة الضوء».. أقول:

«رمل وموسيقى..
تآخينا.. إذن شأشوه الصور السريعة..
كيف أرسم فيك أزمنتي؟
مكان للرحيل ولك..
سديم سيد يتقاسمه الفلك..
صمت لأشياعي هنا أهلي،
تدور كؤوسهم خمراً مشعشعة..
هنا ليل..
مساء الخير يا امرأة أجردها،
وأنفخ بين يديها طيوباً
لي ترائبها، ولي منها هتاف الخيزران..
فجر هي الصحراء،
أصابت زرقة جسدي..
سيأخذني سواي إلى هناك..
زمن بغيض على حدود آلهتك..
وهذا الفتك،
منازل ريبة وسعت عناك..
لغة مؤججة بأحوالي،
سكبت الغيم أول لمعة..
ها أنت أقوى.. يلامسك الخفى
رمل وموسيقى..
دنت مني طرائد شهوة تلك الغزالة..
لفحة لم يكتمل تكوينها..
شبح يخيم..».

* حسن.. هذا النص وكل شعر الشاعر العربي من المغرب محمد بنيس يثير سؤالاً مهماً عن مكان التواصل مع القارئ في أنحاء الوطن العربي. هل تضع في حسابك أو تحرص على أن تصل كلمتك إلى هذا القارئ، أم أنك تقول نفسك.. كلمتك، أما مهمة التواصل فهذه هم الآخرين؟

ـ لا أعتقد أن شاعراً أو كاتباً عندما يكتب لا يستحضر قارئاً معيناً في ذهنه، ولكن هذا القارئ يمكن أن يكون متخيلاً.. يمكن أن يوجد في مكان ويمكن ألا يوجد. بمعنى آخر، هذا القارئ لا بد فيه أن تحترم قواعد اللغة العربية، ولا بد أن تحترم فيه سلامة البناء، ولا بد أن تحترم فيه جدية المسؤولية الشعرية. فأنا عندما أكتب أعتبر نفسي مسؤولاً عن إرث تاريخي هو اللغة العربية وعاء الشعر العربي، من دون أن تجعل هذه المسؤولية مني أكثر مما هو أنا، فقط لأن اللغة العربية والثقافة العربية توجد عبر كتّابها وشعرائها، وهم ينقلون هذا الإرث من زمن إلى زمن. ولذلك فإن الشعر بالنسبة لي هو وديعة، ولا بد أن أحافظ على هذه الوديعة ولا أعبث بها، فأنا في أقصى تعاملي مع الوديعة أكون أكثر إخلاصاً لهذه الوديعة، حتى تظل جمرة حية تنطق باللانهائي في اللغة وفي الإنسان وفي الوجود.. ربما لا أفعل شيئاً مما أتخيله، ولكن هكذا أعتقد، وبالتالي فإن علاقتي بالقارئ هي علاقة إيمان بأن هناك قارئاً يبحث عما أبحث عنه أنا أيضاً، ولا أكتب لأي قارئ..

* كأنك في الواقع تتحدث لا عن أي قارئ فحسب، وإنما عن أي كاتب أيضاً، فهذه الشروط الحكيمة في رأيي لمن يتصدى لألم ومعاناة الكتابة، ورسالة الكتابة، وأمانة الكتابة كما عبرت، عليه أيضاً أن يكون أميناً على اللغة أميناً على إحكام البناء، أميناً على المعنى.. الرسالة الكبيرة الجدية كما وصفتها في تقديم رسالته.. وليتنا نختم لقاءنا بمقطوعة من شعرك..

ـ إذن فليكن نصاً من «كتاب الحب»، لأن الإنسان بالنسبة لي لا يمكن أن يوجد كإنسان إلا عندما يمتلك قيمة الحب:

«قربني منك أيها الوصل..
وانشر قمرك على بابي..
ضوء يغطيني، وضوء تتسابق فيه أعضائي..
وضوء لضربة الفجر..

وضوء بين اختلاجتين..
وضوء لوعد لا يشيخ..
وضوء أنت هنا.. أنت هنا..
وضوء لفرح منك سافر في دمي،
وانصرف غير ملتفت..
وضوء فلا نأي ولا دنو بعدي».

حدثني ثقة من إخواني عشق في صباه جارية كان ممنوعاً منها، فهام بها.. قال لي:

تنزهنا يوماً إلى ضيعة لنا بالسهلة غربي قرطبة مع أحد أعمامي.. فتمشينا في البساتين، وأبعدنا عن المنازل.. وانبسطنا على الأنهار.. إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث.. فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي..

قال لي: فأمر عني ببعض الأغطية فألقى عليّ وأمرها بالاختباء معي..

قال لي: فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبداً.. وكانت أعضاؤه كلها ضاحكة

***



14

الأديب والمفكر العربي البحريني
الدكتور محمد جابر الأنصاري[1]

رائد الدراسات الأدبية والمستقبلية في البحرين

هو.. في الصف الأول من رموز الفكر والثقافة العربية في البحرين وفي منطقة الخليج، والوطن العربي كله..

منذ البكور، كان هاجسه الكلمة.. أدباً وفكراً.. قيمة ورسالة. وفي محرابها قدم عطاء سخياً وقيماً، في خدمة الأدب العربي في البحرين والخليج، وفي خدمة الفكر القومي، والدراسات المستقبلية العربية، وكان كل عطائه متميزاً بالجدة، والإبداع..

والحق أن محبته وتقدير عطائه كانا يدفعانني دائماً للسعي إلى الحوار معه، كلؤلؤة متألقة من لآلئ الخليج.. لكن ازدحام وقته بالبحث والكتابة في الصحف العربية ومسؤوليات عمله الجامعي.. وكتبه.. كانت دائماً تؤجل اللقاء.. حتى تم مؤخراً.. في بيته الأنيق الذي يمكن أن نعتبره مكتبة على هوامشها بيت..

وكانت حرارة تحمسه في الحديث، وعرض فكره وآرائه.. مظهراً آخر من مظاهر إيمانه وإخلاص حياته كلها.. للكلمة.. أدباً وفكراً..

* عطاؤك الثقافي السخي يحظى بالتقدير والتكريم والجوائز، وفي مقدمتها وسام التكريم

(1) ولد عام 1939.

من قمة مجلس التعاون العاشرة في مسقط سنة 1989.. ما شعورك إزاء هذا التكريم؟

ـ هذا مصدر اعتزاز لي، وأعتبره تقييماً لما أبذله من جهد فكري في خدمة ثقافة المنطقة والثقافة العربية.

وأولى شهادات التقدير كانت لكتابي «تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي» الذي أصدره المجلس الوطني للثقافة في دولة الكويت الشقيقة، في سلسلة «عالم المعرفة» عام 1981.. وقد نال شهادة جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، كأحسن كتاب في مجال الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، في معرض الكتاب العربي بالكويت عام 1982..

هناك أيضاً، وكنتيجة لعملي ضمن لجنة وضع الخطة الشاملة للثقافة العربية، بإشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «الإلكسو»، نلت الميدالية الذهبية للمنظمة.. ثم شرفت بالحصول على جائزة الدولة التقديرية في البحرين العام 1989 بقرار من سمو رئيس الوزراء..

* هذه الجائزة جديدة.. أنشئت حديثاً.. وأنت ثاني شخصية تحصل عليها..

ـ نعم.. أنا في تاريخ البحرين الثاني بعد أستاذي إبراهيم العريض، في الحصول على جائزة الدولة التقديرية للإنتاج الفكري، وهي أرفع تقدير من الدولة في البحرين، والواقع أن هذه الجائزة كان لها أثر كبير في نفسي، لأنها الجائزة التي جاءت من بلدي، وجاءت تقديراً لهذا الجهد الذي بذلته في سبيل هذا البلد، وفي سبيل الخليج والثقافة العربية.. ولذلك تمثل عندي مصدر اعتزاز كبير..

ثم جاء تكريم قادة مجلس التعاون في نهاية العام 1989، وبترشيح من سمو رئيس وزراء البحرين أيضاً، حيث تسلمت مع إخواني المكرمين العشرة من البحرين، الوسام من جلالة السلطان قابوس في مسقط.

* ما شعورك إزاء هذه الأوسمة على صدرك، وأنت في مقتبل العمر؟

ـ الشعور الذي لا يزايلني، أن هذه الأوسمة وشهادات التقدير، كنت أتوقعها في مرحلة متأخرة من العمر، وأقول لنفسي: إن الوقت لا يزال مبكراً، وأتمنى أن أعطي أكثر حتى أستحق هذه الجوائز والأوسمة.. وأشعر الآن بأن مسؤولية قد وضعت على عاتقي، وأن عليّ أن أقدم أكثر لأكون في مستوى هذا التقدير..

* هذا في الواقع هو المعنى الحقيقي للتكريم.. فهو تقدير لعطاء سابق، وحفز لعطاء مقبل إن شاء الله.. وليتك الآن تحدثنا عن عطائك السابق الذي هو حصاد أكثر من 25 عاماً من الجهد الدؤوب..

ـ بدأت نتاجي الفكري والأدبي بالكتابة عن النتاج الأدبي الجديد في البحرين. وأنا في الواقع كنت على موعد مع ما يسمى تاريخياً بنشوء الحركة الأدبية الجديدة في البحرين.. ثم حصلت على الماجستير في الأدب العربي من الجامعة الأمريكية في بيروت العام 1966..

* ماذا كان موضوع الرسالة؟

ـ كان عن الأدب الأندلسي.. بإشراف أستاذي الدكتور إحسان عباس، المختص المعروف بشؤون الأدب الأندلسي والأدب العربي بصفة عامة.. وقد درست الرحالة والجغرافي ابن سعيد المغربي، الذي ظهر في القرن السابع الهجري في أواخر العصر الأندلسي.. وكان من ميزاته أنه من المثقفين العرب ومن العلماء العرب الذين عملوا على التواصل بين المشرق والمغرب.

* يعني.. القضية التي تشغل جانباً من اهتمامك في عصرنا؟

ـ نعم.. أنا أهتم كثيراً بموضوع العلاقات الثقافية بين المشرق والمغرب، وقد صدر لي فيها كتاب، وكانت موضوع حوار واسع بيني وبين بعض الكتاب العرب والمفكرين..

* نعود إلى البداية واهتمامك بالحركة الأدبية الجديدة في البحرين..

ـ بعد الماجستير، جئت إلى البحرين، وكانت الحركة الأدبية الجديدة في بواكيرها، وكان النتاج الأدبي الجديد يظهر في صحف الحائط بالأندية. كان قاسم حداد يكتب قصائده في صحف الحائط بالأندية، وكذلك علي عبد الله خليفة، وعلوي الهاشمي. ومحمد الماجدي ـ رحمه الله ـ كان ينشر قصصه الأولى فيها، ومثله محمد عبد الملك، وخلف أحمد خلف.. وغيرهم..

كانت فرصة أن آتي، وهذه البواكير والبذور في بداياتها.. فرحت أتتبعها.. وكان المرحوم محمود المردي ـ الصحافي البحريني المعروف ـ قد بدأ إصدار صحيفة «الأضواء» سنة 1965، فبدأت أكتب صفحة أسبوعية فيها، عن النتاج الأدبي الجديد..

ثم تبلور هذا النشاط وهذه الاتجاهات في تأسيس أسرة الأدباء والكتاب في البحرين..

* أنت كنت أول رئيس لهذه الأسرة؟

ـ نعم.. شرفني الإخوان بأن أكون أول رئيس لها، عام 1969، وقد احتفلنا عام 1989 بمرور عشرين عاماً على تأسيسها..

* أظن من حصاد تلك الفترة كتابك القيّم والرائد «لمحات من الخليج العربي»..

ـ هذا صحيح.. وهو كتاب يجمع بين أسلوب البحث العلمي والمقالة الصحافية، وهذه النزعة تتملكني باستمرار في كتاباتي. فأنا وإن كنت أكاديمياً، فإنني لست بالأكاديمي الجاف الذي يريد أن يبقى في الأبراج العاجية. ورأيي دائماً أنه حين نعمل بحثاً أكاديمياً، يجب أن نفكر أيضاً في الجمهور والقارئ العادي، ونبسط الأفكار والمعلومات العلمية، حتى تصل إليه. وأعتقد أن هذا جزء من رسالة الجامعة.

مقالات كتابي «لمحات من الخليج العربي» تجمع بين هاتين الناحيتين، وكان بودي أن يمكنني الزمن من تطوير البذور والبدايات التي تناولتها في الكتاب بأبحاث مستقلة ومستمرة، ولكن جاءت اهتمامات فكرية أخرى على صعيد الفكر العربي المعاصر بصفة عامة، فلم أتمكن من ذلك.

لقد طرحت في هذا الكتاب مجموعة من التوجهات والعناوين الرئيسة حول أدب المنطقة وتراثها. وكان من حسن الحظ أنني في فترة تالية عدت للكتابة عن هذا الأدب في مجلات ثقافية عربية مثل «العربي» و«الدوحة»، وكان ذلك في منتصف السبعينيات. فالفترة الأولى كانت من سنة 1965 إلى 1970، وتركز الاهتمام فيها على أدب البحرين مع إطلالة على القضايا الثقافية في تراث الخليج. والفترة الثانية كانت من 1975، وكان الاهتمام فيها على الصعيد الخليجي العام والجزيرة العربية، واستمرت حتى 1983، وتناولت فيها مجموعة من قضايا الأدب في المنطقة، فعدت إلى دراسة طرفة بن العبد كمعبر عن الشعر والأدب في منطقة شرق الجزيرة العربية. وكتبت عن ابن ماجد البحارة الجغرافي. وكتبت عن ابن المقرب العيوني الذي يعتبر متنبي الخليج العربي في العصور الإسلامية. وكان ذا نزعة عربية قومية واضحة في ذلك الوقت..

* أعتقد أن حصيلة هذه المقالات تملأ ملفاً ضخماً ينتظر النشر في كتاب أو مجلد..

ـ هذا ما أتمنى أن يتوافر لي شيء من التفرغ العلمي، حتى أتمكن من إصداره، وهو فعلاً

موجود عندي في المكتبة، ويحتاج إلى لمسات نهائية، حتى أقدم مرجعاً شاملاً في أدب المنطقة وتراثها، يمثل كتاباتي خلال الخمس والعشرين سنة الأخيرة.

* بعد هذه المرحلة، أخذك الفكر العربي إلى آفاق أوسع، وقضايا أشمل، وتجلى ذلك في كتب كثيرة ونشاط واسع. حدثنا عن عطائك هذا..

ـ أولا كنقطة انتقال بين المجالين أحب أن أشير إلى أن اهتمامي بأدب وثقافة منطقة الخليج لم يكن من باب الاهتمام الإقليمي، وإنما يأتي من واقع بسيط، وهو أن الأدب العربي في منطقة الخليج لم يحظ بالاهتمام الكافي. ففي عهد الاستعمار البريطاني كان هنا نوع من العزلة، وكانت التأثيرات العربية تقاوم. كذلك كان إخواننا العرب في تلك الظروف مهتمين بقضاياهم الخاصة. وكانت منطقة الخليج من الأطراف العربية النائية عن القلب العربي ومراكز الفكر العربي في مصر ولبنان. فحدث نوع من الإهمال غير المقصود لأدب المنطقة. ومن هنا كان اهتمامي وقصدي هو تذكير الوعي العربي وتنبيهه ـ في الوطن العربي ـ إلى أن هنا رافداً من روافد ثقافتكم في منطقة الخليج، فنرجو أن تنتبهوا له، وتعتنوا به، وتشجعوه أيضاً. وهذه نقطة مهمة جداً، وأنا شخصياً في أبحاثي في أدب منطقة الخليج العربي لا أتحدث عن أدب خليجي منفصل عن الأدب العربي إطلاقاً، وإنما أنا ضد هذه النزعة الأخرى التي تحاول أن تجزئ منطقة الخليج العربي نفسها بالحديث عن فولكلور كويتي قائم بذاته، أو أدب بحريني قائم بذاته.

أعتقد أن مثل هذه النزعة لن تفيد دراساتنا الخليجية بالذات، ولن تفيد ارتباطنا بالبلاد العربية، لأنه ربما في محاولات الاقتصاد والتنسيق الإقليمي أمكن أن نلجأ إلى نوع من التعاون الإقليمي، لكن في المجال الثقافي وفي المجال الأدبي، فإن أي نوع من النزعة الإقليمية أو التكتل الإقليمي يقتل النزعة الثقافية الحقيقية، ويقتل التفاعل الحقيقي.

* فضلاً عن أنه يجافي الحقيقة، ويسبح ضد تيارها..

ـ يجافي الحقيقة باعتبار أن الثقافة العربية في الخليج هي الثقافة العربية في الخليج، وليست ثقافة خليجية أو محلية صرفة. والعالم الآن يتفاعل كله.. الكتل العالمية تتفاعل ثقافاتها وروافدها ومتغيراتها.. فيجب ألا نعكس التيار أونسبح ضد التيار، بتغذية هذه الظواهر المحلية جداً التي هي روافد وغنى للثقافة العربية.. فلنأخذها كتنويعات وروافد تصب في النهر.. لا

كأشياء مستقلة منفصل بعضها عن بعض، أو مضاد بعضها لبعض..

هذا ينطبق على الاهتمام بالفولكلور المحلي.. والطرب المحلي.. بالشعر النبطي.. والأشعار العامية مثلاً.. هذه نقبلها كتنويعات على لحن الثقافة العربية الواحد، وليس كعزف منفرد..

* واضح من تشبيهاتك أنك لا تجافي فن الموسيقى.. وأن بينك وبينه مودة..

ـ من اهتماماتي بالدراسات الأندلسية، أحب الموشحات الأندلسية، يعني الموشح الأندلسي الشهير:

جادك الغيث إذا الغيث هما　　　يا زمان الوصل بالأندلسِ

لم يكن وصلك إلا حلما　　　في الكرى أو خلسة المختلسِ

يلخص الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس.. يحمل من الشحنات ومن الإيماءات ما يلخص تلك القصة الحضارية كلها.. خاصة إذا غنته فيروز.. فأنا أعتقد أن من شاء أن يتعرف على النطق العربي في صفاته ومثالياته فليستمع إلى نطق فيروز للغة العربية.. يعني نحن الآن في الوطن العربي نجد كل شعب من الشعوب العربية يلفظ اللغة العربية متأثراً بلهجته المحلية.. مثلما تلاحظ الآن في حديثي بالفصحى تأثيراً من لهجة بحرينية، أو لهجة مصرية.. لكن فيروز حين تلفظ النطق العربي، فإني أقول لنفسي: هذا هو صفاء اللفظ العربي كما يجب أن يكون..

* حسنا.. نعود إلى حصاد عطائك من كتب ونشاط ثقافي.. في هذه المرحلة المعاصرة..

ـ الاهتمام بموضوع الفكر العربي المعاصر كان متأصلاً عندي من البداية بطبيعة الحال، وأنا من حيث طبيعة اهتمامي الثقافي ينطبق عليّ تعبير باللغة الإنجليزية، يصف نوعاً من المثقفين، ترجمته: «دارس للشؤون الإنسانية».. فأنا رغم تخصصي الجامعي، لا أحب التخصص الضيق في موضوع واحد من المواضيع، حيث أشعر كأنني دخلت في قفص. ومن بداية دراستي الجامعية واجهت حيرة حول الموضوع الذي أتخصص فيه.. فأنا أحب الأدب.. وأحب الفلسفة.. وأحب العلوم السياسية.. والعلوم الاجتماعية.. وأحب التاريخ. فوجدت نفسي في حيرة.. ماذا أختار؟

وكان من حسن الحظ أن نظام الدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت يسمح بمواد اختيارية.. الأمر الذي أعطاني المجال لاختيار تخصص الأدب العربي، مع دراسة كثير من

المواد الفلسفية والاجتماعية والتاريخية.. فدرستها ودرست حتى الاقتصاد.. ولا يزال هذا الاتجاه يرافقني إلى الآن، ويضغط عليّ أحياناً..

من هذا المنطلق بدأت دراستي للفكر العربي، ورجعت إلى التجربة العربية منذ بداية عصر النهضة، وأيضاً في ضوء التجربة التاريخية الطويلة للأمة العربية في عصور الإسلام، وذلك لاستخلاص المميزات الخاصة، والقوانين الخاصة بالمنطقة العربية التي تؤثر على تطورها، لأن ما أراه يحدث في أوساط المثقفين العرب، أن العام تغلب على الخاص لديهم.. بمعنى أنهم اطلعوا على القوانين العامة في الثقافات الأخرى، فأخذوا القوانين العامة للتطور القومي والاقتصادي في النظرية الرأسمالية، أو في النظرية الماركسية، وأغفلوا الخصوصية العربية.. وعندما أقول الخصوصية العربية فأنا لا أعني تميز الأمة العربية عن غيرها من الأمم، ولا أعني أي نوع من التمييز العنصري.. لكن أقصد تحديداً أن هناك قوانين تاريخية واجتماعية وسياسية معينة، تفعل فعلاً خاصاً في المنطقة العربية، يختلف عن الفعل الخاص لها في المجتمعات الأخرى. ونحن درسنا الكثير عن المجتمعات الأخرى، وعرفنا الكثير عنها، ولكن لم نتبين هذه الخصوصية العربية. فكان همي هو البحث عن هذه الخصوصية..

* فماذا كانت نتيجة بحثك؟ وإلى ماذا توصلت؟

ـ توصلت إلى النظرية التوفيقية لدراسة الفكر العربي، وهي التي اعتمدتها في دراستي في أطروحتي لدراسة الفكر العربي المعاصر..

* هل نلخص تبسيطاً لهذه النظرية التوفيقية؟

ـ النظرية التوفيقية أساسها محاولة الجمع بين نظامين مختلفين في الفكر والحياة، واستبعاد النقائض بينهما، والتوصل إلى الصيغ المشتركة..

هذه النزعة وجدت أنها متأصلة في المنطقة العربية الإسلامية، لأنها منطقة تقع في وسط العالم. والتوفيقية تعني ضمناً الوسطية بين النقائض.. تعني الاعتدال بين النقيضين أو بين الضدين.. فنلاحظ أن المنطقة العربية تقع في وسط العالم.. والأجانب سموها الشرق الأوسط.. وفي ذلك إشارة إلى الوسطية. وفي التاريخ القديم، كانت المنطقة العربية هي المنطقة الوحيدة التي جمعت بين المؤثرات الفارسية والهندية من ناحية.. والمؤثرات الإغريقية والرومانية من

ناحية أخرى.. يعني، عندما نتكلم عن لقاء الشرق والغرب، فهذه ليست ظاهرة معاصرة.. فهذا اللقاء أو التوفيقية بين الشرق والغرب في المنطقة العربية، ميزة تاريخية قديمة، بدأت بذورها قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام والحضارة الإسلامية فأكدا هذه الخاصية. والإسلام كما نعرف مثل الطريق الوسط بين الشريعة الموسوية، والمثالية الأخلاقية المسيحية، أي جمع بين البعدين: الواقعي القانوني التشريعي، والبعد الإيماني القيمي الأخلاقي.. فجاء جامعاً، لأنه ختام الرسالات السماوية، وجاء وسطاً بين الرسالات السماوية السابقة..

الحضارة الإسلامية نفسها ـ كما يقول المؤرخون الأجانب ـ هي أول حضارة في تاريخ العالم تجمع بين المؤثرات الأوروبية الغربية، متمثلة في التراث الإغريقي الروماني، والمؤثرات الشرقية، متمثلة في المؤثرات الفارسية والهندية والصينية. فإذن الحضارة الإسلامية ككل هي حضارة توفيقية..

* هل هذه النزعة التوفيقية استمرت في العصر الحديث؟

ـ بالضبط.. فقط انتقلت إلى فكرنا المعاصر، وهذا شيء طبيعي، لأن الأمم تعود إلى جذورها.. ظواهرنا لا يمكن تفسيرها بالمنظور الليبرالي أو الماركسي.. وإنما ينبغي أن نعثر على التفسير في التراث العربي نفسه. وهنا نجد أن التوفيقية تمثلت في الفكر الإسلامي القديم نفسه عند المعتزلة مثلاً، فهي فرقة إسلامية حاولت التوفيق بين العقل والإيمان.. بين الشريعة والحكمة. ونلاحظ أن الشيخ محمد عبده عندما بدأ نهضة الفكر الإسلامي الحديث عاد إلى توفيقية المعتزلة.. وتوفيقية ابن رشد. وأكد مسألة التوفيق بين العقل والإيمان. واستمرت هذه النزعة في الفكر العربي المعاصر..

الفكر العربي المعاصر طبعاً أخذ عناوين أيديولوجية مختلفة عن الفكر القديم، لكننا لو حللنا مضمونه، لوجدناه توفيقياً، برغم أسمائه الخارجية السياسية الحديثة..

خذ مثلاً مصطلح «التعادلية» عند توفيق الحكيم.. ما هي؟ هي التوفيقية العربية الإسلامية.. هي التوازن بين القوى. وهناك مفكر عربي مسيحي هو أنطون سعادة، استخدم مصطلح «المادروحية».. أي بين المادية والروحية. فالتوفيقية فاعلة في الفكر العربي بمختلف تياراته. لا بد من إزالة القشور والظواهر، لكي نصل إلى أساس هذه التوفيقية في الباطن..

* هل نجد هذا في الفكر السياسي؟

ـ حتى في الفكر السياسي نجد التوفيقية قائمة. مثلاً: التوازن بين الشرق والغرب.. مبدأ عدم الانحياز ـ مثلاً ـ هو نوع من التوفيقية بين القوتين. الآن طبعاً تغير الحال.. ولا أدري هل نحن في عصر القوة الواحدة، أم في عصر تعدد القوى، ولا أدري كيف ستعمل التوفيقية العربية أمام هذه الظروف.. لكنها تحاول باستمرار أن تقيم التوازن بين النقائض..

* إلى أي مدى تنجح في تحقيق هذا التوازن وهذه التوفيقية؟

ـ الواقع أن الحياة العربية ما تزال تنطوي على عدد من الأضداد ومن النقائض التي لم يحسم الأمر فيما بينها بعد.. وأنا أسمي هذه الظاهرة في التحليل النهائي «أيديولوجية اللاحسم» في الحياة العربية المعاصرة.. وربما كان ذلك بعداً من أبعاد التوفيقية..

وهناك ملاحظة أخرى، هي أن التوفيق أحياناً قد يغدو تلفيقاً، وهنا تكون الخطورة.. فالتوفيقية حينما تكون توفيقاً مخلصاً، بين عناصر من الممكن الجمع بينها، وخلق شيء جديد وأصيل، كالحضارة العربية الإسلامية، وكالفكر المعتزلي في الماضي، وفكر محمد عبده.. فهذا شيء فيه أصالة..

لكن أحياناً، وبسبب هذه النزعة في الحياة العربية بصفة عامة، نجد عند بعض المفكرين العرب نوعاً من التسرع في إلباس الأشكال التوفيقية لمختلف المظاهر..

* ننتقل إلى محور آخر من محاور اهتمامك.. وأعني قضية التواصل الثقافي بين كل الأقطار العربية..

ـ في الواقع أنا شديد الإيمان على الصعيد الثقافي بالذات، بضرورة وجود منابر ثقافية عربية مشتركة، لأن هناك خطراً كبيراً على الثقافة العربية، أن تتحول إلى قنوات إقليمية ومحلية ضيقة، في غيبة هذه المنابر.. لقد كان لدينا في الخمسينيات والستينيات منابر عربية كثيرة.. في الإذاعة.. وفي المجلات.. تعبر الحدود العربية. لكن في السبعينيات حدث نوع من الانحسار لهذا التواصل، وهذا خطر كبير، لأنه إذا تجزأنا ثقافياً وفكرياً فإن التجزيئات الأخرى ستترسخ، فدائماً يظل التواصل الفكري هو الأساس..

هنا لا بد من الإشارة إلى أنه في فترة الثلاثينيات والأربعينيات كان هناك تواصل ثقافي أفضل

من الواقع الحالي بين مصر والوطن العربي.. فمثلاً مجلة «الرسالة» لأحمد حسن الزيات، رغم تواضع وسائل المواصلات بين البلاد العربية في ذلك الوقت، خلقت مدرسة ثقافية عربية مشتركة بين مصر والمغرب والمشرق العربي، وكانت تصل حتى الخليج.. وكان هناك انتظار أسبوعي في أوساط المثقفين العرب لصدورها، فكان هناك نوع من الوعي المشترك.

الآن نحن في عصر تقدم المواصلات، ونحتاج للتواصل. وأنا أعتقد بأنه من المهم جداً أن تنشأ من جديد مجلة ثقافية أسبوعية عربية مشتركة، توزع في كل أنحاء الوطن العربي، وأعتقد أن مصر مرشحة للقيام بهذا الدور، للعودة إلى الرسالة الجديدة، وأن يظهر لدينا أحمد حسن زيات جديد، ليقوم بهذا الدور.

* وطبعاً هذه الأفكار تشمل الوسائل الأخرى للتواصل.. من تواصل شخصي، ومؤتمرات، وتبادل الكتب وغيرها؟

ـ نعم.. وأنا ألاحظ بمزيد من السرور، أن مصر بالذات عادت إلى إنشاء هذه المنابر العربية المشتركة، وهي مؤهلة بحكم موقعها ودورها للقيام بذلك.. فمثلاً معرض الكتاب في القاهرة صار منبراً مشتركاً.. والجنادرية في السعودية مثلاً منبر ثقافي آخر.. ومهرجان أصيلة في المغرب.. كل هذه المنابر جيدة.. وأهم شيء فيها هو تعميق اللقاء المشترك.

* في هذا المجال نذكر كتابك عن التواصل بين المشرق العربي والمغرب العربي.. الذي دار حوله حوار واسع.. حدثنا عن هذه القضية..

ـ عنوان الكتاب «الحساسية المغربية والثقافة المشرقية.. أزمة تفاعل أم أزمة تواصل؟» أو بالأحرى أزمة تجاهل أم أزمة تواصل، لأن الإخوة في المغرب يتصورون أن هناك تجاهلاً للثقافة المغربية في أوساط المشرق العربي، وأن المشارقة يهتمون بأدبهم، ويكتبون عن أنفسهم وعن الثقافات العالمية، ويجهلون ما يدور في المغرب العربي.. بينما الإخوان المغاربة يهتمون ـ كما يقولون ـ بكل التفاصيل التي تأتي من المشرق.

أنا في تصوري أن المسألة ليست بهذا الشكل من المواجهة بين المشرق والمغرب، وإنما هناك ظروف أخرى.. وأنا وضعت عنواناً جانبياً للكتاب هو «الأزمة من وجهة نظر خلجية».. فأنا أرى أيضاً أن منطقة الجزيرة العربية والخليج، تعرضت لإهمال مشرقي، وهي أصلاً من

المشرق بل هي أساس المشرق..

لقد ظلت طويلاً في الظل.. فمثلاً: من كتب عن اليمن في الخمسينيات والأربعينيات؟ من كتب عن عمان مشرقاً ومغرباً؟ المسألة أننا في الوطن العربي ـ بحكم عوامل التجزئة وعدم التواصل، وبحكم القانون الذي ساد التطور الحضاري ـ كانت مصر ولبنان هما المركزين الرئيسين للإشعاع الثقافي، وكان يحيط بهما نوع من الريف الثقافي العربي.. أي عاصمتان للثقافة في بيروت والقاهرة، وحولهما ريف.. ومن يرد أن يصل إلى الضوء فعليه أن يغادر الريف، ويأتي إلى إحدى العاصمتين.

* ومن غادر وأتى.. حظي بالأضواء بالفعل؟

ـ بالضبط.. فنزار قباني عندما جاء إلى بيروت أحاطت به الأضواء.. وعلي أحمد باكثير عندما ترك حضرموت وجاء إلى القاهرة صار الأديب العربي المعروف.. لكن.. ربما كان هناك من هو في مستواه، وظل في الجنوب، فلم نعرف عنه شيئاً.. وإبراهيم العريض مثلاً لو كان قد ذهب إلى القاهرة أو لبنان، لربما نال أضواء أكثر.. وأعتقد أنه كان سينال أكثر، بما له من إبداع وإنتاج وعطاء.

نحن نتمنى أن نزيل هذ الحواجز بين الريف والعاصمة، ونريد مزيداً من التفاعل.. ولعلي قد استطعت أن أقلل من حدة العقدة المشرقية المغربية، بالقول لإخواننا المغاربة: إن المسألة ليست تحيزاً مشرقياً، أو ما يسمونه «مركب علو». وقد لاحظت أن كثيراً من المثقفين المغاربة الكبار متأثرون بهذه النزعة، ويرجعونها أحيانًا إلى كتابات مشرقية قديمة في التراث العربي الإسلامي.. ولقد أحببنا أن نخفف من هذا الشعور.. بتحليل المسألة..

* تبقى القضية التي تحظي بأوسع الاهتمام في عصرنا، وهي قضية الدراسات المستقبلية، وقد أدليت فيها، وأثبتت الأيام صدق رؤيتك واستنتاجاتك.. كما في كتابك «العرب والعالم سنة 2000»..

ـ في الواقع اهتمامي بالدراسات المستقبلية جاء من اهتمامي بالفكر العربي في أطروحتي للدكتوراه والدراسات المتفرعة منها..

إن المنطقة العربية واقعة في قلب العالم، والمتغيرات الدولية والعوامل الخارجية تؤثر فيها باستمرار.. وربما أمكن القول بأن تأخر تحقيق الوحدة العربية إلى اليوم ـ في جانب منه ـ يعود

إلى العوامل الدولية.. أعني.. لو أن الأمة العربية كانت في موقع اليابان أو الصين، في طرف من أطراف العالم، فربما كانت تتم وحدتها أسرع..

من هذه الزاوية بدأت أهتم بتأثير العوامل الخارجية.. الدولية.. في الداخل العربي. ومنذ بداية السبعينات بدأت أدرس الظواهر العالمية المختلفة، ولدي مقال يعود تاريخه إلى العام 1972، نشر في مجلة «الحوادث» اللبنانية بعنوان «شيء ما جديد وغامض يولد في عصرنا».. وهذا المقال موجود في كتابي «العرب والعالم سنة 2000» وفيه تركيز على أنماط الفكر القديمة والأوضاع السياسية والاجتماعية الناشئة عنها.. وكيف بدأت تظهر فيها نزعة إلى التغيير، وحاجة إلى رؤية جديدة، وتجديد للشباب. ومن الأمور التي لم تكن واضحة آنذاك في التفكير العام عودة النزعة الإيمانية في العالم..

يعني.. في هذا المقال ركزت على أنه حتى الحضارة المادية الغربية، بحاجة إلى انبعاث إيماني، وتجديد إيماني.. ودرست بعض المفكرين المؤمنين في الغرب، الذين يحذرون الحضارة الغربية من ماديتها المفرطة، ويدعون إلى العودة إلى الإيمان، ليس بالضرورة بالأشكال التقلدية القديمة، وإنما المهم هو العودة إلى جوهر الإيمان وقيمته الأساسية..

* وفي مجال القوى السياسية العالمية.. كيف كانت رؤيتك المستقبلية؟

ـ درست الظاهرة الآسيوية.. اليابان والمحيط الآسيوي بها، والصين بالدرجة الأولى.. لأن التكنولوجيا اليابانية والكثافة البشرية الصينية تمثلان مندمجاً خطيراً في العالم، لو اندمجا في قوة واحدة نسميها القوة الصفراء. ونسميها القوة الصفراء كجنس أصفر دون أي تمييز، كالجنس الأبيض الذي نتحدث عنه في أوروبا أو أمريكا.

لأول مرة منذ ثلاثة قرون في تاريخ العالم، تبرز قوة غير غربية.. وغير أوروبية.. وغير مسيحية.. وغير بيضاء.. تنافس القوة البيضاء على مركز الصدارة، وهي القوة اليابانية والصينية.. فمنذ أن نجحت أوروبا في تصفية الدولة العثمانية الإسلامية، والقضاء على الإمبراطورية الصينية الكلاسيكية، بحرب الأفيون ودخول الجيوش الأجنبية إلى القصر الإمبراطوري في الصين، ثم تصفية القوى غير البيضاء وغير المسيحية وغير الأوروبية، التي كانت مسيطرة على الساحة، وظل الغرب الأبيض من ذلك الوقت مسيطراً على الساحة إلى اليوم. لكن الآن ـ ومع بروز القوة اليابانية الصينية، ومعهم كوريا، ومعهم ما يسمونهم النمور الآسيوية ـ حدث الاختلال الحقيقي

في التوازن، وليس الاختفاء السوفياتي من الساحة العالمية إلا تعبيراً عن ظهور هذه القوة الجديدة وحلولها محله، وأصبحت المواجهة اليوم بين غرب.. ويابان.. والحديث الآن وكل المؤشرات تقول: إن الخصم القادم هو القوة اليابانية.. والأمريكيون يقولون بصراحة: نحن نخاف الآن من رجال الأعمال اليابانيين الذين يملكون من مكامن القوة أخطر مما يملكه العسكريون..

* في رؤيتك هذه.. أين مكان العرب؟ وما هي آفاق حركتهم، ليجدوا مكاناً لائقاً في هذا العالم، باحتمالاته الجديدة؟

ـ لنعترف بأنه في الوقت الحاضر وعلى المدى القصير، تبدو الصورة مليئة بالتحديات فعلاً.. فالموازين العالمية تغيرت.. وقوة دولية واحدة تقريباً تسيطر على العالم، وهي غير متفهمة تماماً للأوضاع العربية وللمشكلات العربية..

لكن على المدى البعيد، نجد أن هذه القوة المسيطرة حالياً تظهر فيها جوانب ضعف، وهناك احتمالات لظهور فيها القوة الأوروبية الجديدة، التي أعتقد أنها ستكون أكثر تفهماً للواقع العربي، بحكم الجوار العربي الأوروبي. ويجب ألا ننسى أن حوض البحر المتوسط هو بحيرة أوروبية عربية مشتركة.. فيجب أن نعمق الحوار العربي الأوروبي، ونصل به إلى جذوره وأعماقه الحضارية أيضاً، لا السياسية والاقتصادية والتجارية العادية فقط..

أنا أتصور أنه من الممكن قيام نوع من التفاهم الإستراتيجي بين أوروبا والعالم العربي.. وأعتقد أن من مصلحة أوروبا الآن بروز كتلة عربية تعيد التوازن إلى هذه المنطقة من العالم.. لأن العملاق الأمريكي، والعملاق الروسي لن يرتاحا لظهور القوة الأوروبية، لأن أوروبا الموحدة إذا قامت بشكل كامل.. أوروبا.. أوروبا الشرقية والغربية معاً، فستكون هي القوة الأولى في العالم، فعندها تراث حضاري عريق، وعندها قوة عسكرية واقتصادية، وتنوع في الطاقات والقدرات: الألمانية.. والفرنسية.. والبريطانية.. وغيرها..

هذه القوة أرى أن على العرب أن يحسبوا حسابها.. إضافة طبعاً إلى ما دعوت إليه من عدة سنوات، من ضرورة مراقبة ظهور القوة اليابانية والصينية، والاستفادة منها، وإقامة العلاقات معها.. لأن القوة اليابانية الصينية ليست مدينة للصهيونية، ولا يوجد لوبي صهيوني في اليابان أو الصين، ولا توجد روابط دينية قديمة بين الجانبين..

وهنا أريد أن أنبه وأحذر، بأن إسرائيل تعمل عملاً دائباً، لفتح الحوار.. وإقامة العلاقات

الوثيقة مع اليابان.. ومع الصين.. وهناك جهد إسرائيلي علمي وسياسي في هذا الاتجاه. وأرجو ألا نتأخر نحن العرب في عمل الشيء نفسه..

* بطبيعة الحال.. لا يكفي مجرد إقامة العلاقات مع هذه القوى.. وإنما الأهم هو ما نفعله نحن في مجال التوحد والتكتل والتجمع، كما يقتضي منطق العصر..

ـ بهذا في الواقع نصل إلى جوهر الموضوع، وهو مسألة الإمكانات الذاتية العربية.. ولدي رأي في هذه المسألة..

في الوقت الحاضر هناك في الكتابات العربية، وفي التصريحات العربية، مبالغات في موضوع التغيرات الدولية. صحيح أن التغيرات الدولية عميقة وخطيرة، ولا بد من حسابها.. ولكن يجب أن ننتبه إلى أن هذه التغيرات لا تثمر داخل المنطقة العربية إلا إذا وجدت عوامل تفاعل ذاتية فيها. فإذا كان الداخل العربي غير متوائم وغير مستعد للمتغيرات الدولية فلن تثمر. يجب أن ننتبه جيداً إلى الإمكانات الذاتية العربية..

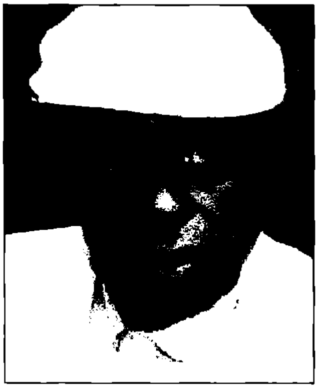
* وبالطبع هذا يقتضي فهماً ودراسة للمتغيرات ولحقائق أوضاعنا.. بفكر مفتوح علمي..

ـ أنا أشدد على ضرورة الفكر المفتوح، حتى لا نظل محبوسين في التصورات الأيديولوجية السابقة.. فبذلك وحده يمكننا أن نفهم وأن نتعامل..

يقال الآن: إن المتغيرات في شرق أوروبا مثلاً قد فاقت الخيال، وإنها مذهلة.. بينما أنا شخصياً ـ وبرأيي المتواضع، وبجهدي المتواضع في كتابي «العرب والعالم سنة 2000» ـ أوردت نصوصاً واضحة ومحددة تقول: بأن الأنظمة الماركسية ستتغير في أوروبا الشرقية.. وكتبت هذه الكلام في مايو سنة 1988.. أي قبل سنتين من حدوث التغيير..

هذه نقطة.. ونقطة أخرى، هي الإشارة إلى أن الوحدة الألمانية ستكون محوراً أساسياً في سياسة أوروبا والعالم.. وهذا أيضاً حدث.. ومن قبل خمس سنوات، أشرت إلى القوة اليابانية والصينية.. والآن يقولون في الولايات المتحدة: إن اليابان هي الخصم القادم. فلو أننا درسنا الأمور بفكر مفتوح، وتنبهنا.. لما كان هناك مستحيل.

* * *



15

الشاعر العربي السوداني
محمـد الفيتـوري(1)

صوت إفريقيا الثائرة في الشعر العربي

«شحبت روحي.. صارت شفقاً..
شعت غيماً وسنا..
كالدرويش المتعلق في قدمي مولاه أنا..
أتوهج في بدني..
أتمرغ في شجني..
غيري أعمى،
مهما أصغى، لن يبصرني،
فأنا جسد.. شجر.. شيء عبر الشارع..
جزر غرقى في قاع البحر..
حريق في الزمن الضائع..
قنديل زيتي مبهوت..
في أقصى بيتٍ، في بيروت..
أتألق حيناً.. ثم أرنق.. ثم أموت».

---

(1) ولد عام 1936، وتوفي في 24 إبريل 2015. وقد قضى السنوات الأخيرة من عمره في المغرب طريح الفراش. أجريت هذه المقابلة في صيف عام 1996 في القاهرة، وكان الشاعر وقتها المستشار الثقافي بالسفارة الليبية بها. وقد أذيعت كحلقة في برنامج «مهرجان الشعراء» من إذاعة «صوت العرب».

بهذه الكلمات الفياضة بالأسى والعاطفة، استهل الشاعر الكبير محمد الفيتوري حوارنا، باعتبارها بطاقة هوية له.. ثم بدأ الحوار..

* شاعرنا الكبير.. أنت علامة مميزة متوهجة في الشعر العربي المعاصر. تجربتك غنية وطويلة ولها ملامحها الخاصة المميزة. حبذا أن نلقي نقطة ضوء على معالم التكوين الفكري الذي حداك في مسيرتك الأدبية..

ـ لعل ناقداً أقدر مني على الإجابة عن هذا السؤال.. أنا مجرد شاعر في هذا العصر. ولعلني حين أعطي لنفسي هذه الصفة أعطي لنفسي ما هو أقيم وأهم مني، فالشعر رسالة، والشعر دور حضاري، والشعر حياة. أنا أحلم دائماً بأن تتحقق لي هذه الأمنيات: أن أكون صاحب رسالة في شعري.. أن أكون صاحب دور فيما أكتب.. أن تكون لي حياة تتسع للآخرين.. أين ولدت؟ أين تعلمت؟ أين تفتحت عيناي على الواقع؟ على حقائق الحياة؟ على الأشياء من حولي؟ كل ذلك يمكن أن يجيب عنه ناقد أو ربما أحد الدارسين لما كتبت من الأشعار. ربما أيضاً جاز لي أن أقول: إنني أنتمي إلى دماء كثيرة. في عظامي تمخر أمواج وسحب وأنهار كثيرة في هذه القارة الإفريقية.. في عظامي النهر الإفريقي الأسود الزنجي.. وفي عظامي النهر العربي الحضاري الإسلامي.. في عظامي أيضاً وداخل هذه العظام تتوهج القضايا الإنسانية التي نشأت وتربيت وتفجرت مشاعري في ظلالها..

الأزهر الشريف ربما كان أول رؤيا لشاعر صغير قدر له أن يكون شاعراً يوماً ما.. في هذا الأزهر بمعهد الإسكندرية الديني نشأت وتعلمت وتثقفت وتلقيت دروسي الأولى.. في مدينة الإسكندرية تفتحت عيناي على ضوء الحياة وعلى الأشياء وعلى طبيعة الأشياء من حولي.. في مدينة القاهرة أكملت دراساتي العليا الأخرى، فالتحقت بالجامعة الأزهرية وكلية دار العلوم.. عملت صحفياً في مصر.. مصر المحروسة.. مصر هذه التي نستظل الآن بشمسها وسحابها وضوئها وإبداعاتها وفنونها، والتي نحلم لها أن تعود لمجدها ووهجها وتألقها ودورها الأساسي في تاريخ الحياة الإنسانية.. في مصر هذه.. في القاهرة هذه.. نشأت وتلقيت تعليمي.. تعلمت دراساتي الأولى.. تعلمت الصحافة.. وتربيت على أيدي هؤلاء الشعراء الكبار الذين كانوا وما يزالون يطلون بوجوههم الساطعة على هذه الحياة: كامل الشناوي ما زلت أذكر دوره في حياتي.. الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل ما زلت أذكر فضله.. الكاتب والصحفي القدير ـ ربما لا يعرفه ناس كثيرون ـ أبو الخير نجيب كان له فضل في حياتي.. الأستاذ الكبير أحمد رامي

ولقاءاتي العميقة به.. الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل والدور الهام الذي لعبه في حياتنا الاجتماعية.. الأستاذ الناقد الكبير مصطفى السحرتي، ربما الكثيرون لا يتذكرون من هو ـ الناقد المؤسس للرؤيا النفسية داخل الشعر العربي المعاصر.. الأستاذ الكبير عبد المنعم خفاجي..

كثيرون أستطيع ـ كلما مددت عيني في أنحاء هذا الوطن الكبير ـ أن أجد لهم ديناً في عنقي، وتأثيراً في حياتي، ووهجاً في هذا العمر طال حتى هذه الكلمات..

لن أنسى الآن أن أطل الإطلالة الثانية في الحياة عندما عدت إلى السودان. هنالك في هذا البلد الكريم المضياف العظيم ذي الشعب الأصيل.. الضوء الساطع في قلب القارة الإفريقية.. هناك أيضاً تلقفتني أيدٍ كثيرة من مفكرين وسياسيين من العظماء والمبدعين. في هذا البلد تنفست رئتاي وامتلأت بالهواء النقي برؤى جديدة.. بصور لم يحدث لها ربما أن تلقفها إنسان في مثل ظروفي..

السودان ليس السودان فقط.. فهناك عملت صحفياً وأديباً له علاقاته وصداقاته، وتزوجت هناك أيضاً في هذا البلد وعشت حياتي.. ربما الجزء الأجمل والأروع والأخصب في هذه الحياة.. ثم انطلقت بي الأيام فشردتني وبعدت بي كثيراً.. عدت إلى بيروت وبقيت فيها.. عملت صحفياً في بيروت في عدة صحف وفي أماكن كثيرة.. وقفت على منابرها.. غنيت وكتبت واستلهمت أشعاراً.. دخلت تجارب كثراً في مختلف هذه الأضواء المضنية حولي في مدينة بيروت وفي مختلف مناطق الجبل اللبناني.. أيضاً انتقلت إلى ليبيا حيث تمددت حياتي.. تفرعت.. ارتبطت بجذوري الأساسية في هذا البلد.. ليبيا.. الذي هو بلد أجدادي والذي أنتمي إليه دماً وروحاً وعصباً وفكراً.. هنالك أيضاً نشأت حياة أخرى لي امتدت.. غاصت.. ما زالت وما زلت أتحرك في ضوئها، وأتفاعل معها، وأحاول أن أكون في مستوى ما أحلم به نحو هذا الأفق الذي أعيش فيه.

هذه إضمامة.. إضافة.. إطلالة بسيطة على حياة ربما كانت أعمق بكثير مما قلت.. وربما كانت أخصب بكثير مما أردت أن أدل عليها.

*** أستاذ محمد.. هذا الغنى في التكوين الفكري والنفسي والروحي والوجداني الذي تفضلت بإلقاء الضوء على أبرز معالمه، ظهر جلياً في عطائك الشعري. ونذكر أنك حين برزت في الحياة الثقافية في مصر بشعرك، لفت الأنظار، واشتهرت لك قصائد بعينها كانت هي كفك**

الممدودة إلى القراء والمستمعين وإلى قلوبهم وآذانهم.. هل تذكر شيئاً من هذه القصائد؟

ـ نعم.. أذكر.. مثلاً «أغاني إفريقيا»:

يا أخي في الشرق، في كل سكن ... يا أخي في الأرض، في كل وطن
أنا أدعوك.. فهل تعرفني؟ ... يا أخاً أعرفه.. رغم المحن
إنني مزقت أكفان الدجى ... إنني هدمت جدران الوهن
لم أعد مقبرة تحكي البلى ... لم أعد ساقية تبكي الدمن
لم أعد عبد قيودي، لم أعد ... عبد ماض هرم، عبد وثن
أنا حي خالد رغم الردى ... أنا حر رغم قضبان الزمن
فاستمع لي.. استمع لي إنما ... أذن الجيفة صماء الأذن

***

الملايين أفاقت من كراها ... ما تراها.. ملأ الأفق صداها
خرجت تبحث عن تاريخها ... بعد أن تاهت على الأرض وتاها
حملت أفؤسها وانحدرت ... من روابيها وأغوار قراها
فانظر الإصرار فى أعينها ... وصباح البعث يجتاح الجباها

* هذه القصيدة ـ الأغنية من إفريقيا ـ كانت حداء للحركة الثورية التحررية في إفريقيا، وكانت بشارة مبكرة في الخمسينيات لتحرر إفريقيا كلها بعد سنوات قلائل من إبداعها.. فيها وفي شعرك الباكر برزت ملامحك واستقبلها النقاد باحتفاء عظيم.. ثم سار موكب عطائك الشعري في القصيدة وفي المسرح الشعري أيضاً.. الآن كيف تنظر إلى الحصاد؟ وهل حققت ذاتك فيه؟

ـ لا أستطيع أن أقول: إنني حققت شيئاً مهماً مما أطمح إليه.. لكني أسير مع السائرين، وأستغرق في هذه الحياة مثلما هو مقدور على شاعر أن يستغرق.. أحاول أن أقول شيئاً جديداً.. أحاول أن أطل على عالم آخر.. أحاول أن أكتب ما يمكنني أن أقول.. أن أدخل به على الأقل في روح ووجدان هذه المرحلة..

لقد كتبت أكثر من مجموعة شعرية: كتبت «أغاني إفريقيا» التي تفضلت بالإشارة إليها والتي صدرت سنة 1956. صدرت بعدها عدة مجموعات: «عاشق من إفريقيا»، وبعدها «اذكريني

يا إفريقيا»، وأصدرت بعدها «أحزان إفريقيا». ثم انتقلت إلى المرحلة التي يمكن أن أسميها المرحلة الاستشرافية العربية، فكتبت مجموعاتي الأخرى: «ابتسمي حتى تمر الخيل»، و«معزوفة لدرويش متجول»، و«شرق الشمس غرب القمر»، و«يأتي العاشقون إليك»، و«قوس الليل قوس النهار».. وفي هذا الأيام بالذات سوف تصدر لي ثلاثة أعمال أخرى عن الهيئة العامة للكتاب، وهي: ديوان شعر جديد عنوانه «أغصان الليل عليك»، وسوف تصدر لي مسرحيتان: إحداهما «الشاعر واللعبة»، وهي كوميديا سوداء كما أسميتها، ومسرحية أخرى عنوانها: «الأمير ابن تاشفين والأمير العاشق» أقصد المعتمد بن عباد، تحدثت فيها باختصار شديد حول الصراع الذي حدث في الأندلس في نهاية القرن الحادي عشر ما بين الأمير يوسف بن تاشفين البطل البربري المناضل الذي وحد المغرب قبل سنوات طويلة، والذي وضع أساس مدينة مراكش، والذي أمكن ـ بتدخلاته فيما وراء البحار في مدن الأندلس المختلفة ـ أمكن لشمس الحضارة العربية أن تستمر ثلاثة قرون، في حين كانت توشك على الغروب في نهايات القرن الحادي عشر.. هذه إطلالة أخرى على جانب مما كتبته في الحياة..

* الحق أن الحوار مع الشاعر العربي الكبير محمد الفيتوري يحلق بنا في آفاق واسعة وجميلة باتساع وجمال تجربته الغنية.. وحبذا ـ كمسك ختام ـ أن نقطف زهرة أخرى من أشعارك الجديدة التي ربما تعطي لمحة أخرى من ملامحك..

ـ «أغصان الليل عليك»:

«أغصان الليل عليك..
مطر ذهبي يهبط أبراجاً وقباباً في غابات الشمس..
وخيل جامحة تتزاحم تحت صهيل الريح..
وبعض من أوراقك في شجر الأيام..
وحائط صلبان متعانقة.. وشموع ضريح..
فاذهب.. اذهب.. منفى الدم والأسطورة..
لا تغمض عينيك على عينيك سدى..
اجعل من حلمك حين ينام العالم،
مركبة من أنغام وعطور..
انزع قلبك مما ينزع قلبك..
مقل نبي لحظة أشعله التاريخ تجسد في رؤيا البشرية،

جوهرة زرقاء، ودائرة من نور..
وتشكل في الأسماء.. وفي الأصوات.. وفي الألوان:
الأسود يذبل محموماً في الأبيض..
والياقوت الأحمر، يغرق في الياقوت الأصفر..
والضدان المضطجعان على حجر الأبدية،
يلتحمان، وينفصلان وينحدران، ويرتطمان ويستويان..
في الداخل.. خلف البوابات الصماء المرصودة،
حول نواميس العالم..
تتأنق مأساة العالم..
وتغيم سماء الله الأعظم خلف البوابات..
وتموت الشمس..
وتولد أطفال الظلمات..
ولهذا سوف تظل تعانق لعنتها..
وتقاتل أنفسها الأموات..

***

لو أدرك إنسان الغابات الراكض
عبر حدائقه الوحشية..
فوق خيول الوقت.. معنى الزمن الآتي..
لتهدم مبغوتاً.. ولأبصر خوذته الملكية غارقة
في نهر الموت..
خانت بعض الكلمات وبعض الإيماءات.. وها هي
ذي تتمايل راعشة..
أغصان الليل عليك..
وأنت بلا درب وبلا صاحب..
يا ويحك..
يا ويح جنونك..
أين تعلق صورة شعرك..
في زمن المجد الكاذب!».

***



16

الشاعر العربي الفلسطيني

محمود درويش(1)

شاعر المقاومة الفلسطينية وصوتها في العالم

في زيارته لدولة الإمارات العربية المتحدة في صيف عام 1986، جرى هذا اللقاء التلفزيوني في أبوظبي، وأذيع كحلقة متميزة من برنامج «لآلئ عربية»..

كانت الانتفاضة التاريخية العظيمة في أواخر الثمانينيات بمشاهدها المروعة والنبيلة أيضاً تملأ أسماع العالم وعيونه ووجدانه، وتشق في الظلام نوافذ أمل في أفق المستقبل..

وكانت ندوب الترحال الطويل الأليم تتراءى على ملامحه الوديعة الجميلة..

وكانت حكمة التجارب الغنية: الحياتية والإبداعية، تتجلى أفكاراً ناضجة أصيلة، وقناعات وخلاصات واعية جريئة، ولغة شاعرية مبينة وموحية معاً..

في تلك الأجواء جرى هذا الحوار، يحثه شوق عميق يملأ جوانحي نحو صديق كان من حظي أن أكون من أوائل من استقبلوه ورافقوه في القاهرة حين حط رحاله فيها سنة 1971. بل وأن أكلف بأن أصحبه في رحلة استجمام غير معلنة لمدة أسبوع في الأقصر وأسوان، قبل أن يعلن وصوله إلى القاهرة في مؤتمر صحفي.

وحين عبرت له ـ في بدء الحوار الذي كان بوحاً عن هذا الشوق وشوق المشاهدين إلى رؤيته والاستماع إليه، كان جوابه:

---

(1) ولد في 13 مارس 1941، 9 أغسطس 2008.

ـ وأنا فعلاً متشوق منذ زمن بعيد إلى مثل هذا اللقاء على مستويين: على المستوى العام لألتقي بالإخوة الأحباء في الخليج العربي، وعلى المستوى الخاص لكي أجدد معك علاقة قديمة نسجناها معاً في أيام جميلة في القاهرة.

* الواقع أننا نشعر بأننا معك أمام تجربة غنية لها جوانب كثيرة كل منها جدير بحديث خاص، ولكن لعل الجانب الذي يشدنا أكثر ويفرض نفسه كبداية هو المشهد المعاصر في الأرض المحتلة: الانتفاضة الثورية. هذه الانتفاضة، بم توحي لمحمود درويش من أفكار ومشاعر؟

ـ في الحقيقة اختيارك لنقطة البداية هو الاختيار الضروري، لأن الانتفاضة في الحقيقة هي عودة البدايات إلى بدايتها. إنني أشعر بكل صدق بأن الانتفاضة تجدد ولادتي، وتفتح ساحة العمر على كل التفاصيل الأولى لحياتي الشخصية وحياتي الوطنية. طبعاً الانتفاضة ليست انفجاراً آلياً، وليست حركة عفوية، بل هي انفجار تفاصيل وتراكم من المخاض الوطني للشعب الفلسطيني نتيجة معايشته القاسية للاحتلال الإسرائيلي الطويل.

وعلى المستوى الشخصي تثير الانتفاضة فيّ كما قلت ميلاداً جديداً، وتجدد صلة حلقات العمر بعضها ببعض، وتستفز في الكثير مما تغير، ومن وسائل التعبير، وتعيد الإنسان إلى الغناء الأول.. إلى البيت الأول.. إلى الأداة الأولى.. إلى العاطفة الأولى، لأن الانتفاضة هي إشهار لكل ما هو أول في الإنسان، حتى سلاحه، فالحجر هو السلاح الأول الذي قاوم به الإنسان الأول الوحش الأول على باب الكهف الأول. والانتفاضة بهذا السلام طرحت على فكر العدو الإسرائيلي الأسئلة الأولى حول التكوين الأول للكيان الإسرائيلي. كذلك تشهر الانتفاضة أسئلة أولى حول خطابنا الشعري وخطابنا الوطني وخطابنا الثوري من ضرورة العودة إلى المسار الأول للأمل والإيمان المطلق بحتمية الانتصار في معركة ليس هناك ما هو أكثر عدالة منها. ولكن المفارقة هي أن هذه العدالة تحتاج إلى برهان يومي.

هذه الانتفاضة طرحت على الوعي العالمي أيضاً بساطة السؤال الأول. صحا العالم فجأة من نوم، وإذا به يشهد ويعترف بأن تحت إسرائيل هناك فلسطين، وأن هذا الوطن الفلسطيني فيه شعب اسمه الشعب العربي الفلسطيني، وبأن إسرائيل ليست أكثر من كيان احتلال.

طبعاً نحن نحتفل بهذا الاكتشاف الإنساني الجارح، لأن على العالم أن يعرف تماماً حقيقة ما يجري في أرض فلسطين، لكن الوعي تأخر، واستفاق أخيراً على أن الحقائق متوافرة وموجودة

لمن يريد أن يسمع وأن يرى.

ومن المفارقات أيضاً في هذا الموضوع أن الكاميرا كانت السلاح الإسرائيلي المرافق للدبابة والطائرة، أي كانت سلاحاً علينا في أيدي الإسرائيليين، فقد كانت تصور فلسطين صحراء، وصورت عملية تحويلها إلى جنائن. وكان الفلسطيني صاحب الأرض مغيباً في كل الصور. وفجأة بدأت هذه الكاميرا تقوم بمهام ليست إسرائيلية.. مهام بريئة، هي تصوير الواقع كما هو، وعلى شاشات التلفزيون، ومنها استمد العالم الغربي وعيه الجديد بوجود شعب فلسطيني على أرض فلسطين لا يطلب أكثر من أن يعيش كسائر الشعوب على أرضه حراً مستقلاً، ولا يطلب أكثر من طرد الاحتلال، ولا يقاوم بأكثر من حجر.

كل هذه الحقائق فعلاً تعيدنا إلى بدايات المسألة، وتحيي فينا بدايات الطريق إلى فلسطين. الطريق إلى فلسطين كانت تحوم حول فلسطين إلى أن وجدت فلسطين ذاتها في ذاتها في وطنها. وطبعاً من نافل القول التذكير بأنه لولا تشكل الهوية الفلسطينية الوطنية والسياسية في كل مكان، ولولا التضحيات التي ضحى بها الفلسطينيون في الدفاع عن هويتهم الوطنية وعن وجودهم الإنساني البسيط.. لولا ذلك لما حصل هذا التراكم الذي عبر عن نفسه بانفجاره العظيم في هذه الانتفاضة العظيمة.

* بهذا الشعور المفعم بالأمل، كيف ترى آفاق هذه الانتفاضة؟

ـ الانتفاضة تفتح أمامنا آفاقاً جديدة ورحبة، نشعر معها ـ وعندنا كل الأسباب لأن نشعر ـ بأننا ما دمنا قد وجدنا الطريق إلى الوطن على أرض الوطن، فإن الحرية قريبة. وقد تكون أحياناً نهايات أي شيء أطول من بداياته، لكني أعتقد أن الانسحاب الاسرائيلي من الأرض المحتلة قد تم على المستوى النظري.. قد تم في الوعي العام العالمي، وتم أيضاً على مستوى التشكك الإسرائيلي بالذات. إن الإسرائيليين يسألون الآن أسئلة كان عليهم أن يسألوها منذ زمان، ولكنهم تأخروا في طرحها.. يسألون عن حقيقة وجودهم، وعن حقيقة وجود الشعب الفلسطيني الذي يعبر عن عدالة قضيته بأكثر الأسلحة بساطة وتعبيراً. إذن نحن نعيش على منعطف تاريخي، ونعيش في سياق الانسحاب الإسرائيلي.. نعيش في سياق حق الشعب الفلسطيني بتقرير المصير.. ونعيش في سياق نشوء الدولة الفلسطينية المستقلة على أرض فلسطين.

* هذا المستوى العام، فماذا عن المستوى الشخصي لمحمود درويش؟

ـ على المستوى الشخصي أشعر أن كل أحلامي وكل آمالي وكل تعرجات المزاج الشخصي والفني لم تذهب سدى.. كل ما قلناه وما فعلناه.. كل نقطة دم سفكت على باب مخيم.. وكل كلمة قيلت في تمجيد الأمل، أثمرت الآن هذه الثمرة العظيمة.. هذه الانتفاضة التي نعلق عليها كل آمالنا، ونشعر بأنه لا رجعة عنها إلا بالنصر.

* حسن ـ وقد عدت بنا إلى البدايات ـ اسمح لنا بأن نقترب أكثر، وأن نعود معك إلى «البروة» وإلى «حيفا»، حيث عشت الطفولة والصبا والشباب الباكر.. ماذا أعطتك البروة وحيفا؟

ـ كما قلنا في البداية.. الانتفاضة فتحت أمامي كل أبواب البيوت الأولى وحتى المهدمة منها، أنا ولدت في قرية «البروة» وعشت فيها خمس سنوات لا أكثر، وشهدت عملية الرحيل أو التهجير الفلسطيني الأولى عندما احتل الجيش الإسرائيلي هذه القرية الساكنة على رابية صغيرة في سهل عكا، وهي نقطة البداية في تعرج جبال الجليل وصعودها نحو الشمال، تحيط بها أشجار الزيتون الممتدة. وأذكر من عملية الاقتلاع الأولى تلك الرحلة الليلية في تلك الغابات الموحشة حيث تحول الزيتون الأخضر إلى سواد في الليل بلا ألوان، وأذكر أيضاً كيف استطاع الفلاحون سكان القرية والقرى المجاورة تحرير القرية من الجيش الإسرائيلي، وسلموها إلى جيش الإنقاذ، الذي قام بدوره بتسليمها إلى قوات إسرائيل. من تلك الفترة انقطعت صلاتي «بالبروة»، وهاجرت مع أهلي إلى لبنان، وكان أهلي ـ وجدي بالذات ـ يعتقدون أنهم في رحلة قصيرة ما دام جيش الإنقاذ قد تعهد بتحرير البلاد، وشجع بعض سكان القرى على الرحيل من أجل إفراغ المسرح للعمليات العسكرية، فكان جدي يعتقد أن إقامته في لبنان هي إقامة مؤقتة ومسألة أيام يعود بعدها إلى فلسطين المحررة. لكن خاب هذا الظن. وبعد عامين من الإقامة في لبنان يئس جدي من الخبر الذي ستزفه له الإذاعة، وعرف أن الأمل بعيد، وأن البلاد قد تم احتلالها، فتسلل ونحن معه تحت جنح الظلام عائدين إلى المكان الذي شكل في تلك السنة ما يشبه فردوسنا المفقود، وكان كل ما نتعرض له في المنفى العربي الأول يجد شكله المعاكس في تلك العودة إلى مسقط الرأس.. قرية «البروة»، ولكن فوجئنا بعدم وجودها، فقد وجدنا أنقاضاً.. وجدنا بقايا كنيسة، وقد تم تدمير القرية تدميراً كاملاً، ونقلت حجارتها إلى مكان آخر، وأقيم على أنقاضها «كيبوتسان»: واحد للمهاجرين من ألمانيا، والآخر للمهاجرين من اليمن. وهكذا في تلك الفترة عشنا لاجئين فلسطينيين في فلسطين، وتحولت «البروة» إلى ندبة في الروح،

ووجع دائم في الذكريات، وهذا كان مصير مئات القرى الفلسطينية التي تم تدميرها ومسحها من على الخريطة وإنشاء مستعمرات إسرائيلية مكانها.

هذه القرية تشكل لي حتى الآن الضوء الأول.. القمر الأول.. بئري الأولى.. الشجر الأول وكل ما هو أول يعني هذه القرية. ولكني أشعر أنني تبنيت مكاناً آخر، فمنذ صباي الباكر أقمت في «حيفا». و«حيفا» كانت نقطة انطلاقي الأولى في عملي، حيث عملت فيها صحفياً في البداية، وتشكلت فيها مقوماتي الثقافية الأولى، وانخرطت فيها أيضاً في صراع الوطنية والسياسة المبكر، وما زلت أعتقد ـ وأرجو عندما أعود ألا يهتز اعتقادي ـ أن «حيفا» هي أجمل مدينة في العالم، وقد أسماها أحد الفاتحين الرومان «أنف الغزال»، لأن الجبل يدخل البحر شبيهاً بذلك، وقد يعود هذا الجمال إلى تصور الجمال، أي النظر إلى أمر معين هذه النظرة الشاعرية، لكني أعتقد أنها أجمل المدن على هذه الأرض.

* فماذا أعطتك حيفا بجانب شعورك بجمالها؟

ـ في حيفا أنتجت إنتاجي الأول، وأصدرت مجموعتي الشعرية الأولى، وفيها سجنت وعرفت أول سجن، وأول قصيدة، وأول حب. وكل ما يشكل الإنسان من مقومات، وما يحدد بوصلة شمالي الثقافي والعاطفي تشكل هناك في مدينة «حيفا»، وأشعر أن «حيفا» هي مدينتي، أي أنني تبنيتها، ولذلك هي مرجعيتي الجمالية الأولى، وما زالت هي وطني الأول. وحين اضطررت إلى الرحيل عنها عام 70 شعرت أنني أنسلخ عن ذاتي ونفسي.

لقد أعطتني «حيفا» الكثير الكثير.. أعطتني الحساسية الأولى بالألوان التي تهيمن على شعري حتى الآن.. أعطتني اختلاط الأزرق البحري بأخضر الشجر.. أعطتني تناقضات الأشياء، ففي جنة هذا الجمال كان جحيم المطاردة الإسرائيلية.. فكانت البيت والسجن معاً. وهي كانت الحرف الأول، وكانت الخطوة الأولى في مسيرتي الشعرية التي ما زلت متورطاً بها حتى الآن، ولا أعرف متى أنجو منها.. يعني هي سببت لي هذا الداء الذي أحرص على ألا أشفى منه أبداً.

* في تلك المرحلة أنت ورفاقك من شعراء المقاومة في الوطن المحتل قدمتم عطاء شعرياً تلقفته الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج، واحتضنته، ووجدت فيه شيئاً جديداً.. كيف كان صدى ذلك لديكم؟

ـ لا بد قبل الدخول في هذه الذكرى أن أعترف ولأول مرة، وعلى مرأى من الناس، بأنه في تلك اللحظة التي تم فيها اكتشافنا ـ نحن الشعراء الذين كنا نكتب في الأرض المحتلة ـ تم أولاً اكتشافنا كشعب. للأسف الشديد، صحا العالم العربي بعد هزيمة 67 على وجود واقع عربي تحت الاحتلال الإسرائيلي. طبعاً هذه الصحوة خلقت فينا ـ في البداية ـ المرارة، وكانت كأنها تعبير عن مستوى آخر من مستويات الهزيمة، وهو المستوى المعرفي. يعني: كيف لم يعرف العالم العربي، وكيف لم يعرف المشروع القومي الكبير في ذلك الوقت حقيقة وجود عرب في وطنهم فلسطين؟

لكن الجانب الآخر.. جانب الاعتراف الشعري بوجودنا خلق فينا حقيقة حوافز جديدة للعمل، وخلق فينا إيماناً بفاعلية دورنا. نحن كنا أولاداً صغاراً نكتب.. يعني لم نكتب الشعر، وإنما كنا نعبر عن أنفسنا.. نعبر عن حياتنا.. ننتصر على ما حولنا بما فينا من طاقات روحية.. ننتصر على هذه الدولة التي حطمت أو حاولت أن تحطم المشروع القومي.. ننتصر عليها بأغنيات بسيطة تتحدى. كنا ننشد لأنفسنا، ولم نتوقع أن أصواتنا ستصل أو ستحرك شيئاً ما في شقنا الثاني.. في نصف قلبنا المقطوع خارج الحدود. ومن هنا كان فرحنا بأنفسنا، وباعتراف إخوتنا العرب بنا، فرحاً كبيراً، حتى لو كان ينطوي على كثير من المبالغة.. وأنا أقول: في تلك المرحلة صور الشعر الفلسطيني المكتوب في الأرض المحتلة على أنه البديل لكل الشعر الذي يكتب في الخارج. وهذا طبعاً كان مبالغة.

* نذكر أنك كتبت إزاء ذلك قائلاً: ارحمونا من هذا الحب القاسي.

ـ نعم، وكان ذلك في افتتاحية في مجلة «الجديد». وذلك لأنه أولاً ليس صحيحاً. نحن عبارة عن رافد من روافد الشعر العربي الحديث. وعلى العكس ـ على المستوى الفني ـ كنا أقل أهمية مما حققه مشروع الشعر العربي الحديث في الوطن العربي، لكن اهتمام حاسة الحاجة إلى صمود معنوي أكبر لدى الإخوة العرب هو الذي ضخّم أهمية هذا الشعر.. كان الجانب الوطني فيه والمعنوي في القصيدة مرجحاً على الجانب الفني. ومع ذلك حملنا هذا الاهتمام مسؤولية تطوير أنفسنا، فلم نعد نكتب كتلامذة المدارس، فقد كانت الأضواء مسلطة علينا، فكان علينا أن نكون جديرين بهذا الاهتمام. ومن هنا كانت هذه الموجة.. موجة التمجيد للشعر الفلسطيني في الداخل حافزاً لكي نطور أنفسنا، ولا نكتفي بأن تحاور قصيدتنا السجان الإسرائيلي، بل عملنا على أن تحاور أيضاً المستوى الإبداعي في القصيدة العربية. حاولنا أن نزاوج بين فاعلية القصيدة وجماليتها، أي الجانب البريء من الشعر، وهو الجانب الإبداعي الذي لا غرض له إلا الإبداع. أصبح هاجسنا: كيف تتحقق الفاعلية

مع الجمالية في القصيدة.. ودخلنا وقتها مرحلة السجال على مستوى البحث الشعري نفسه، وكانت المعركة بالطبع صعبة، لأن الحوار قبل ذلك كان واضحاً ومحدداً ونهائياً: بين السجين والسجان.. كانت العلاقة أنا وأنت.. أنا صاحب الوطن وأنت المحتل.. أنا السجين وأنت السجان، وبالتالي كان التعبير عن ذلك تعبيراً بسيطاً وواضحاً.

الآن أنا أشعر بشوق شديد إلى إعادة صياغة هذه البدايات شعرياً، وأنا مشغول منذ شهور بإعادة كتابتها بطريقة غنائية أكثر نضجاً من الطريقة الأولى. أي أنني أعلنت تمردي على التجريبية في القصيدة، وأسعى لإبداع الوطن بكتابة الغناء الأول الذي حركته في نفسي الانتفاضة. لقد أعادتنا الانتفاضة ليس فقط إلى سيرتنا الذاتية، وإنما أيضاً أعادت فينا الحنين إلى مطلع النشيد الأول.. مطلع الأغاني الأولى البريئة العفوية.

* نواصل الرحيل معك.. حيث كانت المحطات التي تلت البروة وحيفا هي القاهرة وبيروت وباريس حالياً.. وما من شك في أنّ كلاً منها أخذت منك وأعطتك.. ونبدأ بالقاهرة..

ـ القاهرة هي أول مدينة عربية أراها في كل حياتي، وما زلت محتفظاً حتى اللحظة بالانفعال الشديد الذي سبق لقائي بها.. كُنت محتقناً بالمشاعر والتناقضات والتوقعات إزاء دخولي الأول مدينة عربية..

أول ما لفت نظري أني سمعت كل الناس في القاهرة يتكلمون باللغة العربية. هذا طبعاً لا يثير دهشة أحد، ولكن يثير دهشتي أنا.. لأني قادم من مدن كلها محتلة، وكلها تتكلم اللغة العبرية، وقادم من مدن أوروبية تتكلم لغاتها الأجنبية، فكانت القاهرة أول مدينة أراها تتكلم كلها باللغة العربية، وأسماء شوارعها باللغة العربية.. كانت مواجهة، وكأنني أُلقي بي دفعة واحدة إلى جذور تاريخي الثقافي كله.

وفي القاهرة التقيت بكل الأدباء الذين شكلوا مقوماتي الثقافية والعربية. كل كاتب عربي هو مصري الثقافي.. عاصمة الثقافة العربية بمبدعيها ومفكريها وأدبائها هي مصر.. وقد كان انفعالي شديداً حين التقيت بالأدباء الذين تعهدوا طفولتي وصباي الأدبيين.

لكن أريد أن أعترف أيضاً بأنه بقدر ما حدث لي من عودة إلى الينابيع الحية، شكلت لي صدمة أيضاً، لأنني ذهبت إلى القاهرة الفكرة، أما الواقع فقد كان أقل، خاصة ـ كما تذكر ـ كانت مصر تمر بلحظة صعبة..

* كان ذلك في السبعينيات.

ـ نعم في السبعينيات، وكانت مصر الرسمية تعد نفسها لانعطاف.. كانت تعد نفسها لنسيان المشروع القومي الذي قاده جمال عبد الناصر، وكان ذلك واضحاً في كل المعالم. كان النظام المصري الجديد يعد الداخل المصري لعملية إبادة ذاكرة قومية ارتبط فيها كل أبناء الأمة العربية بأملهم العظيم، فكانت صدمتي كبيرة بتفاصيل لحظة الانعطاف الذي وصلنا إليه. ومن هنا كان صعباً عليّ الاحتفاظ بتوازن ما لا يتوازن في تلك اللحظة، وهكذا كانت إقامتي في مصر قصيرة، واضطررت إلى توديعها وملء قلبي مصر، بشعبها العظيم ومثقفيها الوطنيين ونيلها الملهم..

أنا لم أنظر إلى النيل نظرة ساحية.. وكانت ليالي الأولى في القاهرة مليئة بالكوابيس، لأن ما فعلته من انقطاع عن وطني، والإقامة في مصر كان صعباً على المستوى الوجداني والنفسي، فكنت أصحو من الكوابيس، وأفتح الشرفة لأتأكد أن ما أراه هو النيل..

طبعاً امتلأت بإيقاعات الشعر المصري.. وكل مواطن عربي فيه نصيب مصري ما.. كل أول فن وثقافة فينا يعود إلى مصر، ولكن مصر السياسة بعد رحيل عبد الناصر جرحتنا بقدر ما جرحت نفسها، وكنا جميعاً ضحايا التمرد على هذه الذاكرة القومية، وضحايا عملية النسيان التي جرت محاولة فرضها على الوجدان.. وطبعاً هي عملية فاشلة في آخر الأمر، حيث لا يمكن فرض ذاكرة جديدة على شعب بمثل هذه العراقة، وبمثل هذا العطاء للقضية العربية وقضية مصر الوطنية.

* الواقع أنني لا أنسى ما قلته حين وصلت إلى القاهرة من أنك تبتعد عن الوطني لتزداد قرباً منه، وبالفعل كان عطاؤك للوطن سخياً ومهماً.. سواء وأنت في القاهرة أو بعد انتقالك إلى بيروت التي شهدت أخصب فترات عطائك..

ـ بالفعل انتقلت إلى بيروت، وانخرطت في سياق جديد هو في الواقع نفس السياق، ولكن الأسماء تختلف، القاهرة أو بيروت أو أي وطن عربي.. وهو سياق الارتباط بالفكرة والمشروع التحريري وهو الأساس، وكلنا أمل في أن مصر ستستعيد ـ وهي قادرة على ذلك ـ قلبها لنفسها ولنا.. وستستعيد نبرتها وصوتها.

وبيروت هي أكثر المحطات كثافة في مسيرة تاريخنا الوطني والأدبي الحديث، ولكن أصعب شيء هو أن تُعرّف بيروت. هي تخدع أي زائر لها بأنه يعرفها، وهي في رأيي من أصعب

وأجمل المدن، لأن في بيروت أكثر من بيروت واحدة، وكل واحد ينتج لنفسه بيروته الخاصة إلى حد الإطاحة بكل تلك المدن التي اسمها بيروت.

* وبالنسبة للقضية الفسطينية؟

ـ بالنسبة للقضية الفلسطينية بيروت بدون شك تمثل أكثف لحظات صياغة الإرادة والقرار والهوية الوطنية الفلسطينية.. فيها انتقلت القضية الفلسطينية نقلة نوعية على المستوى العربي وعلى المستوى الدولي.

* وعلى المستوى الأدبي؟

ـ على المستوى الأدبي كانت بيروت عاصمة كل المبدعين العرب المحرومين من أوطانهم، والذين استوطنوا وجدانياً بيروت.. أنا عشت في بيروت ـ وهذه مفارقة غريبة أيضاً ـ نفس السنوات التي عشتها في «حيفا».. عشت في حيفا عشر سنوات، وفي بيروت عشر سنوات. وفي بيروت أنتجت أكثر ما أنتجت. ولقد بدأت مرحلة الانعطاف الشعري في القاهرة، وتطورت هذه المسيرة في بيروت. ولكن عندما خرجت من بيروت بعد دخول القوات الإسرائيلية، وبعد ارتكاب المجازر في صبرا وشاتيلا، كنت أعرف أنني لن أعود إلى بيروت.

بيروت مدينة ملتبسة جداً.. بيروت هي الشيء وعكسه ونقيضه.. هي لغز عاطفي في تاريخ العرب الحديث. وحتى تحولها إلى عاصمة ثقافية أيضاً لغز ثقافي.. هي كانت جزيرة حرية، وجزيرة ديمقراطية عائمة على بحر معاد. وهذا ما صعّب تحقق ورشة الحرية التي نشأت في بيروت وورشة الفوضى. لقد وجد فيها الفوضويون العرب فوضاهم، ووجد فيها الأحرار العرب حريتهم، ولكن البحر الذي تقوم عليه هذه الجزيرة قد أغرقها، لأنه يبدو أنه ما زال مبكراً على العرب أن ينشئوا نظامهم الديموقراطي الحقيقي للأسف الشديد.. تلك هي عبرة بيروت.

* مع ذلك، ومع صعوبة التعبير عن بيروت كما تصف نجدها حاضرة بوضوح في شعرك.

ـ نعم.. لقد ألفت بيروت عدة مرات.. كتبت نصين طويلين جداً عن بيروت: الأول اسمه: «قصيدة بيروت»، التي أقول فيها:

«بيروت خيمتنا الأخيرة..

بيروت نجمتنا الأخيرة..».

وكتبت أيضاً: «مديح الظل العالي»، وهي عن حصار بيروت، والرحيل الفلسطيني الكبير من بيروت. وقبل سنتين أصدرت نصاً كاملاً نثرياً في محاولة لتعريف بيروت اسمه: «ذاكرة للنسيان»، وهو تاريخ يوم من أيام حصار بيروت، وطبعاً بخلفيات، محاولة لفهم هذه المدينة غير القابلة للاستيعاب؛ لأنها أقوى من أسمائها، وهي نص أقوى من كاتبيه، وأقوى من قرائه..

* تبقى باريس.. محطتك بعد بيروت..

ـ لا يبدو لي أن باريس تشكل مرحلة أو محطة ثابتة في مسيرة رحيلي الطويلة. باريس مجرد مصادفة.. مجرد عنوان مؤقت اخترته - وليس بمحض إرادتي - بعد الخروج الكبير من بيروت في أواخر عام 1982. كنت مثقلاً بالخيبة والحزن من هذا البحر، وقد ألقيت بحقيبة يدي في باريس لمدة أيام، ومنها أنتقل وأتجول وأقيم في أماكن أخرى. الآن ليست لي إقامة في باريس. باريس إحدى المحطات العابرة جداً، وليست لي فيها علاقات حقيقية ولا إقامة رسمية، أنا مجرد عابر في ذلك العالم الواسع جداً والضيق جداً إلى أن أجد المدينة العربية الأقرب إلى كيمياء نفسي، وأرجو أن يكون هذا البحث قصيراً جداً.. أرجو أن تكون تلك المدينة هي القدس.

* ونحن نقترب من شاطئ نهاية الرحلة معك، كيف تنظر إلى ما أنجزته حتى اليوم من عطاء أدبي ومن شهرة جماهيرية بل وعالمية؟

ـ اسمح لي بأن أعترف بأنني أعرف أن لي شهرة. ولكن ـ وأقولها بصدق تام ـ لا أعرف هل يستحق عملي الشعري مثل هذه الشهرة أم لا. وأنا من الناس الذين يعيدون النظر في عملهم بشكل مستمر.. أنا ناقد قاسٍ على نفسي، وكثير التشكيك في قدرتي الأدبية. وهناك سر بسيط في كل تاريخ عملي الشعري، أنني في كل مرة أكتب، أكتب بالصعوبة ذاتها، وكأنني أكتب لأول مرة في حياتي، وأكتب بالحرص ذاته وكأنني أكتب هذا النص الأخير، أي أنني أكثف كل ما أمتلك من طاقات وكأنني أكتب لأول مرة وأكتب لآخر مرة.

وهناك سر آخر، وهو أيضاً بسيط جداً، وهو: بعد مرحلة التجريب التي يمر بها كل باحث عما يمكن أن نسميه «الحقيقة الجمالية»، وعن العلاقة المثمرة بين الفاعلية والجمالية، توصلت إلى إنتاج أو إلى إقتناع بأنه لا يمكن تطوير الشعر العربي إلا من داخل تاريخه، ومن هنا فإن

موسميات التحديث أو التحديث المترجم أو اقتراح الترجمة الدائم على القصيدة العربية، أوصلت إلى اغتراب القصيدة عن تاريخها وعن سياقها، واغتراب القصيدة عن قارئها.. أي أن أي عملية تطوير لا يمكن أن تنشأ إلا من خلال تاريخ النص الشعري العربي، ومن تاريخ تراكم هذا التطور.

لذلك فأنا أحاول أن أصوغ كلاسيكية حديثة، لأنني مصّر على تطوير قصيدتي من داخل تاريخها الشعري. أما التفاعل مع شاعرية الآداب الأجنبية فهي علاقة هضم، وليست علاقة ترجمة، فما لم أستوعب تاريخ الشعر وتاريخ اللغة الشعرية العربية استيعاباً كاملاً فإنني لا أستطيع أن أحمل معدة هضم حقيقية، وعندما يكون تشربي أو علاقتي ضعيفة بتاريخي الشعري تصبح الترجمة أقوى من هذا التاريخ. ولذلك فأنا حريص وأحكم على الشعر العربي من خلال تطور لغته الشعرية العربية.

* كيف تنظر إلى حظك مع النقد والنقاد وتقدير الناس؟

ـ حول النقد ومسألة التقدير، أنا ما زلت أعتقد أن حركة الإبداع العربي متقدمة عن حركة النقد الموازية لها، لأن النقد السائد يفتقر إلى أسلحة تعامل حديثة مع القصيدة الحديثة. النقد عندنا ما زال نقداً انطباعياً، أو نقداً تفسيرياً، والنقد الحديث للأسف هو نقد بنيوي، أي هو المهارة في تفكيك النص وعدم إعادة تركيبه، وبالتالي فحركة النقد العربية في رأيي ليست مقياساً حقيقياً لتطور النص الشعري العربي.. قد تكون متقدمة عنه، وقد تكون متأخرة عنه، ولكنها ليست مقياساً، ولذلك فإن عملية النقد متروكة للخواطر الصحفية السريعة التي تختار أحد خيارين: إما التشهير الأعمى، أو التمجيد الأعمى. ومن هنا ما زلت أعتقد أن صلاحية القصيدة العربية الحديثة للحياة ما زالت سؤالاً محالاً إلى المستقبل، وما يتبقى ويرسب في وجدان الناس، وما يعيش في روحهم الوطنية والقومية والثقافية هو الذي سيحكم على هذا النص أو ذاك.

نحن في حالة فوضى مفاهيم.. فوضى تجريب.. ومن حق الناقد فعلاً أن يتردد إزاء هذه العملية، وأن ينتظر تبلورها وتكثفها. طبعاً لي خصوم كثيرون، وألاحظ أن الناس تجاهي ينقسمون إلى فريقين: إما عداء مطلق، أو تقدير مطلق، وكلا الموقفين خطأ، لأنني لست في مستوى واحد.. أنجح أحياناً، وأفشل أحياناً.. وأنا دائم البحث عن وسيلة تطوير قصيدتي، بالقياس إلى تاريخي الشعري، وتطوير قصيدتي بالقياس إلى تاريخ الشعر العربي الحديث الذي

أعاصره، أي أنني أتحاور على مستويين: مستوى تاريخي الشعري الخاص، ومستوى تاريخ الشعر العربي المعاصر، وأحاول أن أجدد في نفسي وفي حواري مع ما أعاصره من تجارب.

* أخيراً.. ماذا تقول عن الجوائز التي أحرزتها عن عطائك الأدبي؟

ـ حصلت على جوائز كثيرة.. ولا أعرف أيضاً لماذا حصلت عليها.. هي فاجأتني.. وأهم الجوائز التي حصلت عليها: جائزة لينين للأدب، وجائزة البحر الأبيض المتوسط، وجائزة لوتس، وجائزة ابن سينا، وغيرها من الجوائز الأجنبية وليس العربية.. أنا لم أحصل على أي جائزة عربية.

ـ بعد ذلك حصل محمود درويش على أبرز الجوائز العربية، ومنها جائزة سلطان العويس، ثم جائزة الشعر المصرية عام 2006.

* * *



17

الشاعر العربي التونسي المنصـف المزغـني[1]

بين الشعر والتمثيل

هو أبرز الأصوات الشعرية المعاصرة في تونس، حتى إنه تولى مسؤولية «نادي الشعروالأدب»، وهو منتدى ومجمع الشعراء هناك. وهو نبرة متميزة، سواء في أفكاره، أو في أسلوبه وصوره، أو في أدائه الصوتي الذي يحلق في آفاق الغناء والتمثيل. لذلك لم يكن غريباً أن يحظى بالهالة الأزهى من الأضواء بين نجوم الشعر في تونس. وقد كان لنا معه لقاء وحوار في تونس في بدايات مسيرته، ثم كان لنا ـ في أوج تألقه ـ هذا اللقاء، أثناء مهرجان القاهرة للإبداع الشعري سنة 1996، حيث استهله بمقطوعة من شعره رآها بطاقة تعريف به:

«هتفت: أنت المزغـني؟
فسـكت.
سمعت صمتي، فأضافت: أنت المنصف؟
فأجبت بأني أحياناً.
قالت: متـأكد؟
فأجبت بأني فعلاً متنـكد.

---

(1) ولد عام 1954.
أذيع هذا الحوار من إذاعة «صوت العرب» عقب تسجيله عام 1996.

صاحت: وإذن أنت الشـارع..

هتفت: وكيف عرفت بأني مزدحم هذي الساعة».

* شاعرنا المرموق.. أنت لك حضور جلي في الحياة الأدبية في تونس، وفي المحافل الأدبية العربية، والجميع يقول: إن كلمتك ذات ملامح متميزة.. ومهمة النقاد أن يحددوا ويبينوا هذه الملامح، لكنك بالتأكيد تعرفها، فهل تحدثنا عنها؟

ـ والله يصعب أن نلد الكلمات، وأن نعطيها لبوسها، ثم ندخل فيما يمكن أن تذهب إليه هذه الكلمات، أي ندخل في المدى الذي تخلقه أو تنتجه الكلمات لدى المستمعين ولدى الشعراء. المهم، وما يمكن قوله تحديداً وبكل صدق بالنسبة إلي هو أني أكتب كثيراً ولا أبقي إلا ما يساوي تقريباً عشرة أو خمسة في المئة مما أكتب، لأن ما نكتبه في البداية لا بد أن يقودنا إلى الشك فيه وإلى أن نعمل نظرنا ونحككه. أنا من سلالة شعرية تؤمن بالتحكيك. وتحكيك الشعر يعنى أنه لا بد أن يكون الشعر مقطراً، لأن الشعر هو هذا الكلام النادر الذي سيبقى من حياتنا في هذه الدنيا التي امتلأت بالكلمات. فكيف يمكن أن نصل إلى الكلمة.. الكلمة الجوهرة.. لا الكلمة التي نعثر عليها في الزحام. إننا يمكن أن نعثر على كلمات في الزحام ونجعل منها كلمات نجوماً.. هذا يستدعي أن تصاغ بمكابدة وصدق، والإنسان الآن ـ يعني ـ حالات الصدق التي يعيشها باتت حالات نادرة، والشعر أيضاً شيء نادر.. الشعر باعتباره سقف الكلام، أي أن هناك الكثير من الكلام والكلمة التي تستطيع أن ترقى وتطفو دون أن تكون زبداً هذه هي الكلمة الشاعرة.

* هذا موجود في تراثنا العربي، حيث كان هناك من فحول الشعراء من نهجوا هذا الطريق، وكانوا يدققون فيما يكتبون طوال عام..

ـ نعم.. زهير بن أبي سلمى كان يكتب هذه الحوليات، ومعه الحق. وهناك أيضاً من غير الشعراء العرب، مثل الأميركي وايتمان الذي كان ينقح ديوانه تسع مرات.

* يقول بعضهم: إن في ذلك خطراً على التلقائية في الشعر.. على العفوية وصدق الولادة الأولى..

ـ هذا الكلام سهل جداً.. ولكن الذين يقولون هذا الكلام هم شعراء لا يطيقون الحدب على قصائدهم. كذلك هم يدعون أن هناك لحظة إلهام، ولحظة إشراقة، وحالة نورانية تحتويهم ثم تذهب. لكن ـ يعني ـ في تجارب الشعوب أن هذا الكلام كلام فارغ. إن هذه اللحظة أو هذا الإلهام لم يأت إلا نتيجة اختمار عذاب ما، واختمار تجربة ما، ولم يكن مجرد طفرة أو حالة. حتى الرعشة.. رعشة الحلم.. أو رعشة العلماء عندما يرتعشون، فذلك لأنهم فكروا من قبل طويلاً. فهذه الحالة هي أيضاً نتيجة شغل سابق.. نتيجة مماحكة.. وليس بالضرورة أن تكون على الورق.. ربما تكون بالجسد.. وربما تكون بالفكر. الإنسان يفكر باستمرار على طول ما تكون لديه البذرة، أو تنمو فيه البذرة، أو يحبل بالفكرة، وهو يتمخض دون أن يعلن ذلك.

* وحتى بعد هذه اللحظة إذا سميناها إلهاماً كما يسمون.. بعدها ينبغي أن ينظر الشاعر إلى هذا المولود فيغسله مثلاً ويلبسه..

ـ نعم. أنا عندي نظرية طريفة وآمل من الله تعالى أن يمنحني القوة والعنفوان حتى أتمها، وهي أنني أريد أن أجد هذه الروابط بين لحظة الخلق الإبداعي، ولحظة الخلق الإنساني. كلمات مثل: الوحم، مثل: المخاض، مثل: الإرهاص.. كلها موجودة في العملية الشعرية.

* إذن نستخلص من هذا الكلام أن قصيدة وكلمة منصف الزغني هي كلمة مقطرة، فهل تعطينا أمثلة، قبل أن نواصل الحوار..

ـ مثلاً، كتبت مجموعة من القصائد القصيرة جداً جداً، سميتها «حبات»، منها واحدة عنوانها: «حبة»، تقول:

«من حبة مدفونة..
تطلع القبة..
خضراء..
ومجنونة».

وهناك حبة أخرى عنوانها «نواة»، تقول:

«قشري ضحكتي..
تجدي دمعتي»..

وحبة ثالثة عنوانها «تعاون»، تقول:

«السيجارة في شفتيها..

لا كبريت لديها..

وأنا ساكت..

مثل النار».

وحبة رابعة بعنوان «توابل»، تقول:

«السمكة الطويلة.

على طاولة الضيوف..

عليها عرق بحارها..

وشهوة طاهيها..».

وحبة خامسة بعنوان «شوق» أقول فيها:

«إني انتظرتك وانتظرتك وانتظرتك وانتظرتك..

يا أيتها الوردة..

حتى طال الشوك..».

وحبة أخيرة بعنوان «الحقيقة»، تقول:

«عند الساعاتي لا توجد ساعة..

عند الساعاتي لا توجد ساعة واحدة..

عند الساعاتي لا توجد ساعة واحدة بها وقت..

عند الساعاتي لا توجد ساعة واحدة بها وقت مضبوط».

* بعد هذه الحبات من الشعر المقطر التي تتضمن كل حبة منها معنى أو حكمة أو خلاصة تجربة أو رؤية في الحياة وفي الحب.. إلى آخره.. نبدأ في متابعة رحلتك الشعرية. أنت منذ البداية طلعت على الناس بهذه النغمة المتفردة، فماذا قدمت من أعمال.. دواوين.. على التوالي؟

ـ في الحقيقة هناك ديوان مخفي. ثم هناك ديوان ظهر أولاً عنوانه «عناقيد الفرح الخاوي» سنة 1981، ثم «عياش» وهو قصيدة طويلة، سنة 1982، ثم قصيدتان طويلتان: الأولى اسمها

«حنظلة العلي»، وهي قصيدة استمر تأليفها عامين تقريباً، من لحظة إطلاق الرصاص على ناجي العلي إلى ما بعد الذكرى الثانية لرحيله. وهذه القصيدة حاولت أن أرصد فيها تجربة الصحافي العربي إجمالاً وعذابه مع الصحافة، وعذابه مع الوطن ومع العدو ومع بني وطنه أيضاً، وأنا كذلك موجود فيها كأحد الناس الذين ختن مقص رئيس التحرير كلماتهم، كما يرد في هذا الديوان، القصيدة.

ثم هناك تجربة لكتابة قصيدة ملحمية بدأتها سنة 1980 وأنهيتها سنة 1988.. أي ثماني سنوات وأنا أريد أن أنهيها في هذا القرن، لأني أنهيت الجزء الأول، وبقي جزآن أود أن أنهيهما في هذا القرن.. يعني لا أريد أن أشتغل عليهما في القرن القادم.. بالعكس فأنا أرشح نفسي للاستقالة من القرن القادم، لأنه إذا كان ما كتبته في القرن العشرين لا يستطيع أن يكون ذا صدى في القرن القادم فلا فائدة من كتابتي في القرن القادم إلا إذا أردت أن أراسل القرن التاسع عشر..

* والعمل التالي؟

ـ هو هذا.. «قوس الرياح» الذي ظللت فيه هذه المدة..

* يعني هو الذي يشغلك الآن؟

ـ هو الذي يشغلني منذ سنة 1980. أنهيت الجزء الأول منه ونشرته وعنوانه «قوس الرياح»، وفيه أحكي عن صورة الدكتاتور.. الدكتاتور ومختلف تجلياته، وأنتهي إلى أطروحة مفادها أن الدكتاتور هو صناعة شعبية وليس تسلطاً هكذا.. هو صناعة شعبية يساهم الشعب الكريم في صناعته وخلقه بيديه الكريمتين..

* يعني كما قال ثوار كبار: إن السكوت عن الظالم هو الذى يجعله ظالماً..

ـ نعم.. وقد قالوا في المثل الشعبي: «يافرعون شو اللي خلاك طاغي؟ قالك مالقيتش حد يردني».. هذا مثل شائع هنا في مصر.

* حسناً!.. هذه الأعمال تقبلتها الجماهير بقبول حسن، ليس فقط كأعمال مكتوبة ومنشورة،

وإنما أيضاً كأعمال مقروءة، فلعلك أحد الشعراء القلائل في الوطن العربي الذين ارتبط شعرهم بأدائهم الصوتي، وحتى وأنت تقرأ لي الآن بعض مقطوعاتك تضع فيها من صوتك ومن صمتك ومن تلوين أدائك معاني كثيرة تعبر عن رؤيتك ومعاني كلماتك..

ـ أنا مظلوم.. أنا المفروض أحشر ضمن المغنين، لأني أحب أن أكون في مستواهم المالي! وأنا متحكك، أنا لا أترك القصيدة.. وإنما أحملها.. وأحنو عليها أحدب عليها.. أنكب عليها.. أنا حنون عطوف..

* يظهر هذا جلياً في أدائك أمام الجمهور..

ـ نعم أنا أحب قصيدتي وأحب نفسي، ولذلك مفروض علي أن أحب الجمهور، ليس كرماً مني، بل هذا معناه أنانية أن تحب إنتاجك وأن تعطف عليه وأن تتقنه وتجوده وتقدمه في أحلى ما يمكن من الصور، خاصة أني قدير على ذلك، كما أثبتت التجارب المنبرية.

* لعل هذا كان وراء تجربتك الطريفة بتسجيل أعمالك على شريط «كاسيت» متداول؟

ـ طبعت مرة سنة 1982، ولكن عندنا في العالم العربي بورجوازيات غبية، يعني لا تفهم أن الشريط للبيع. لذلك لم يأت أحد لشرائه. وأنا ذهبت إلى أحدهم فقال لي: الشعر لا يباع.. وما إلى ذلك. لذلك لا بد من جهد آخر، وأنا لا أستطيع أن أكتب القصيدة، وأن أسعى لإيصالها إلى الجمهور. نفسي زهدت حتى في النشر، وزهدت حتى في اللقاءات..

* لكن في المحافل الأدبية.. الحقيقة ـ كما لمسنا جلياً ـ أنت تقابل بحب، وبإعجاب، وبتمسك بك على المسرح أو المنصة..

ـ شكراً لك.. والله ـ كما قلت لك ـ كلامي ليس فيه أي مداهنة، وهو أنني أحب قصيدتي وأحترم الجمهور. إذا احترمت الجمهور فإن الجمهور سيحترمك حتماً. وهناك أيضاً شيء من السر، هو: الوقفة، وربما أنا أتهم أيضاً بأنني ممثل. وهذه من التهم الجميلة، ولكني أقول: إنني قادر فقط على إيصال قصيدتي. ربما كنت ممثلاً، لكن هذا الممثل عاجز عن أن يلقي نص غيره.. هو الذي يؤلف النص ويلقيه..

* إذن دعنا نتخيلك على المسرح وأنت تقرأ لنا إحدى قصائدك، ختاماً جميلاً لهذا اللقاء..

ـ قصيدة «أرض الأحلام الضيقة»:

«حين بلغت شهوري التسعة،
كنت مللت العوم..
في حوض الأم..
حين نزلت بلا رجعة،
وشممت هواء الأرض،
وبكيت لأول مرة،
قطعوا حبل السرة،
فحلمت بأن أحبو حراً..

***

حين حبوت،
بالمشي حلمت..

***

حين مشيت،
بالجري حلمت أن أسابق الرياح
وددت أن أصير ذا جناح،
وحسدت العصفورا..

***

عندما كنت صغيراً،
وحلمت بأن أكبر،
اخضوضرت اللحية، واحمرت عيناي..

***

حين رأيت الحزن العارم،
لف العالم،
وطنت العزم على تغيير العالم..

***

حين خرجت من السجن بتهمة تدمير العالم،
كنت حملت النظارات الطبية،
وحلمت بتغيير نفسي..

***

حين دخلت القفص الذهبي،
غيرتني زوجتي، والأولاد كبروا،
وحلموا بتغيير العالم..
بصراحة، خفت عليهم،
وهددتهم بتغيير أمهم..
لكن الأولاد نصحوني بتغيير النظارات،
وهددوني بتدمير البيت!».

* * *



18

الشاعر العربي الإماراتي
هاشم الموسوي[1]

بين الشعر والدبلوماسية

على الرغم من عزوفه المعروف عن أضواء الحياة الأدبية، وغبار معاركها.. وعلى الرغم من إقلاله الملموس في إنتاجه الأدبي.. فإنه ـ بحكم أصالة موهبته، وبحكم تمكنه من أدوات فنه، وبحكم مستوى إبداعه، عميق الحضور في الساحة الأدبية. وحينما يعد الشعراء الموهوبون من أبناء الإمارات فإن اسمه دائماً يكون بين الصف الأول منهم. لذلك كان من أوائل من سجلنا معهم حوارات لبرنامج «لآلئ من الخليج» عام 1979. وفي صيف عام 1983 تقرر أن يسافر لاستكمال الدراسة في فرنسا، وقبيل السفر، أجرينا معه هذا الحوار ونشر في الصفحة الثقافية بجريدة «الاتحاد» في 4 أغسطس 1983..

* الملاحظ أنك عزوف إلى حد التحفظ عن المشاركة النشيطة في الحياة الأدبية في الإمارات.. فلماذا؟

وهل لطبيعة عملك الدبلوماسي في الخارجية أثر في ذلك؟

ـ أنا من البداية أحب أن أكون صريحاً معك.. وفيما يتعلق بالشعر فإني بطبيعتي مقل.. فالحقيقة أنا من النوع الذي لا يحب أن يقحم قريحته في ميدان الشعر، ما لم يكن هناك تهيؤ

(1) ولد عام 1945.

نفسي داخلي. وعلى ذلك فإن إنتاجي هو أقل مما هو مطلوب في الساحة الأدبية. لكن هذا لا ينفي أثر الحياة الوظيفية.. فهي بطبيعتها لها شواغلها، والحياة اليومية كذلك، والحياة الاجتماعية أيضاً لها مشاكلها.

* أنت تكتب منذ سنين طويلة.. فمتى نرى ديواناً من أشعارك؟

ـ الحقيقة أن المجموعة التي كتبتها تعتبر قليلة بالنسبة لكتابات غيري.. فأنا أكتب من منتصف الستينيات، ونحن الآن على مشارف منتصف الثمانينيات.. ومع ذلك فإن ديواني الذي سيصدر قريباً إن شاء الله يضم أربعين قصيدة.. وهناك بعض القصائد الأخرى ستصدر في مجموعة أخرى إن شاء الله في المستقبل.. لكن كل ذلك على العموم يعتبر قليلاً بالنسبة لحياة أدبية معطاءة.

* هل تعطينا فكرة عن الديوان الذي تعدنا بقرب صدوره؟

ـ الواقع أن قصائده أكثرها سبق نشرها في صحف الإمارات.. وقد رتبتها في ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى: وتضم أشعاراً في الرسول الكريم، وفي أهل بيته الطيبين الطاهرين.

والمجموعة الثانية: هي خليط من الشعر السياسي والاجتماعي يتناول هموم الوطن والناس والمجتمع وهموم النفس وتأملاتها.

أما المجموعة الثالثة: فتضم قصائد الغزل أو ما يسمونه بالوجدانيات، وإن كنت أميل إلى تسمية «الغزل»؛ لأن كلمة «الوجدانيات» مدلولها أعم من «الغزل».

* في أي مجال من هذه المجالات تجد ذاتك أكثر ويسخو فيه عطاؤك؟

ـ أعتقد ـ وربما تلاحظ ذلك في الديوان ـ أن الجانب الاجتماعي والسياسي هو الجانب الأهم الذي يكثر فيه عطائي من الشعر.

* أثناء إعدادك للديوان ومراجعتك لقصائدك البواكير، هل لاحظت تطوراً في فنك؟

ـ هذا سؤال محير بعض الشيء.. فمن الصعب أن يقيّم الشاعر نفسه.. وإن كان الشاعر في رأيي يمارس عملية نقد وهو يمارس عملية الكتابة.

على أي حال عندما عدت إلى بعض القصائد التي كتبتها في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، لم أجدها أقل مستوى مما أكتبه اليوم.. ولست أدري إن كان ذلك عائداً إلى نفس الطبيعة الكامنة في داخلي، وهي أنني لا أجبر القريحة على كتابة الشعر.. أو أن للنقاد وجهة نظر أخرى.. والواقع أنني أثبت تاريخ كتابة كل قصيدة في الديوان، من أجل النقاد.

* أي أبواب المعرفة تميل إلى القراءة فيها أكثر؟

ـ ليس هناك بالتحديد اتجاه معين في القراءة.. القراءة عندي تشمل ميادين الأدب والشعر والنقد والتاريخ، وأحياناً أقرأ بعض الكتب الفلسفية أو الاجتماعية.. لكن قراءتي في الأغلب الأعم تدور حول قضايا الأدب والتاريخ.

* من شاعرك اللصيق بوجدانك أكثر من غيره؟

ـ قرأت كثيراً للشعراء القدامى.. من الجاهليين إلى شعراء العصر العباسي.. لكن الشاعر الذي ظل يلازمني طوال حياتي هو «الشريف الرضي».. ولذلك أحفظ له الكثير من القصائد، وإن كانت أقربها إلى قلبي رائعته «يا ظبية البان» التي يقول فيها:

يا ظَبيَةَ البانِ ترعى في خَمائِلِهِ	لِيَهنكِ اليَومَ أَنَّ القَلبَ مَرعاكِ
الماءُ عِندَكِ مَبذولٌ لِشارِبِهِ	وَلَيسَ يرويكِ إلّا مَدمَعي الباكي
هَبَّت لَنا مِن رِياحِ الغَورِ رائِحَةٌ	بَعدَ الرُقادِ عَرَفناها بِرَيّاكِ
ثُمَّ انثَنَينا، إذا ما هَزَّنا طَرَبٌ	عَلى الرِحالِ، تَعَلَّلنا بِذِكراكِ
أنتِ النّعيمُ لقَلبي وَالعَذابُ لَهُ	فَمَا أَمَرّكِ في قَلبي وَأَحلاكِ

* هل تلاحظ في شعرك تأثراً بها، كأن تكون عارضتها مثلاً؟

ـ لا.. لا أعارضها.. ولكن ربما سارت قصيدتي عن الإمارات في عيدها الثالث على منوالها وإن اختلف الموضوع.. حيث قلت:

مـرحـى لـيـومـك دولــة الأمـجـاد   كـم كنت أرقـب فـي الـزمـان ضحاك
فــإذا بــك الـيـوم استـقـمـت فتية   مــلء الـزمـــان شـبـابـك وصــداك

* فأي أعمالك أقرب إلى قلبك؟

ـ هناك عدة قصائد قريبة إلى قلبي.. لكنني أراني كثير الشغف بقصيدة أو مقطوعة قلتها في بغداد عام 1972.. ربما لارتباطها بتخرجي من جامعة بغداد وقتها، ولأنها جاءت في آخر أيامي الدراسية، فارتبطت بذكريات الدراسة والحياة الجامعية هناك والأصدقاء والزملاء والحفل الذي ألقيت فيه.. علماً بأنها قصيدة غزلية أقول فيها:

فـي عـالـم الـحـب أنغامي وأشـعـاري   صــارت مـرفـرفـة تمشي على النار
وفـي لظى الحب قد أحرقت قافيتي   ألهبتها حمماً مـن مدمعي الجاري
حبرتها مـن دمــي، أوردتـهــا كبدي   كمنهل لـلـهـوى الـعــذري ثـــرارِ
حبيبتي لــم يـنـم إلا عـلـى شفتي   اســم فـرشـت لـه قلبي وأشـعـاري
وســدتـه مـقـلـة فــاضــت مـعـطـرة   بـمـدمـع فـي هـــواك الـطـهـر مـــدرار

* وأحدث إنتاجك؟

ـ أحدث إنتاجي قصيدة كتبتها بمناسبة مولد الإمام السبط الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام.. وهي لم تنشر، وإنما ألقيت في الاحتفال بالمناسبة في أحد مساجد أبوظبي، وعنوانها «يا أول الغرس» ومطلعها:

ينبوع فيضك يــروي غلة الظامي   يـا مصدر الخير، يـا عـزي وإلهامي
هـذي القلوب ظماء أجدبت وغدت   جـــرداء مـن أمــل فـي الـنـفـس بـسـامِ
في ربقة الأسـر أضحت وهـي جاهلة   بـأسـرهـا مـــن لـئـام جـــد ظـــلامِ
مـأخـوذة بـالـذي قـد صيغ مـن خدع   يـا لـلـرزيـة فـي أهــلـي وأقـوامـي

* تشهد الساحة الأدبية بين الحين والآخر حوارات ومعارك أدبية، ومع أننا نعرف عزوفك عن المشاركة فيها، إلا أننا نحب استطلاع رأيك فيما يثار فيها من قضايا.. ولنبدأ بقضية الشعر الحديث.. أو نسق التفعيلة؟

ـ أنا واضح في هذه القضية، ورأيي قلته في عدة مقابلات أجريت معي.. وأنا أؤكده الآن فأقول إنني لا أعارض الشعر الذي يتخذ من التفعيلة أساساً له.. لكنني شخصياً لم أجربه بعد، ولم تمل إليه نفسي بعد.. وأجد نسق البيت العمودي المقفى طيعاً وملبياً لحاجاتي في التعبير.

* والنثرية في الشعر أو قصيدة النثر؟

ـ هذه أنا لست معها أبداً.. ولم أقرها.. ورغم أنني لا أدري ما سيحدث لي في المستقبل، إلا أنني أعتقد أنني لن أقرها في يوم من الأيام.. وأرى أنها نثر.. لا شعر..

* من القضايا المطروحة قضية الإسراف في نشر كتابات الناشئين، بصورة قد لا تساعدهم على إنضاج مواهبهم وقدراتهم.. فما رأيك؟

ـ من رأيي.. أنه ـ في دولة ناشئة كالإمارات ـ لا بد من إعطاء أوسع الفرص للشباب الناشئين.. لكن هذه الفرص يجب أن تشفع بنقد صادق بناء للأخذ بيد الشباب الناشئ إلى الأفضل والأحسن.. فالشعر أو أي إنتاج أدبي آخر إذا لم يعط فرصة للنشر، فلن تكون هناك نتيجة مرضية بالنسبة لهذا الأدب.

* ما تقييمك بشكل عام لمستوى الإنتاج الأدبي في الإمارات؟

ـ الحقيقة هناك مجموعة لا بأس بها من الشباب قدمت إنتاجاً جيداً في مجال الشعر بالذات.. فالإنتاج الذي قدمه الأخ حبيب الصايغ والأخ أحمد راشد ثاني هو موضع تقديري.. وكذلك الأخ عارف الخاجة وبعض الشعراء الشباب الآخرين.. الأمر الذي يجعلني أشعر بالرضا إلى حد ما تجاه الإنتاج الأدبي في الإمارات.

* فماذا عن الإنتاج الناشئ؟

ـ الحق أنني أحبذ أن تكون هناك تقسيمات في الصفحات الأدبية.. وأنت تعرف أنه ليس لدينا حتى الآن مجلة أدبية متخصصة، وكل ما لدينا زوايا متخصصة في هذه الجريدة أو تلك.. لذلك أرى ألا يخلط الشعر الناضج بالشعر الناشئ.. وإنما لا بد أن تكون هناك صفحات أو زوايا مميزة لهذا، وصفحات أو زوايا أخرى لذاك.

* ماذا تقول عن النقد الأدبي في صحافة الإمارات؟

ـ في رأيي أن أي نقد ـ حتى النقد المنهجي ـ لا يخلو من التموجات الذاتية وتدخل العوامل النفسية الشخصية في الحكم على العمل الأدبي.. وقد استخلص ذلك الدكتور محمد مندور في دراساته عن النقد المنهجي مستشهداً بأقوال كثير من كُتاب النقد في الغرب.. لكن المهم الذي ينبغي الحرص عليه أن يكون الناقد أقرب إلى الموضوعية، وأقرب إلى الصدق في نقده، وأن يكون في اعتباره بالدرجة الأولى العمل الأدبي.

لكننا إذا نظرنا إلى واقع النقد السائد في الإمارات وجدناه نقداً صحفياً، يفتقر إلى مقومات النقد الأدبي المنهجي بالمعنى الصحيح.. كما يبدو لي أن هناك عوامل شخصية توجه هذا النقد السائد بعيداً عن الموضوعية.. وبطبيعة الحال فإن نتيجة ذلك وأثره ليس سوى الفوضى.

* مما لا شك فيه أن هذا الواقع هو همّ من هموم الحركة الأدبية في الإمارات.. ما هي الهموم الأخرى في نظرك؟

ـ أنا شخصياً أتمنى أن تهيأ أجواء سليمة، وتعطى فرص أوسع للشعراء والأدباء والنقاد ليقدموا عطاء على مستوى النهضة التي نعيشها اليوم.. لكننا للأسف الشديد نفتقد الكثير من هذه الأجواء وهذه الفرص.. فلا رابطة للأدباء.. ولا مجلة متخصصة.. ولا منتدى أو نادي.. والنتيجة بطبيعة الحال هي عدم التجمع، وعدم الالتقاء بين الكُتاب والأدباء، وبالتالي الركود..

* ما رأيك في مدى حضور أدباء الإمارات في الحياة الأدبية العربية ومشاركتهم في الصحافة الأدبية التي تصدر في الخليج أو تفد إلى الخليج؟

ـ الحقيقة أنني لا ألاحظ إلا عدداً قليلاً جداً من الشباب في دولة الإمارات ممن يكتبون في الصحف والمجلات الخليجية أو العربية بشكل عام.. وقد يكون ذلك إحجاماً منهم، وقد يكون بسبب عدم انتباه هذه الصحف والمجلات إليهم، وقد تكون هناك عوامل أخرى لا أعرفها.

* ما تقييمك لدور أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية في الإمارات في الحياة الثقافية؟

ـ ينبغي أن أكون واضحاً هنا.. فالحقيقة أن الإذاعة والتلفزيون قدما لنا الكثير.. من لقاءات

بالكثيرين من الأدباء والشعراء من الإمارات، ومن منطقة الخليج وخارجها.. وعطاؤهما في الناحية الأدبية لا ينكر، والجهد الذي قدماه مشكور.. ولكن طبعاً مطلوب أكثر.

* نعود إلى قضايا المعارك الأدبية.. لنسألك عن قضية الغموض والإبهام المتفشي في الشعر الحديث؟

ـ هذه النقطة أيضاً تحدثت عنها كثيراً.. وفي الحقيقة أنا لست مع هذا الغموض المبهم، ولا أميل إلى ما فيه من رموز.. فالرمز عندي لا بد أن يكون موحياً، بحيث إذا قرأ الإنسان أو على الأقل الأديب قطعة من الشعر استطاع أن يدرك منها ما يدور في نفس الشاعر.. أما إذا لم يستطع أن يدرك شيئاً مما في نفسه فإن الحاصل سيكون صفراً.

* نصل إلى القضية الأخيرة.. أو لعلها القضية الأولى.. وهي: لماذا الشعر في رأيك؟

ـ أنا أعتبر أن الشعر يلبي حاجة في النفس الإنسانية كانت، وما تزال، وسوف تبقى.. فطالما هناك إنسان.. وطالما هناك شعور وإحساس، فلا بد أن يوجد الشعر، وهذا أمر مفروغ منه في رأيي..

* فهل يرتبط ذلك بدور أو رسالة له في الحياة؟

ـ الحقيقة أنني ألزم الشاعر بفنه بنفس المستوى الذي ألزمه بمجتمعه.. بمعنى أنني لا أريد للشعر أو للفن أن يكون للفن وحده.. كما لا أريد للشعر أو للفن أن يكون مجرد أداة للمجتمع.. كلا.. فالشعر إذا أصبح مجرد أداة للمجتمع فقد فنه.. وإذا عاش لنفسه فقط نسي هموم الوطن وهموم المجتمع.. فلا بد إذن من أن يكون الشعر نسيجاً من هموم النفس وهموم المجتمع في قالب فني على المستوى المطلوب.

* إلى أي مدى يتحقق ذلك في الشعر العربي في عصرنا الحاضر؟

ـ الواقع أن تتبعي للحركة الأدبية في الوطن العربي أصبح محدوداً في الفترة الأخيرة.. لكني أعرف أنه في الستينيات وبداية السبعينيات كان الشعراء يقومون بدورهم الصحيح أو على الأقل دورهم المستطاع، من الناحية الفنية ومن الناحية الاجتماعية.. وقد كانت مهرجانات الشعر هنا

وهناك تدل على أن الشاعر العربي كان ملتزماً بقضايا الوطن والأمة، وكنا في الوقت نفسه نرى إنتاجاً على مستوى عالٍ من الفن والذوق والأسلوب.

* أخيراً.. ماذا عن سفرك القريب؟

ـ الحقيقة أنني فكرت في أن أستزيد من الدراسة.. فعصرنا عصر تطور، وعصر آفاق جديدة ينبغي للإنسان أن يحاول متابعتها.. فقررت أن أسافر إلى فرنسا لاستكمال الدراسة لدرجتي الماجستير والدكتوراه في العلوم السياسية.. وذلك بلا شك سيتيح لي أن أزاوج بين الأدب والسياسة، وبين الثقافة العربية والثقافة الأجنبية.. إضافة إلى أن اكتساب لغة جديدة قد يفتح أمامي آفاقاً جديدة من المعرفة ومن الشعور..

* بالتوفيق إن شاء الله، وفي أمان الله.

من الجدير بالملاحظة أن كثيراً مما شكا الشاعر افتقاده من وسائل خدمة الحياة الثقافية، ومما تمنى توافره في المجتمع، سرعان ما تحقق وبوفرة ومستوى فائق، وذلك في إطارمسيرة النهضة المتسارعة للإمارات الفتية.

* * *



19

الشاعر العربي الكويتي

يعقوب السبيعي[1]

شاعر الحب والغناء

يعقوب السبيعي، نجم لامع من نجوم الشعر في رابطة الأدباء في الكويت. له بريقه المتميز، بالتزامه بتقاليد القصيدة العربية العريقة في فصاحتها وموسيقاها، ونجاحه في تناول معاني عصره بها..

بدأت رحلته مع الشعر قبيل منتصف الستينيات، حيث عرفته محافل الأدب في الكويت صوتاً شجياً، وفي عام 1979 أصدر ديوانه الأول ـ الذي احتفى به الأدباء ـ «السقوط إلى الأعلى».. ثم واصل عطاءه، فأصدر بعده ديوانه الثاني «مسافات الروح»..

فمن يعقوب السبيعي؟

هذا ما يوضحه بجلاء حوارنا معه.. وتوضحه أيضاً تلك الأبيات التي أفضى بها حين طلبت منه ـ في بدء الحوار ـ أن يقول شعراً من هو؟ قال:

يـــا دور.. يـــا ريـــح.. إنـــي	لـــــلآتـــــيـــــات أغـــــنـــــي
لـــلـــقـــاطـــعـــات حـــــواراً	بـــيـــن الـــضـــيـــاع وبـــيـــنـــي
لـــلـــســـارقـــات فـــــؤادي	مـــــن الـــــغـــــرام ومـــــنـــــي

(1) ولد عام 1945.

سجل هذا الحوار مع الشاعر في رابطة الأدباء بالكويت في يونيو 1982، وأذيع كحلقة من البرنامج الثقافي الرمضاني، في الثالث من شهر يوليو 1982، ثم نشر نصه في الصفحة الثقافية بجريدة «الاتحاد» في يونيو 1985.

لـلــراسـمــات جـنـاحـي نـســراً بـريـشـة ظـنـي
لـكـل صـوت مـضـيء حـاشـاه مـا لـيـس يـعـنـي
يـا ريـح.. يـا دور كـونـي خـلـفـي.. ويـا خـلـف دعـنـي
لـبـسـت عـشـريـن عـامـاً ثـوب الـهـوى والـتـمـنـي
وقـد تـأنـيـت حـتـى كـرهـت فـضـل الـتـأنـي

* نبدأ الحوار بنقطة ضوء على تكوينك الثقافي، من حيث الدراسة، ومن حيث الاطلاع الثقافي..

ـ بدأت، كالعادة في الكُتاب، ومن ثم انتقلت إلى المدرسة الابتدائية فالمتوسطة ثم الثانوية.. لكني لم أكمل المرحلة الثانوية، لأسباب وظروف جعلتني أتجه إلى الناحية العملية في الحياة.. أعني أن حظي من التعليم المدرسي محدود.

* واضح أنك عوضت ذلك بالاطلاع..

ـ للأمانة، لم يجئ اطلاعي تعويضاً عن انقطاع الدراسة، وإنما جاء تلبية لرغبة أساسية في النفس.. فخلال دراستي الثانوية، كانت المدرسة بعيدة عن المنزل، الأمر الذي اضطرني إلى أن أقيم في السكن الداخلي للمدرسة، فاتسع علي وقت الفراغ، فاتجهت إلى المكتبة حيث وجدت نفسي أغترف من الكتب الأدبية..

وتابعت رحلة الحرف والاستيعاب والتعامل مع كتب اللغة أو كتب التراث العربي.. وكان أول ما قرأت ـ كما أذكر ـ كتاب «الأغاني» الغني بالطرافة والسرد الروائي الذي يقترب من النفس اليافعة والشابة. ومن أبي الفرج الأصفهاني انتقلت إلى ابن قتيبة، والمسعودي، ثم أمهات كتب التراث. ومن هنا، من المدرسة الثانوية، ابتدأت الرحلة مع التراث العربي.

* لعله من المفيد أن نضرب مثلاً على لغتك الأدبية التراثية وأثرها في فنك، بقصيدة يظهر فيها النفس التراثي العريق..

ـ مثلاً.. عندي قصيدة بعنوان «إليها» تصور هذا الجانب إلى حد ما.. حيث أقول في مطلعها:

نقلت إليها الدهر، لو ينفع النقل فلا بعدها بعد، ولا قبلها قبل
ولا دونها لي في الحياة رغائب أعانقها حلماً، ولا حولها حول
هي اللذة الكبرى، هي الخد باسماً هي الكل أو من بعض أنوارها الكل
هي المنتهى والبدء والصوت والصدى وكل الذي في الأرض والخصب والمحل
وكل الذي في الأرض صعب معطل إذا ما نأت، والصعب في قربها سهل
حفظت لها سمعي ونطقي ونظرتي وأخلصت للأشواق قلباً بها يعلو
ووسدتها صدري وفي القلب دمعة فبين الهوى والخوف يتصل الفصل
وما كان لولا الخوف للعقل وقفة وما شع لولا الحب قلب ولا عقل

* الحق أن هذه القصيدة، كما تشير إلى لمحة التأثر بثقافتك التراثية، تشير أيضاً إلى النفس الصوفي المفعم بقيمة الحب، فهل لهذا صلة بما اشتهر عنك من أنك من أبرز شعراء الحب والغزل في الكويت؟

ـ صحيح أنا من شعراء الغزل والحب، من الناحية الشكلية، أو هو صحيح إلى حد ما. ولو نظرنا إلى هذه القصيدة الصوفية، فإننا سنجدها تنطلق من منطلق المحبة، أو هكذا تبتدئ القصيدة. إذن فالمحب.. أو الحب.. أو التحدث بهذا اللسان المحب.. هو خير موصل إلى شتى المناحي.. بمعنى آخر أني آخذ الحب وسيلة للوصول إلى غايات أخرى حبيبة.. أرتدي لها متزيناً لباس المحبة والتغزل.. هذا إذا لم يكن الحب ذاته غاية للقصيدة..

* قبل أن نوغل معك في بحر الحب، دعنا نطل على معنى آخر من المعاني التي تناولتها في قصائدك، وإن كنا سلفاً نعرف أن روح العاطفة والحب ستكون سارية فيه..

ـ هناك قصيدة بعنوان «قال الراوي» وهي أولى القصائد التي قربتني إلى المتلقي، وعرّفت المهتم أو القارئ بيعقوب السبيعي.. وفيها أقول:

مسحوا العدل بصدري، ثم قالوا: أنت ظالم
وحشوا بالوهم عينيّ، وقالوا: أنت واهم
ثم خاطوا جفني الأسفل بالأعلى، وقالوا أنت نائم

لطخوا بالدم أشيائي.. وقالوا: أنت آثم
قتلوني بضع مرات، وها ما زلت قائم
قد ترددت كثيراً بين خوف وأمان
فعقرت الفرس الواثب بي خوف الحران
وكشفت الصدر للخنجر في كف جبان
وغرست السنبلات الخضر في شر مكان
فإذا بي غرض الرامي إذا اشتدت يدان

***

كنت أرضى بمصيري لو أرى الوردة ترضى
ربما يدفن غيري حينما يقتل غضا
نعشي الفارغ لن تحمله أكتاف مرضى
لن يواري القبر صدراً قتل الظلماء بغضا
سوف أذرو من عظامي البيض في الأحداث ومضا
وسأبقي ظفري النابت للمشبوه رفضا
فإذا صغت طبول الغاب للخفاق نبضا
ورأيت الغيم يبني لعطاش الطير حوضا
فسأرضى.. وسأرضى..».

* على الرغم من أن ما قدمت من أبيات يشير إلى خصائص شعرك، ومع التسليم بأن الحديث عن هذه الخصائص والملامح هو من مهمة النقاد، فإننا نسألك عن هذه الخصائص والملامح التي تحس أن كلمتك تتميز بها..

ـ ربما لا أستطيع إيفاء هذا السؤال حقه من الإجابة، لكني أحاول فأقول: إني أحرص على أن أكون صادقاً مع نفسي فيما أسكبه على الورق.. وأن أكون موصلاً بطريقة جميلة إلى المتلقي ما أريد إيصاله.. بمعنى آخر أحاول أن تكون اللفظة أو المفردة مستوفية للشروط التالية:

أولاً: أن تكون عربية فصحى لا ينالها مأخذ من ناحية اللغة.. وثانياً: أن تكون مؤدية للمعنى الذي أريد إيصاله إلى المتلقي أو السامع..

إذن فالصدق مع الذات.. واعتنائي الشديد باللفظة المؤدية.. هما أبرز الملامح في شعري. كذلك أحرص على ألا تكون هذه اللفظة على حساب الموسيقى.. أو على حساب السهولة.. سهولة الإيصال وسهولة المعنى.. بمعنى أنني أتجنب الحوشي من الكلام والكلمات المعجمية. إن حرصي على اختيار اللفظة الفصحى لا يعني الإيغال في الكلمات والمفردات التراثية. لذلك تأتي القصيدة في شكل يهيأ لي أنها توصل إلى السامع أو القارئ ما أريد قوله، وأيضاً صورة تستحق أن يصغي لها بعض الشيء..

* اسمح لي أن أضيف لمحة الوضوح التي يظهر حرصك عليها لتوصيل ما تريد من معانٍ إلى وجدان وعقل القارئ، من دون غموض.. أو رموز مغلقة.. يستحيل تفسيرها واستيعابها من المتلقي..

ـ هذا صحيح، لأني أعاني الأمرين من هذا الغموض في قراءاتي لبعض الآخرين.. وقد كنت في السابق أتهم نفسي بالقصور عن إدراك ما يريد هذا الشاعر أو هذا الكاتب قوله، بسبب رمز لا أستطيع حله أو الوصول إلى مفتاحه.. وكان اتهامي لنفسي ينبع من التقدير والقداسة التي كنا نضفيها على الكتاب والشعراء..

وفي ممارستي للكلمة، ومع مرور الوقت، تيقنت من أن هذا الرمز المطلسم المغلق هو شيء يتدثر به الكاتب لكي يخفي قصوره عن إيصال المعنى. بمعنى آخر حينما أقرأ شيئاً، أو حينما تقرأ شيئاً لا تستطيع أن تفهمه لا تتهم نفسك بالقصور، بل القاصر هنا من كتب هذا الكلام، لأنه لم يستطع إيصال المعنى إليك..

من هنا.. يكون الرمز ـ إذا جاء مغلقاً مطلسماً ـ دليلاً على قصور باع كاتبه، أو في أحسن الاحتمالات، دليلاً على فوضويته.. وعدم إمساكه بزمام الكلمة.. وإهداره لجمالياتها وقيمها..

إن الرمز مطلوب إذا كان الأمر يتيح لك أن تتجه إلى أكثر من اتجاه.. بمعنى أنه حين أقرأ نصاً شعرياً به رمز خفيف غني، فإن هذا الرمز يغني النص، وأنا أشهد لهذا الكاتب بأنه أثرى الموضوع.. وأنه أعطاني أكثر من اختيار.. أما الرمز القاصر، أو الرمز الذي يوهمك بأنك قاصر عن الفهم؛ فإنه هو القاصر وكاتبه هو القاصر، وليس المتلقي..

* من المعروف أيضاً أنك من الشعراء الملتزمين بحماسة ببحور الشعر، والشكل البيتي للقصيدة..

ـ هذا صحيح، مع اعتراف بسيط بأني وإن كنت أتقن هذه البحور، لا أفقه معناها ولا أعرف على أي بحر أنا أكتب.. وقد يكون هذا مأخذاً عليّ.. فليكن.. لكني وإن كنت كما قلت أجيد التحكم في الوزن.. وأجيد الخوض في بحوره، لو حاولت ترجمة شعري إلى تفعيلات، فإنني ـ للأمانة ـ لا أعرف هذا. وأيضاً لو سُئلت عن بحر قصيدتي هذه أو تلك فإنني لا أعرف، وهذا كما قلت قد يكون قصوراً في يعقوب السبيعي، ولكنني لم أرَ ضرورة تحتم عليّ الوصول إلى هذه التفعيلات وصولاً منهجياً أو أكاديمياً لكي أترجم قصائدي إليها.. لأني لم أجد داعياً لهذه الترجمة، بقدر ما أجد أن الداعي أكثر في الالتزام الصحيح بهذه البحور.. وقد أنتقل من بحر إلى آخر، وقد يكون الانتقال متساوقاً ومتناسقاً مع الموضوع.. لكني لا أكون متعمداً أن أنتقل من بحر إلى آخر.. كما رأيت مثلاً في قصيدة «قال الراوي» حيث تجد فيها تفعيلات في بيت أقل من سابقه، لكن هذا لا يخل بالقصيدة ولا بالسماع الموسيقي لها..

* أنت تجاوزت هذه الصورة، بأن كتبت بعض القصائد بأسلوب التفعيلة..

ـ هذا صحيح أيضاً.. لقد كتبت بأسلوب الشعر الحر أو شعر التفعيلة.. إلى آخر هذه التسميات. ولم أكن قاصداً أن آتي بهذا الشكل الشعري، بقدر ما جاء هو كرداء للقصيدة.. القصيدة جاءت بهذه الصورة.

والملاحظ أننا نجد كثيراً من الغموض في هذا الشعر الحديث، ولذلك حاولت على الأقل ألا يكون هناك غموض فيما يأخذ عندي شكل الشعر الحديث.. وعلى العموم فإن المهم في الأمر هو المضمون وليس الشكل..

* الوضوح في الموسيقى والمعنى، يفتح باب الغناء للشعر.. فهل كتبت الأغنية؟

ـ أنا عضو في لجنة النصوص في الإذاعة، ولعل هذه اللجنة هي التي جرت قلمي إلى كتابة الأغنية.. وعلى الرغم من أنني أعتبر نفسي شاعراً ولست كاتب أغنية؛ فإن زميلي في اللجنة الملحن المعروف، الأستاذ أحمد باقر طلب مني نصاً وطنياً في مناسبة العيد الوطني للكويت، وحصل هذا على استحياء مني، وقد غنته عالية حسين الطالبة في معهد الموسيقى.. وهكذا تعود الأستاذ أحمد باقر أن يأخذ مني نصوصاً، بل إنه تجاوز ـ وأقولها على سبيل التفكه ـ إلى درجة أن طلب مني أن أكتب نصاً باللهجة الدارجة.

* ونفذت ذلك؟

ـ نفذت.. لا أعرف بغير وعي.. المهم أني كتبت نصاً وطنياً بمناسبة العيد الوطني باللهجة المحلية، وغنته أيضاً عالية حسين، وكذلك أغنية «يا وردتي يا ندية» وغنتها طالبات معهد الموسيقى.

* تبقى ساحتك الأثيرة.. ساحة الحب والغزل والعاطفة والقلوب.. وحديثها يحتاج لوقفة..

ـ يحتاج يا سيدي إلى محبة.. بمعنى أن الحب يجب ألا نحصره في موضوع أو إطار معين.. يجب ألا يكون الحب المقصود هو فقط حب الرجل للمرأة.. هذا وارد.. لكنه أحد عناصر المحبة الكبرى. ثم ما قيمة الإنسان إذا لم يكن في صدره قلب..؟

* إجابة مختصرة مكثفة لكنها وافية.. وحبذا لو أكدناها بأبيات من شعرك..

ـ أقول لك أبياتاً من قصيدة «ورقة من سفر الانتظار»:

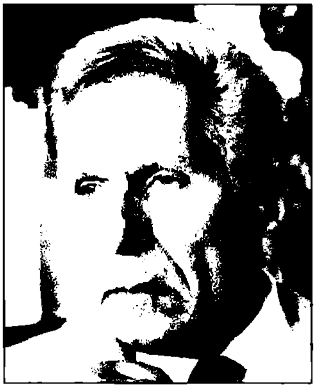
تجمل بالصبر ثم ارتدى ... محاسنه، يرقب الموعدا
ستأتي غداً.. آه يا للمنى ... أما سئمت موجعاً مجهدا؟
أما هرم الصبر في صدره ... وشاخ به الأمل المفتدى؟
لقد جاءه صوتها دافئاً ... أنيق المسار رهيف الصدى
غداً سوف تأتيه في موعد ... بكل عصور الأسى يفتدى
سيطرح في كفها قلبه ... إذا هي مدت إليه يدا
ويسكب في كأسها روحه ... لترشفها.. موعداً.. موعدا
ألا حبذا موعد قد دنا ... ونادى.. فكان الضياء صدى
أتأتي غداً؟ ليتها.. ليتها ... لأصبح كل الزمان غدا

* سؤال أخير.. وهو أن المعروف أن إنتاج الشاعر أو قصائده هي كأبنائه.. كلها عزيزة على قلبه.. لكن أحياناً تكون هناك قصيدة أقرب إلى القلب وأثيرة لديه.. فهل لديك هذه القصيدة؟

ـ نعم.. فالحق أنني دللت قصيدة «السقوط إلى الأعلى» إلى درجة أنني سميت بها ديواني الأول.. ويبدو لي أنها في مقدمة القصائد القريبات إلى قلبي.. ولعل في حفظي لها ـ مع قلة حفظي الشعري ـ دليلاً آخر على قربها من نفسي.. ومن أبياتها:

«أنتِ يا ذات العيون السود يا شهداً مصفى
يا ابتسام الفجر بعد الليل يا أحنى وأوفى
قد تمنيتك يوماً إذ سقيت الراح صرفا
فتمنعت قليلاً ثم قبلتك ألفا
وعلين تهاوينا إلى الأعلى لنشفى
قد سئمنا العشق زرعاً وعشقنا الحب قطفا
نقطف النصف ونبقى للضمير العف نصفا
كان لا يغفو.. ولما ذاق طعم النوم أغفى».

* * *



20

الأديب القاص والروائي المصري
الدكتور يوسف إدريس[1]

قبيل رحيله، زار الأديب الكبير يوسف إدريس الإمارات العربية المتحدة مدعواً من إمارة الشارقة لحضور افتتاح معرضها المتميز للكتاب.

في أثناء تلك الزيارة جاء إلى أبوظبي لرؤية شقيقه القاص الموهوب أيضاً مهندس البترول الصديق أحمد إدريس، الذي رتب لنا معاً سهرة مفعمة بالمودة والإفضاء الحميم. وفي اليوم التالي أجريت معه هذا الحوار التلفزيوني الشامل، الذي كنت حريصاً فيه على تجاوز الأمور الآنية التي تفقد أهميتها بمرور الأيام، والتركيز فيما يبقى، وهو رسم صورة مقربة له (بورتريه كما يقال) تجلي ملامحه، وتبين مواقفه وتجاربه الإبداعية المتنوعة، فضلاً عن دعوته أو صرخته: «أهمية أن نتثقف».

هو إذن حوار لا يتقادم، بل يزيده مرور السنين قيمة وأهمية، وهو ما أرجو أن يلمسه اليوم قراؤه الكرام..

* أنت مهتم ـ منذ سنوات ـ بقضية أهمية الثقافة وضرورتها للإنسان العربي والمجتمع العربي المعاصر، وتلح كثيراً في الحديث والكتابة عن ذلك.. ما أبعاد رؤيتك لهذه القضية وأهميتها؟

ـ في الواقع، ليست هذه أول مرة يتعرض فيها كاتب أو مفكر لقضايا عامة. فمثلاً أستاذنا الكبير طه حسين أطلق صيحة «التعليم كالماء والهواء»، أي بمعنى أدق كان أول من نبه إلى

(1) ولد في 19 مايو 1927، وتوفي في 1 أغسطس 1991.

حق الشعب في التعليم، وهو حق مقدس مثل حقه في الطعام، وحقه في السكن. لكن التعليم أطلق فعلاً، وتبنته تقريباً كل الدول العربية، وأصبح التعليم الابتدائي إجبارياً، وأحياناً الإعدادي وحتى مستوى الثانوية العامة. ولكن بقي أن نطلق صيحة «أهمية أن نتثقف»، لأن التعليم وحده لا يجدي، فالتعليم لا يصنع مواطناً إيجابياً، وإنما التعليم والثقافة معاً يستطيعان صنع ذلك المواطن. فهدفي من هذه القضية الكبرى التي وهبت لها السنين الأخيرة من حياتي هو أن أجعل الثقافة حقاً للمواطن، وحقاً مقدساً مثل حق التعليم. بمعنى أن على الدولة ـ كما توفر رغيف الخبز ـ توفير الزاد الثقافي أو حد أدنى من الزاد الثقافي للمواطن.

* كيف في رأيك يا دكتور يوسف؟ ما الوسائل؟

ـ هذا يكون باستخدام وسائل أهمها طبعاً: الصحافة والكتاب والتلفزيون والإذاعة، لأن هذه الوسائل لا تزال حتى الآن تنقل لنا إما أخباراً أو إنتاجاً من الخارج، وإما بعض الأخبار المحلية، وبعض المقالات.. وهذا في حد ذاته لا يشكل زاداً ثقافياً كافياً.. لذلك فإني أنبه المواطنين والمسؤولين لتكوين رأي عام قوي جداً يتبنى هذه القضية، وينجح في فرضها على الحكومات العربية: أن الثقافة حق للمجتمع، وحق للفرد.. حق للمتعلمين، وحق لغير المتعلمين والأميين.

الفارق بين دعوتي ودعوة الدكتور طه حسين، أنه أطلق صيحته وهو وزير المعارف ـ التربية والتعليم ـ فكانت صيحته مستجابة، وأنا أطلق صيحتي وأنا بلا منصب رسمي ولا صوت رسمي، وإنما أنا مجرد كاتب أو مثقف يدعو فيما يكتبه وفيما يقوله.. إما أن تلقى هذه الدعوة آذاناً صاغية، وأن تطبق، أو أن تعقد من أجلها مؤتمرات وتناقش كيفية تنفيذها، فأعتقد أن تلك مسألة ستأخذ كفاحاً طويلاً، ولا بد أن يجند لها الكتاب أنفسهم، حتى لو كانوا متخصصين في كتابة القصة القصيرة أو الرواية أو المسرحية أو النقد الأدبي أو الدراسة الأكاديمية.. لا بد أن يجندوا أنفسهم لهذه الرسالة المقدسة في رأيي، لأني أخجل أن أكتب قصة بفنية حديثة جداً أي «تكنيك ألترا مودرن» كما يقولون، ثم لا يستطيع المواطن العادي المتعلم أن يفهم هذه القصة أو يحسها. يعني أنا أقلق كثيراً حين يقرأ المواطن لي قصصاً، أو يقرأ لغيري من الكتاب العرب قصصاً بالغة درجات قصوى من الإتقان، ثم تكون الموسيقى أو الغناء الذي يسمعه ذلك المواطن هو أغاني أحمد عدوية مثلاً.. هذا ما أسميه: المجاعة الثقافية.. ولا يمكن لكاتب مستريح الضمير أن يتجاهلها قائلاً: أنا عملي أن أكتب قصصاً فحسب أو أعمل مسرحيات فقط.. وإنما لا بد من أن يجند نفسه لها.

* واضح ـ كما تفضلت ـ أن القضية حيوية جداً، لكن لا شك أنه مما يزيد من وضوحها أن نستطلع رؤيتك لمفهوم «الثقافة» الذي تراه كالزاد، وكالماء والهواء..

ـ أولاً.. الثقافة هي ثقافة المعلومات العامة، أو الحد الأدنى اللازم من المعلومات العامة الكافية لإدراك كنه الحياة.. يعني، المواطن يستعمل التلفزيون مثلاً أو التليفون وأحدث وسائل العصر، ولا يعرف شيئاً عن هذه الوسائل، بينما المواطن الغربي العادي يعرف عن تلك الأجهزة كيف تعمل، وما النظرية التي وراءها؟ نحن مجتمع وجدنا أنفسنا فجأة في منتصف القرن العشرين أو في نهايته نستعمل وسائل الحضارة دون أن نعرف ما وراءها من خلفية علمية أو نظرية.. فإذن جزء هام من الثقافة هو المعلومات..

الجزء الآخر.. هو وجهات النظر المستنتجة من هذه المعلومات، أي معرفة لماذا وجدنا ولماذا نعيش؟ يعني: لماذا؟ أي معرفة الإجابة على الأسئلة التي يمكن أن تطرح على المواطن العادي مثل: لماذا الديمقراطية مثلاً؟ ولماذا نادي بالحرية؟ ولماذا تعليم البنات مثلاً؟ يعني كل هذه المسائل لا بد أن تطرح ويقال فيها وجهات نظر..

إذن المعلومات أولاً، ثم وجهات نظر ثانياً.. وهذه كلها في حدودها الدنيا الكفيلة بأن تجعل المواطن العادي قادراً على تشكيل رأي خاص فيما يقال له.

يعني لا يكفي أن نعتبر أن المواطن في المجتمع العربي له رأي سياسي في نوع الحكومة التي تحكمه، وإنما لا بد أن يكون له رأي في كل قضية: قضية التعليم، قضايا المرأة.. قضية الزي.. وهو لا يمكن أن يشكل رأياً في ذلك كله إلا إذا كان مثقفاً. ولا أقصد أن يكون مثل أصحاب الياقات المنشأة الذين يطالعون المراجع العويصة، ويخرجون لنا بوجهات نظرهم، وإنما أعني بالثقافة الثقافة للشعب.. للمواطنين العاديين، لأننا نفتقر إلى هذا الحد الأدنى من الثقافة.. صحيح لدينا الحد الأدنى من التعليم، لكن ليس لدينا الحد الأدنى من الثقافة. ثم أكثر من هذا أن الحكومات العربية لا تهتم إطلاقاً بتوفير هذا الحد الأدنى، ولا تأخذه مأخذ الجد. إنها تتصور أن ما تعطيه من خبز وتعليم ووظيفة فيه الكفاية ولا حاجة لغير ذلك. لهذا نرى أنه في كثير من القضايا القومية التي تحتاج الحكومات فيها إلى الشعب ومساهمته فيها، نجد أن الشعب لا يساهم، لأن درجة الوعي عنده ليست كافية لإدراك أهمية وحتمية مساهمته. وهذا راجع لنقص الثقافة.

إذن، حتى الحكومات العربية تحتاج إلى تثقيف!

* إضافة إلى الدور الحيوي للثقافة في مواقف الإنسان الإيجابية في المجتمع، يبقى أن نوضح دورها في حفز العقل العربي ككل على الإنتاج والإبداع في مجالات الحضارة الإنسانية.. الإبداع كمجتمع، وليس كأفراد فقط..

ـ الواقع أن الإبداع هذا مرحلة متقدمة جداً.. لكن يهمني الآن بيان أشكال أبسط، مثل دور الثقافة في الانتماء، فالملاحظ لدينا أن المواطن صارت درجة انتمائه لمجتمعه تقل يوماً بعد يوم، فإذا ذهب للعمل في بلد آخر غير بلده، فإنه ينقطع عن تاريخه، ويستخدم أمواله في بلاد أخرى، ويقطع جذوره عن المجتمع الذي نبت ونشأ فيه. هنا تتجلى أهمية الثقافة.. لأن جزءاً مهماً لا يتجزأ من الثقافة أن يعرف المواطن تاريخ بلده والبلاد العربية كلها معرفة حقيقية، وليس شعارات أو أوهاماً أو انتصارات وهمية، وإنما تاريخ هزائمنا وانتصاراتنا، ومتى قوينا؟ ومتى ضعفنا؟ ولماذا قوينا؟ ولماذا ضعفنا؟ لأن الإنسان حين يعرف تاريخه فإنه ينتمي لوطنه. مثلاً، في العصر القبلي كانت القبيلة تتكفل بتثقيف أفرادها، وتعرفهم بتاريخ القبيلة، والحروب التي خاضتها، لكي تضمن انتماءهم للقبيلة. ولذلك كان ابن هذه القبيلة يفخر بها، ويشيد بها، وينتمي إليها.

ما يسمى بالثقافة القومية عندنا هو شكل من أشكال الدعاية، وليس الحقائق العلمية التي يمكن أن تحقق انتماء المواطن. والنتيجة هي نوع من استنزاف للعقل العربي أيضاً. يعني.. حين تذهب إلى بلد مثل أمريكا، تجد آلافاً وآلافاً، ومئات الآلاف، بل يكاد العدد يصل إلى الملايين من العقول العربية المهاجرة.. وحالها لا هي قادرة على التواؤم مع المجتمع الغربي الذي ذهبت إليه، ولا هي قادرة على الانتماء بشكل كافٍ وتحمل المشاكل في مجتمعاتنا العربية. وهذا جانب من جوانب الثقافة، لأننا إذا وفرنا للمواطن ويسرنا له رؤية لنفسه ولتاريخه، فإنه حينئذ لا خوف عليه من معرفة أحدث حقائق العلم والحضارة، لأنه سيعرفها ويكتسبها للوطن ولقومه، ولن ينخلع من قومه، ولن تبهره الحسابات العلمية فيذهب إليها.. وكل هذا جانب من جوانب الثقافة.

* نرجو أن تكون هذه الرؤية المستنيرة والمسؤولة سائدة في عقول المثقفين، وبخاصة رجال الفكر والأدب، باعتبارهم الأقدر على شرح وتطوير هذه المفاهيم وإيصالها إلى الناس، كما يفعل الدكتور يوسف إدريس، النموذج المشرق للمثقف الملتزم.

ـ الواقع هذا جانب ـ يعني ـ مضحك إلى حد ما، من جوانب المشكلة، وهو أننا نتناول

الثقافة باستمرار ككلمة رفيعة المستوى جداً.. وقد شاعت عبارة حوار بين المثقفين، بل كان الناس يسخرون من المثقفين لأنهم انفصلوا عن المجتمع، وشكلوا ما يشبه الطبقة التي تفكر لنفسها، وتتحدث مع نفسها عن نفسها.. والدليل على ذلك مجلاتنا الأدبية مثلاً. والحقيقة أني غير راض عن كل المجلات الأدبية والملاحق الأدبية التي تصدر في العالم العربي، وهي كثيرة، لأنها تطرح آراء نقاد الغرب في عملية الإبداع الفني، وتقيّم على أساس النقد الغربي. يعني.. ليس هناك حتى محاولة خلق نقد عربي ووجهة نظر عربية مستمدة من واقع ومن داخل الأعمال الفنية العربية.. نحن ما زلنا نعيش عالة على الغرب في الثقافة، وحين نتكلم على الثقافة فإننا نعني التبحر في علوم الغرب الثقافية، وهذا ليس مفهومي إطلاقاً.. أنا أتكلم على الثقافة قاصداً الحد الأدنى من المعلومات، والإحاطة بوجهات نظر في العالم من حولنا، ومن باطننا، بشكل يساعد المواطن على تشكيل رأي وعلى بنائه من الداخل، لكي يكون فعلاً مواطناً قوياً صالحاً مفيداً لنفسه ولأسرته.

* على ذكر الأسرة، كيف ترى أثر الثقافة السائدة حالياً في الأسرة، وتواصل الأجيال في المجتمع؟

ـ هذه الثقافة تجعل الأب العربي غير قادر على توجيه ابنه. وفي الماضي كان يربيه بالضرب، والآن لا يستطيع مناقشته، لأنه لا يضع نفسه في مكان ابنه، ولا يدرك وجهات نظر ابنه، فكيف يستطيع التأثير فيه؟ وكيف يستطيع مساعدته في اختيار مستقبله العلمي مثلاً؟ وهذا معناه أن الأجيال لا تتواصل في مجال اكتساب الخبرات بعضها عن بعض.. فكل جيل يرفض الجيل السابق، فيتشكل لدينا ما أسميه أنا: «الانتماء الجيلي»، حيث الجيل يعلم بعضه بعضاً، في حين معلوماتهم واحدة. فإذن نحن نعيش تعليم كل جيل فيه يعلم نفسه، والمفروض أن عملية التعليم عملية تواصل بين الأجيال الأقدم والأحدث، فتكتسب الأجيال الخبرات والمعلومات الخاصة بالأجيال الأقدم ثم تبني عليها، وهكذا تبنى الحضارات. لكن إذا كان كل جيل يأتي فيضع فاصلاً بينه وبين ما سبق، فإننا سنظل باستمرار في مرحلة الخط الأفقي ولن يعلو لنا بناء.

* في حديثك عن الثقافة ذكرت التلفزيون ووسائل الحضارة الحديثة، فكيف ترى دورها وسبل استخدامها في مجال الثقافة وقضيتها؟

ـ أنا في كلامي عن الثقافة في الواقع لا أعني ثقافة الخاصة.. ثقافة الكتاب، وإنما أعني ثقافة الشعب العامة، وهذا ملحوظ في بلاد متقدمة جداً مثل إنجلترا. يعني.. كيف نستعمل نحن التلفزيون؟ وكيف يستعمله الإنجليز؟ نحن نستعمل التلفزيون غالباً للترفيه، وهناك التلفزيون أساساً للتعليم. يعني عندهم جامعة الهواء في الصباح، وكل البرامج في الصباح تعليمية، ومن الممكن للإنسان الذي يتابع برامج جامعة الهواء أن يأخذ شهادة مثل الملتحق بالجامعات بالضبط. وهي برامج مصاغة بجمال وممتعة جداً، إلى درجة أنني كنت أفاجأ بأنني مستغرق في متابعة درس في الرياضة البحتة موضحاً ومسهلاً وممتعاً في عرضه. هذا معناه أن هناك ثورة تعليمية في البرامج عن طريق التلفزيون. فإذن هذه البلاد تستخدم التلفزيون أولاً لتعليم مواطنيها، ثم لتزويدهم بالمعلومات والتحقيقات التلفزيونية التي تثري الإنسان وتحيطه علماً بما في الكرة الأرضية كلها. ثم في النهاية تقدم له قدرات وتعرفه بمهن أخرى لا يعرف عنها شيئاً. وأخيراً تعطيه ترفيهاً.

إن التلفزيون وسيلة خطيرة جداً، بل أخطر ما اخترعته البشرية كلها، حتى صار علامة فاصلة بين عصر ما قبل التلفزيون، ثم عصر ما بعد التلفزيون، لأنه جهاز خطير دخل إلى غرف النوم وإلى داخل العائلة، وأصبح له نفوذ على الأولاد والبنات والأجيال الجديدة وحتى الكبار، نفوذ أقوى بكثير جداً من نفوذ التعليم والتربية والمدرسة والقانون وغير ذلك. ومع ذلك فنحن نستخدمه في الترفيه، والمفروض أن نستخدمه في اكتساب معلومات أكثر وثقافة أكثر، بينما الغرب الغني بالمعلومات والثقافة يزداد تعليماً وثقافة، والنتيجة أن الهوة بيننا وبينهم تكبر وتزداد اتساعاً.

* الواقع أن هذه قضية خطيرة جداً، وجديرة بالسنوات الثمينة التي وهبتها وتهبها لها. ولكن ذلك شغلك ويحرمنا من الإبداع الجميل الذي عودتنا عليه من فن القصة والمسرحية.

ـ في ذلك، أنا قد أكون ضحية إيماني، أو ضحية وجهة نظري، فأنا مؤمن بأن الكتابة ليست أساس الحياة، إنما هي إفراز للحياة. يعني لا بد أن يحيا الإنسان أولاً، ويحيا من أجل شيء.. من أجل مبدأ أو عقيدة أو رسالة، ويكتب فناً كإفراز ثانوي لهذه الحياة، والملاحظ عندنا أن هناك تقريباً نوعين من الكتّاب في عالمنا العربي: كاتب أسميه كاتب الحرفة، الذي يصنع قصة قصيرة جيدة، أو يصنع رواية جيدة، أو مسرحية جيدة، ثم الكاتب الفنان الخلاق صاحب الرؤية، وهذا ليس مجرد «صنايعي»، وإنما عنده رؤية يضعها فيما يشاء من أشكال كالمقالة أو القصة أو المسرحية.

أعتقد أني من النوع الثاني من الكتاب، لأنني لا يهمني أن يقال عني إنني كاتب قصة ومسرحية وغير ذلك، إنما يهمني حقيقة أن أكون ذا فائدة للناس.. أن أعمل شيئاً مفيداً لهم، وليس لأمجد به نفسي ككاتب.

مثلاً.. كثير من الناس يقولون: هذه المقالة كان يمكن بقليل من التغيير أن تصير قصة جميلة جداً. لكن أنا عندي فعالية الشيء أهم مليون مرة مما أكسبه.. ثم إن كتابة المقال ليست عورة، وكتابة «المفكرة» التي أنشرها في «الأهرام» ليست عملاً مخلاً. إنني في هذه المفكرة بذلت جهداً ضخماً جداً، لكن أعتقد أنها غيرت من وجه الحياة لدى من قرأها من الناس، أكثر من مليون قصة ومليون مسرحية. فأنا يهمني فاعلية الكتاب، وليس المجد الشخصي الذي يأتي من الكتابة.

* اسمح لي بوقفة هنا، لأن هذا الكلام يلقي ظلالاً على تقديرك لدور القصة والمسرحية، هذا الفن الذي نعتقد أنك أضفت فيه إبداعات حقيقية، وأثرت به تأثيراً حقيقياً، لا في المجال الأدبي فقط، وإنما في المجال الاجتماعي أيضاً، وكان بشارات بمعان وقيم تقدمية هامة.

ـ أنا أرحب باحتجاجك هذا، وطبعاً أمتع عمل بالنسبة لي أن أكتب قصة، وأمتع أكثر أن أكتب مسرحية، وليت الحدود الدنيا من مشاكل الحياة العربية تحل، لكي يتفرغ المرء فعلاً للكتابة، لأنها عمل ممتع. لكن هناك اضطراراً إلى الأعمال الأخرى.

لقد قيل لي: أنت كتبت في فترة السبعينيات مقالات كثيرة، وكان إنتاجك القصصي نادراً. فقلت لهم: هذا بالضبط مثل قولكم: واحد نشب حريق في بيته، فبدلاً من أن يطفئ الحريق، انتحى ركناً من البيت، وراح يكتب قصة عن بيت يحترق، وهذا طبعاً موقف غير معقول وعبثي.

في السبعينيات في مصر، شب حريق يريد التهام الثورة والتهام الوجود المصري، فكان لا بد من التفرغ لمكافحته، لأنه كان أفظع من الاستعمار الذي كان ظاهراً باحتلاله العسكري فكانت مكافحته سهلة. إنما في السبعينيات كانت عاصفة هوجاء تريد اقتلاع الوجود المصري الحديث كله. وأعتقد أن مكافحتها كانت مهمة لازمة.. حتى إنني لم أكتف بكتابة مقالات، وإنما كنت أنزل إلى الشارع في المظاهرات. لكن بالطبع القصة مهمة وجميلة.

* إذن حدثنا عن رؤيتك وتجربتك الإبداعية في فن القصة وفن المسرح، وما أضفته من تطوير.

ـ ما أستطيع قوله هو أن طموحي كان ولا يزال هو خلق فن عربي نابع مني، لأن لي نظرية تقول: إذا كان العلم قوانينه عالمية، فإن الفن قوانينه محلية، ولا بد من أن يكون نتيجة بيئة معينة، وتفكير معين، لكي يتواصل مع الآخرين.

كانت مهمة شاقة جداً، لأني بدأتها بعد الحرب العالمية الثانية، حين كان قد استتب للأدب العربي قاطبة أننا نستوحي من الغرب في إبداعاتنا المسرحية والقصصية والروائية. فأخذت على عاتقي مهمة أن أخلق لنفسي القصة العربية القصيرة، والرواية العربية، والمسرحية العربية إن أمكن. لم تكن دعوة عامة للجميع، ولكن بالطبع واجهت معارضة شديدة جداً، لأن الواقع الثقافي والأدبي كان يقول: إن القصة القصيرة شكل أوروبي، والرواية الطويلة شكل أوروبي، والمسرحية شكل أوروبي. أنا أقول: لا. فكل شعب له قصته القصيرة الخاصة به، وكنت أضرب مثلاً على الشعب المصري بالنكتة.. فالنكتة هذه قصة قصيرة جداً، وفيها كل مواصفات القصة القصيرة. ومثل ذلك الرواية لدينا أخذت شكل «أبو زيد الهلالي» والشاعر. يعني لنا طريقة في الرواية مختلفة، وكذلك المسرح.

* إلى أي حد تحققت هذه الرسالة أو هذا الطموح؟

ـ أعتقد أنها تحققت بنجاح شديد، بدليل أن الدعوة إلى إنشاء قصة قصيرة عربية هي الآن مكتسحة العالم العربي، والدعوة لمحاولات الرواية العربية كل الكتّاب الجدد ماضون فيها، وفكرة مسرح عربي تحولت من فكرة إلى حقيقة، تطبق الآن عند الطيب الصديقي في المغرب، إلى سعدالله ونوس في سوريا، مروراً بمصر والعراق، وكل الكتّاب الجدد الذين يكتبون للمسرح أصبحوا يحاولون الوصول إلى أشكال عربية للمسرح.

* الواقع أننا نذكر أنك انشغلت كثيراً بقضية البحث عن شكل عربي، ليس في أعمالك الإبداعية فحسب، وإنما أيضاً بسلسلة المقالات التي نشرتها بعنوان محاولة البحث عن شكل أو نص مسرحي عربي خاص.

ـ لكن هناك نقطة أحب أن أضيفها خاصة بحكاية الشكل المسرحي، فأنا عندي تحفظ مهم جداً، وانتقاد للكتابات الجديدة في العالم العربي، لأنها أغرقت في الشكلية، مثل إغراق النص العربي قديماً في البديع والمحسنات اللفظية، وأصبح الشكل يستهدف لذاته، يعني تجد من

يقول: أنا سأكتب قصة على الطريقة الشيئية، أو قصة على طريقة تيار الوعي، أو قصة كذا..

أنا رأيي أنه ليس هناك تجديد شكلي في الفن. وأن تجديدي الشكلي يأتي عن طريق العثور على الموضوع الجديد، لأن الموضوع الجديد هو الذي يحمل في ثناياه التجديد في الشكل.

سأقول لك تجربة واقعية تبيّن متى اكتشفت أن هناك مسرحاً عربياً؟ كان ذلك وأنا أكتب «الفرافير».. وأثناء ذلك كتبت المقالات التي أشرت إليها.

المسرحية كانت بين «فرفور» وسيده، وهذا أعاد إلى ذاكرتي فكرة مسرح السامر في الريف، وفكرة التمسرح الذي كان يحدث للواحد منا وهو يشاهد السامر. وهنا قلت: إذن نحن لدينا فعلاً مسرح مصري ومسرح عربي، وكان هذا نتيجة للموضوع الذي كنت أكتبه.. فالموضوع هو الذي قاد خطاي إلى أن أكتشف شكلاً شعبياً لكي أوصل به الموضوع الشعبي.

* وطبعاً هذا ينطبق على القصة القصيرة؟

ـ نعم، الأمر نفسه في القصة القصيرة. مشكلة كاتب القصة القصيرة أنه ينشغل جداً بطريقة الكتابة، في حين أن أهم ما يجب أن يشغله هو موضوع الكتابة، فالموضوع هو الذي سيخلق الشكل. القصة هي قصة في أي شكل تقال به.. المهم موضوعها. والقصة التي تسترعي انتباهي هي ذات الموضوع المهم جداً للقارئ، حتى لو كان إغلاق باب أو فتح نافذة. وإذا كان هذا الموضوع مهماً جداً لدى الكاتب إلى درجة أنه كتب عنه قصة، فقطعاً سيشد انتباه القارئ إليه وسيقرأ. ولذلك نشأت فجوة غريبة بين الكتابات الحديثة والقراء، فالقراء لم يصل إليهم هذا الإنتاج الحديث؛ لأنهم يحسون أن الموضوع غريب عنهم. إنما إذا استطاع الكاتب اكتشاف الموضوع المهم لديه حقيقة، وبالتالي سيكون مهماً للقارئ، فأعتقد أنه سيعمل عملاً جيداً، وسيجدد في الشكل أيضاً.

* برغم تحفظاتك على الإنتاج الجديد للأدباء الجدد، فإنه معروف عنك حنوك على كثير منهم وتقديمك لهم. بعد تحفظاتك على مسألة الشكل، ما رأيك في مسألة التعجل والسهولة في نشر هذا الإنتاج؟

ـ هذا شيء سيئ في الواقع، لأنه يؤدي إلى نشأة الكاتب ضعيفاً. يعني دائماً حين يأتيني

كاتب بمجموعة قصص لكي أقدمها، أقول له: لو انتظرت سنتين ستكبر قوياً، أما إذا نشرت هذه المجموعة فإنها ستمر من دون أن ينتبه إليها أحد.

* لكنك كتبت عن يحيى الطاهر عبد الله، وصنع الله إبراهيم، وبعض الكتّاب الشباب في مصر؟

ـ لأنهم فعلاً لم يكتبوا بسهولة، وإنما أخذوا الكتابة عملية معاناة حقيقية، لأنهم أدركوا أن الإنتاج غير الناضج له أثران سيئان جداً. أولاً: هو يقنع الكاتب أنه أصبح كاتباً، ومن حقه أن ينشر وأن يُعترف به. وثانياً: أنه يجعل القارئ يكره القراءة له، لأنه بمجرد أن يأخذ مقلباً في قصة لفلان، فإنه لن يحاول طول عمره أن يقرأ له ثانية.

إذن فهذه دعوة للإتقان، ولكن بعض الناس يرونها عملية عدم حنو على الأجيال الجديدة، وهذا غير صحيح. والصحيح أن كل جيل يجب أن يكون أكثر إتقاناً لعمله وموضوعه من الجيل الأسبق، وبذلك يثبت وجوده، وتتطور الحياة إلى أمام.

* هل تعطينا نبذة عن تجربتك الخاصة في مجال النشر في ضوء ما ذكرت؟

ـ أنا لما ابتدأت أكتب.. وابتدأت البحث عن الموضوع القصصي المصري العربي قلت: إني سآخذ عشر سنين من التجارب. كان ذلك سنة 1950، فقلت: سأنشر سنة 1960، أو سأفكر في النشر سنة 60، لأني كنت أريد عمل تجارب معملية بيني وبين نفسي في الأسلوب، وأكتشف أسرار اللغة، وقضايا الرمز في اللفظ، لأنه من الممكن أن تؤدي معنى ما بألفاظ كثيرة، لكن لكي تختار معنى خاصاً لا بد أن تقدمه بلفظ خاص.. فالأمر يحتاج إلى بحوث في موسيقية النثر العربي، وكيف يكون لكل قصة موسيقى داخلية خاصة بها، وكيف تتحدد الجملة الأولى فيها. كذلك الأمر يحتاج إلى البحث عن طريقة الحوار في القصة.. وهل هو الحوار العادي والثرثرة التي نمارسها؟ أم أنه من اللازم أن يكون له وزن موسيقي معين؟ وهل القصة فيها سرد؟ والسرد في الحقيقة كلام منطوق، إنما القصة فيها لوحة مرسومة، بمعنى أن شكل الكلمات والحروف التي نستعملها يحرك في ذهن المتفرج رموزاً وقضايا وذكريات معينة.. فأنت ككاتب تنغمس في مخ القارئ.. بشكل الكتابة نفسها، وشكل الحروف، وأنواع الأدوات والجمل التي تستخدمها.. هذه كلها بحوث قلت لنفسي إني سآخذ عشر سنين لحل مشاكلها.

* فهل حدث ذلك؟

ـ لا والله.. فقد جاءني أحد الأصدقاء، وسرق أربع قصص من عندي، ونشرها في «المصري»، فوضعني أمام الأمر الواقع، وأصبحت معروفاً بكتابة القصة القصيرة. ثم قلت لنفسي: حسناً.. ولماذا أنا خائف؟ ولماذا لا نشرك القراء معنا في التجارب المعملية هذه؟ فالفن ليس تجارب معملية.. وإذن فلننشر، وإذا أعجب القراء كان جيداً. وهذا ما كان. لكن طبعاً قبل ذلك كانت لي محاولات، وكتبت قصصاً وأنا سني 14 سنة من نوع «كذا كذا يا حبيبتي..» ومثل هذا الكلام. ثم حاولت في سن العشرين.. يعني كل سنة كنت أحاول.. لكن كنت أحس أنني لم أصل بعد.. حتى ابتدأت حقيقة أحس بخطورة القصة في سن 23 وأنا في بكالوريوس كلية الطبّ.

الحقيقة أني طبعاً أحب أي موهبة تطلع، لأنني أساساً قارئ.. وربما تكون كتابتي للقصة لأني لا أجد القصة التي أريدها بالضبط فأضطر لكتابتها.. وأنا أحب القراءة وقراءة القصة بالذات، ولهذا أحب إبداع الكتّاب الجدد حين يظهرون.. لكن القصة مسؤولية خطيرة جداً يا أستاذ عبد الوهاب.. القصة الناجحة تساوي عمراً، لأن حتى كبار الكتّاب من أمثال تشيكوف وموباسان اشتهروا بعشر أو خمس عشرة قصة فقط لكل منهم، وبقية أعمالهم كلها محاولات للوصول.. يعني الوصول إلى المعادلة القصصية المكتملة عمل ليس بسيطاً، وإنما يكاد يصل إلى نوع من الاختراع العلمي.

* شوقتنا إلى معرفة بعض القصص التي تحس أنها قالت ما في قلبك، وأنها تقترب من هذا الاكتشاف والاختراع العلمي..

ـ سأعطيك مثالاً بآخر قصة كتبتها، وهي قصة اسمها «أمي»، وفكرتها ببساطة: طفل مشرد.. أمه تزوجت غير أبيه، وأبوه تزوج غير أمه، فعاش عند خاله، وشرد من بيت خاله.. ومشى في شارع قصر العيني.. والدنيا برد ومطر.. ولم يجد مكاناً يأوي إليه ويحميه من المطر سوى جذع شجرة معروفة عندنا بشجرة أم الشعور التي تتميز بوجود فراغات في جذعها.. ففرح جداً بهذا الفراغ؛ لأنه صار له مثل البيت، وأقام فيه.

إلى هنا وهذه القصة عادية، إنما غير العادي في القصة أن الشجرة بدأت تحس بهذا الطفل، وبأن هناك حياة ودفئاً، فبدأ نوع من الورق الصغير ينمو داخل الجذع ويدفئ المكان.. وهكذا

تكون القصة عبارة عن دراسة لعلاقة بين طفل.. كائن بشري وشجرة. وطبعاً لا يمكن لكاتب أن يكتب هذه القصة إلا إذا كان قد وصل إلى درجة من الفلسفة أو الرؤية للكون.. وأنه مترابط فيه أخذ وعطاء بيننا وبين حتى النبات والحيوان، وبيننا وبين حتى المادة.. ولذلك تجد الإنسان مثلاً يحن للكرسي الخاص به، ولا يجد راحته إلا عليه، وأنا أعتقد أن هذا الشعور أيضاً موجود عند الكرسي الخشبي، ولكنه ليست لديه طريقة للتعبير عنه، ولعل ما يميز المملكة الحيوانية أو النباتية أنها تستطيع التعبير إلى حد ما عما تحسه تجاه الإنسان وتجاه بعضها إلى بعض.

طبعاً هذه القصة يمكن كتابة خمسين قصة على نسقها، لكنّ طريقتي غريبة، فأنا لا أرضى أن أفعل ذلك.. وأقول: كفى، والقصة كتبت، وغطت هذه الرؤية الفلسفية، فيجب أن أنتقل إلى مرحلة فلسفية أخرى، وأرى رؤية أخرى وربما أعمق لكي أكتب عنها قصة أخرى.. وهكذا أنتظر، وربما يكون ذلك سبب قلة إنتاجي، فأنا أقل كاتب عربي في الإنتاج.. سواء في القصة أو الرواية، يعني بعض كتاب الرواية لهم إنتاج أكثر مني بكثير، ورأيي أن المشكلة ليست في الكم، وإنما المشكلة أن تكتب شيئاً فيصير الموضوع قد طرق وكتب وانتهى الأمر، ووصلت فيه إلى ما يشبه القانون العلمي للأشياء.

* وماذا عن تجربتك في مجال الرواية؟

ـ الحقيقة أني كتبت «الحرام» وأنا أيضاً في جو خلق شكلاً للرواية العربية، لأني لاحظت مثلاً أن الروايات التي قبلي ـ بما فيها روايات الأستاذ نجيب محفوظ ويحيى حقي وقبلها زينب وغيرها ـ روايات الكاتب ليس داخلاً فيها.. يعني لا يقول شيئاً، ولا يعلق، ولا يسخر مثلاً. فأنا قلت: لا.. الطريقة العربية لكتابة الرواية أن الكاتب هو الذي يحكي القصة، فلماذا يخدع الناس، ويقول لهم: إن هذه القصة حدثت فيها كذا، والساعة كذا تحرك القطار؟ وكأن الكاتب أسير وغير موجود، وكأنه يحاول نقل موضوع نقلاً شفافاً.

أنا قلت: لا.. فالحقيقة الأولى أن الكاتب موجود، وهو الذي يحكي القصة، وهو الذي يتحمل مسؤولية حكايتها ومسؤولية التعليق على أحداثها، فيسخر مرة، ويضحك مرة.. وهكذا جئت أنا بتجربة في الرواية من خلال الكاتب. وكان من المفروض ـ حقيقة ـ أن أكرر هذه التجربة، للوصول إلى شكل وموضوع عربي للرواية، لكن القصة القصيرة أخذتني، لأنني أحبها جداً.. أحبها وأحس فيها أشياء تجذبني..

* فماذا عن تجربتك في الكتابة للمسرح؟

ـ نفس الشيء في المسرح. وأنا يخيل إليّ أن من يعمل في المسرح يصيبه نوع من الجنون.. ولا يمكن لأحد مسه سحر المسرح أن يهجره أبداً.. ولذلك يستحسن أن يدخل المرء المسرح كآخر خطوة في سبيل الأدب، حيث يكون قد أنضج أدواته الفنية، لأن المسرح مختلف تماماً عن القصة.. والفنان مختلفان تماماً، وربما كان ما يضعف المسرح هو حضور كاتب القصة فيه، لأن كاتب المسرح همه الأول عناصر الصراع داخل الدراما التي يتكلم عليها، ولا بد أن يستقرئها، وتكون عنده الفراسة لإدراك أن هذا الموقف هو الذي سيشتبك مع عواطف الجمهور.. وهذا فن مختلف تماماً، بينما القصة مكتوبة وهناك وقت لتأملها.. فهي تبني عالماً كاملاً من كلام، مجرد كلام.

المسرح فن صعب جداً، وزيادة على ما فيه ـ أو ما لا بد أن يكون فيه ـ من موهبة فراسة، وموهبة ثقافة وعلم واطلاع، وبخاصة في الموضوع الذي يتناوله، لا بد أن يكون لدى الكاتب المسرحي موهبة «التحريك» أيضاً.. تحريك المجموعة البشرية التي يكتب لها، لأن القصة تحرك خيال واحد فقط هو قارئها، أما المسرح فيشاهده خمس مئة أو ست مئة أو ألف، ولذلك لا بد من أن يمتلك كاتب المسرحية القدرة على تحريك هذه المجموعة البشرية، وهذه رموزها مختلفة عن رموز مخاطبة الفرد القارئ.

* هل تسوق لنا مثالاً على ذلك؟

ـ مثلاً ـ وآسف على استرسالي في الحديث عن تجارب شخصية ـ أحياناً أكتب مشهداً قاصداً أو متوقعاً أن يحدث الأثر الفلاني، وسيضحك الجمهور مثلاً.. فإذا بي ـ عند المشاهدة مع الجمهور ـ أجد أن المشهد أو الجملة التي كتبتها بوجه خاص لتضحك، لم تضحك أحداً، وأن الجمهور ضحك من شيء آخر بعيد، ولم أكن منتبهاً له..

الأمر يحتاج إلى تدريب وتجربة، ولذلك فإن الكاتب المسرحي لا يكون ناجحاً من أول مسرحية.. وأنا مثلاً كتبت ثلاث أو أربع مسرحيات قبل أن أبدأ كتابة «الفرافير».. ثم عملت بعد «الفرافير» أعمالاً أكثر نضجاً منها بكثير.. لأنك هنا تتمرن وتتدرب ككاتب على علاقة غريبة بينك وبين الجمهور المتلقي.. ليس فقط الجمهور المصري، أو العربي، وإنما الإنساني بعامة.

* هنا من حقك أن نذكر أنك من الكتاب القريبين جداً من الجمهور، والذين يتفاعل معهم الجمهور تفاعلاً حاراً، لمسناه وعشناه في الستينيات.

ـ أنا فوجئت مرة بدعوة من يوغوسلافيا لحضور افتتاحين لمسرحية «الفرافير»: افتتاح باللغة التركية، وافتتاح باللغة الصرب كرواتية، فذهبت. كان المكان مجمعاً مسرحياً «كومبلكس» فيه أربعة مسارح، اثنان منها يقدمان «الفرافير»، أحدهما باللغة التركية، والآخر بالصرب ـ كرواتية. الأول إخراج مخرج تونسي، والآخر إخراج مخرج يوغسلافي.

كانت تجربة مذهلة أن أرى هذه المسرحية التي كتبتها لجمهور مصري خالص، وكيف ستبدو في لغات أخرى. والحقيقة أني ذهلت، لكن يبدو أن الإنسان واحد، والوجدان واحد، في كل زمان ومكان، لأني وجدت الجمهور متجاوباً بحماس، ربما أكثر من الجمهور في مصر، لأنه جمهور متعلم إلى حد ما، كما كان الممثلون فاهمين أدوارهم بالضبط، مثل الممثلين في مصر، وحاسين بما في المسرحية. يعني المسرح قد يبدو محلياً، إنما هو في الحقيقة عالمي.. مثل ذلك أيضاً أن شيكسبير ينقلنا مثلاً إلى عصر هنري الرابع الذي لم نعشه، ولا نعرف عنه شيئاً، ومع ذلك ننفعل كأننا دارسون لتاريخ إنجلترا، لأنه جاءنا متقناً مسرحياً، وهذا هو الفن.

* هنا أيضاً من حقك أن نذكر أن أعمالك من أبرز الأعمال العربية التي حظيت بترجمتها إلى لغات أجنبية كثيرة، إضافة إلى كثير من الدراسات ورسائل الدكتوراه عنها. وهذا يدفعنا إلى استطلاع رأيك في غياب آدابنا وفنوننا ـ باستثناءات قليلة ـ عن الساحة الثقافية العالمية، بقلة حظها من الترجمة.

ـ هذا سببه البسيط جداً، أنه لكي يقرأنا ويتقبلنا العالم، لا بد من أن تكون آدابنا عربية فعلاً.. يعني أنا لا فضل لي في ترجمة أعمالي إلا فضل واحد فقط، هو أنني كاتب عربي، أي أكتب من وجهة نظر عربية، باللغة العربية، بالإحساس العربي والعواطف العربية والطعم العربي.. ومن هنا تأتي حركة الترجمة، لأن الناس تريد أن تعرف هذا الطعم العربي، فتقرأ.

إن أدبنا لا يلقى قبولاً واسعاً في البلاد الغربية، لأننا في الواقع عشنا طويلاً متطفلين على الأدب الغربي، ولم ننتج أو نفرز أدباً عربياً حقيقياً خاصاً بنا نصدره للعالم، لأننا حين نصدر الأعمال المكتوبة على نسق «بلزاك» وغيره، فهذه بضاعتهم ردت إليهم..

المفروض أن نظهر حقيقتنا نحن، وعواطفنا وأحاسيسنا نحن، فهذا ما يحب الناس أن يروه ويقرؤوه، هنا وفي العالم، وهذه وظيفة الأدب المهمة: أن يعرف الإنسان بنفسه، ويعرّف الآخرين به، وهنا تأتي حركة الترجمة.

الشيء الآخر هو أن الأصيل من إنتاجنا قليل. والسبب الثالث في ضعف حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأخرى، أن الترجمة تحتاج إلى مترجم فذ، حيث لا يكفي أن يكون محيطاً باللغة العربية، وإنما يجب أن يكون قادراً على الكتابة باللغة المنقول إليها، والكتابة على مستوى القصة. يعني مثلاً عمر الخيام، لماذا اشتهر في العالم؟ هذا لأنه وجد فيتزجيرالد الذي لم يترجمه فقط، وإنما نقله إلى المقابل الإنجليزي. وهكذا يحتاج الأدب العربي ـ القصص والمسرح ـ إلى كتّاب قصة ومسرح لديهم هذه المقدرة، وهذا صعب، ويتم الآن على مرحلتين.. يعني هناك حركة اهتمام بالأدب العربي كبيرة في باريس وأمريكا وإنجلترا، حيث يترجمون ترجمة مبدئية.. ثم يعطونها لكاتب متخصص إنجليزي مثلاً يعيد كتابتها.. لكن أيضاً هذا في حد ذاته خطأ، لأن هذا الكاتب الإنجليزي لا يعرف تفاصيل الحياة العربية.. فياحبذا أن نعثر على المترجم الحق.. فالعثور عليه ومكافأته تساوي جهد وزارة ثقافة في أي بلد عربي.. يعني لا بد من أن نوفر له تفرغاً كاملاً تتكفل به الحكومات العربية.

* أو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم..

ـ المنظمة ـ ورئيسها صديقي جداً ـ مشغولة بالتربية فقط، وجهودها في الثقافة العربية محدودة جداً، بدليل مطلب بعض الناشرين الإنجليز والأمريكان أن تشتري المنظمة أو الدول العربية خمس مئة نسخة من كل كتاب، لكنهم لا يشترون.. فكيف نطلب من العالم أن يطلع على آدابنا، ويقتنيها، في حين أننا لا نشجعه؟! هذا أيضاً جزء من ظاهرة إهمال المشكلة الثقافية عندنا..

* * *

فهرس المحتويات[1]

(1) لأن لآلئ الكتاب كلهم قامات متميزة ومبدعة في مجالاتها، فقد رأينا أن يكون ترتيبهم على صفحات الكتاب هو الترتيب الألفبائي.

***

لآلئ عربية

في ستينيات القرن الماضي كانت عناية الله وكرمه قد وهبا للإمارات، وقيضا لها الأب الحاني والزعيم الملهم، صاحب الرؤية والبصيرة النافذة، والعزم والحكمة الواعية، صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رحمه الله، فانطلق - وحوله الطلائع الوطنية من قادة الإمارات وأبنائها - رافعاً راية مشروع وطني تاريخي عظيم، يسجل تاريخاً جديداً، ويبني حياة جديدة على أرضها، لخير كل أبنائها، بل وكل الأشقاء.

وفي ظلال هذه المسيرة المباركة، وتحت رايتها الشامخة، تجلت معالم الرسالة الإعلامية البناءة، وهي باختصار: المساهمة في حداء المسيرة، والدعوة إلى قيمها النبيلة، وبناء الإنسان بالمعرفة، والثقافة، والتنوير، والانفتاح السمح الواعي على الدوائر التي تنتسب إليها الإمارات: المحلية والخليجية والعربية والإسلامية والإنسانية العالمية.

وهذا الكتاب «لآلئ عربية» هو غيض من فيض مما قدمه تلفزيون أبوظبي؛ حين راح الجميع يجتهد ويعطي ويبدع، وصار إعلام الإمارات ساحة محبة، ومنهل معرفة وثقافة، وجسر تواصل وتعارف، وبوتقة تفاعل خلاق مع كل روافد نهر الثقافة العربية الزاخر من المحيط إلى الخليج.

السعر 40 درهماً

9 789948 175292

إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY